الجسد والروح

سلسلة كتب «العنقاء»



دار النشر باللغات الاجنبية بكين

الجسد والروح

قصص مختارة من الادب الصينى المعاصر

(١٩٨٠ - ١٩٨٦) الجزء الاول

تأليـــف

لى قوه ون تشانغ شيان ليانغ

وآخـــرون



سلسلة كتب « العنقاء »

الطبعة الاولى ...... عام ١٩٨٩



ترجمة : محمد ابو جراد
رسم : تساى رونغ وآخرون

لدار النشر باللغات الاجنبية
٢٤ شارع باى وان تشوانغ
بكين ـ الصين

ISBN7-119-00440-9

طبع فى جمهورية الصين الشعبية

خسوف القمر

لى قوه ون

١

انتشر الصقيع المبكر الذى ينزل على جبال تايهانغ ، مغطيا سلاسل الجبال والغابات والحقول المدرجة التى اصبحت خالية من اى شيء بعد موسم الحصاد. وكان يى رو يرنو ببصره من شباك الاوتوبيس . وكان منظر الخريف الكثيب ، الاجرد ، والابيض ، والذى يذكره بالمنظر القلوى على ضفة بركة ملحية . . كان كافيا لأن يوقع فى نفس اى انسان الكآبة والأسى . لم يكن هناك اى اثر للحياة ما خلا نباتات الكاكى على جانب الطريق ودخان الطبخ والماعز التى تثبت عيونها فى ذهول على الاوتوبيس وهو يطوى الارض .

وقد احس يى رو بالندم والأسف انه قام برحلته هذه فى هذه العجالة . كان لا بد ان يبعث رسالة او برقية مقدما ! ولكن . . لمن ؟ ربما كانت العمة قوه قد ودعت الحياة !

وفيما كان الاوتوبيس يقترب من بغيته ، ازداد احساسه بالاحباط والكآبة . كان ينبغى ألا يأتى الى القاعدة الثورية القديمة كى يستكشف شيئا من عالمه الروحى ! كان سخيفا ان يتصرف بمثل هذا الاندفاع طالما كان يستحيل ان يستعيد شيئا من ماضيه الذى افتقده منذ امد طويل . وصل الاوتوبيس الى محافظة س . . ولكنه لم يقدر ان يتبين ما جاء يبحث عنه . الحق . . لم يستطع ان ينسى حبه المفقود ، غير ان الاشياء الاخرى التى حاول ان يستذكرها قد بلبلت افكاره . ولم يعرف كيف يعبر عما يحس به .

ووقف فى الميدان امام بوابة محطة الاوتوبيسات . . وهناك احس برعشة من الرياح القارسة القادمة من الجبل . ولما كان البرد اشد فى المنطقة الجبلية ، كان سائقو السيارات قد ارتدوا معاطف مبطنة بفراء الغنم . واتجه الى حيث السائقين واستفسر منهم ان كان يمكنهم ان يأخذوه الى بركة اللوتس ان كانوا ذاهبين الى هناك ، بيد ان استفساره قد اثار هديرا مدويا من الضحك . وكان سكان الجبال — هذا ما يخاطب به اهل الريف الذين احبهم واجلهم فى القاعدة الثورية القديمة — يمتازون باحساس خاص من المزاح والحيوية . وقالوا له :

— ايها الاخ الحميم . . لا نريد منك مالا ! اذهب واقطع تذكرة بثمانية قروش ، واركب الحيوان الحديدى ذا الاربع عجلات ، وستصل الى هناك مع الظهر .

وانطلقت الضحكات من فم يى رو . آخر مرة غادر فيها محافظة س لم تكن فيها محطة اوتوبيسات . وها هى اليوم الطريق

العامة تؤدى مباشرة الى بركة اللوتس وربما الى يانغجياوناو — القرية الجبلية الصغيرة .. المكان الذى اراد التوجه اليه .

دفع القروش الثمانية فى شباك التذاكر وبعدها انتابه التردد . ثم تناول التذكرة ، وعزم فى الاخير انه لا بد ذاهب الى هنالك . ومن غير شك .. كان ما زال غير قادر على معرفة السبب بالضبط .. سبب عودته الى يانغجياوناو . اى وضع سيواجهه لدى وصوله ؟ هل سيجد شيئا قد يغريه ويستهويه ؟

كان حلما عزيزا على نفسه ان يعود الى هذا المكان .. والا كان سيسرى فى قلبه الاحساس بأنه قد فقد شيئا . وبعد ان وضع التذكرة فى جيبه ، تبين ان امامه متسعا من وقت ، فسار فى شارع ضيق ؛ شارع شيقوان ، وتحول اليوم الى شارع سيشين ، قاده الى البلدة . هذه الطريق الحجرية غير الممهدة كان قد عبرها العديد من كبار رجالات الجيش والوزراء اليوم فى ازمنة ولت ، اما على ظهور الخيل واما على الاقدام . وكانت محافظة س تطهو نوعا من الدخن المبخر ، كان لذيذا مع انه لم يكن يسهل ابتلاعه ، وكانت المتعة به فائقة فى هاتيك الايام . وطلبت نفس يى رو شيئا من طعام مع انه لم يهاجمه الجوع تماما ، ولكنه كان يعى انه سيمضى عدة ساعات فى الاوتوبيس ، وربما فاته طعام الغداء بعد وصوله الى بركة اللوتس . وهو بحاجة الى طاقة تساعده على الصعود الى الذروة الرئيسية ليصل الى يانغجياوناو .

وفجأة .. ومضت فى ذهنه خاطرة . تذكر انه كان يوجد مطعم اسلامى قريبا من شيقوان ، اشتهر بتقديم حساء الضأن .

ففى سنة ١٩٤٧ ، جاء هو وبى جينغ ، مدير فرقة الدعاية الاقليمية — لاحت منه ابتسامة وهو يتذكره — الى محافظة س ، وكانت تلك لأول مرة ، وان المدير ربت على كتفه وقال :

— يى رو ! ستكون اليوم ضيفى . سأدعوك الى تناول حساء الضأن فى شيقوان معى .

وتذكر ان المدير قد ضرب بيده على الطاولة مع كومة من الاوراق المالية للمنطقة الحدودية طبعت على اوراق من صوف الغنم . اهتزت بذلك قارورتا الخل والصلصة .

— هيا واحضر لنا طبقين من الحساء بهما كثير من التوابل !

كانت تلك ألذ وجبة تناولها يى رو فى حياته ! كان الحساء لذيذ المذاق حتى انه ابتلع امعاء الشاة بكاملها قبل ان يتفوه ولو بكلمة عن طيب المذاق .

كان بى عنده آلام فى المعدة فلم يستطع ان يأكل كثيرا ، غير ان يى رو قد اتى على الحساء كله ولحس شفتيه مستمتعا متلذذا .

— ايها العفريت الصغير ! سأطلب لك طبقا آخر .

قال ذلك وضحك حتى اضيقت عيناه واستطالتا . اما يى رو فقد كساه الحرج ! واسرع النادل بطبق آخر من الحساء وقال :

— تفضل ايها الرفيق من جيش الطريق الثامن .

احنى يى رو رأسه ، وفى ثوان اتى على طبق الحساء الثانى . وظهر على جبينه قطرات كبيرة من العرق .

وها هو يى رو قد عزم على تناول هذا الحساء مرة اخرى برغم ان معدته تتعبه . . نوع من مرض المهنة الذى يصيب السائقين وعمال الصيانة .

كانت محافظة س مركزا صغيرا لمناطق جبال تايهانغ . . نقطة صغيرة على الخريطة حتى لكأنها خجلة من الظهور . ولم يكن سكان الجبال يفكرون كثيرا فى بلدتهم الصغيرة هذه . وصار يى رو يغدو ويروح من شيقوان الى دونغقوان ولكنه لم يهتد الى المطعم الاسلامى . وسأل بائع بطاطا حلوة ، كان له وجه مجعد يعلق به غبار الفحم مثل سكان الجبال اولئك . وقد ظن ان يى رو كان يستخف به لغرض ما فقال له :

— مطعم اسلامى ؟ ان محلى مؤسسة تملكها الدولة وتخدم الفلاحين والعمال والتجار . وهذه احدى تجارب الفيلق . ليس فى استطاعتى ان اخبرك عن التعبير الخاص الذى يستخدمونه . ولكنه ليس محلا شخصيا . اذا اردت شراء شيء من هنا فتفضل ، والا كما تشاء . ان ما اطلبه منك ألا تستخف بى !

ظن ان يى رو قد قصد الاستخفاف به . . وتعمد ان يعتبره احد من كانوا يديرون المطعم لحسابهم . ولما اخرج يى رو قرشين واشترى قطعتين من البطاطا الحلوة المشوية ، ادرك ان الرجل من مكان آخر من البلاد وانه كان حقا يعنى ما يقول . فتنهد وقال :

— قد دمج المطعم الاسلامى بمؤسسات اخرى . تماما . . مثلما حدث لى . فقد اغلق محلى منذ عشر سنوات . وها قد اعدت

افتتاحه اليوم . اعمل لحساب تعاونيات الفلاحين والعمال والتجار هذه ، واحقق ارباحا للفيلق .

ان يى رو قد استأنف عمله كصحفى منذ فترة قصيرة ، تماما مثل هذا الجبلى الذى استأنف عمله . لقد سره ان يسمع عبارة " تعاونيات الفلاحين والعمال والتجار" ، التى نقلت من ساحل الادرياتيك . الاشياء الجديدة قد تجلب آمالا جديدة ، مثل ضوء الشمس الرقيق فى اوائل الخريف الذى يسطع على هذه البلدة الصغيرة ، فانه يهبها ، برغم عزلتها وما هى فيه من تخلف ، الدفء والامل فى يوم جديد . قد يتحول هذا الشواء الى ان يملك فرنا حديثا فى مطعم حديث ربما تحول الى مؤسسة مشتركة فى السنوات القليلة القادمة . وتركه يى رو حاملا فى يديه البطاطا الحلوة الساخنة . وكان الرجل يصيح بصوت اجش :

ـــ ساخنة ! حلوة مثل العسل يا بطاطا !

ربما اصبح صوته مكتوما وجافا لأنه لم يعمل منذ فترة طويلة . وفكر يى رو انه هو الآخر سيتأثر لعدم مزاولته مهنته سنوات عديدة . عندما عاد يستخدم القلم مرة ثانية ويستأنف مهنته كصحفى ، فهل بامكانه ان يستعيد بريقه السابق فى الكتابة فى الخمسينات ؟

وركب فى الاوتوبيس الذى ما ان تحرك حتى اصدر المحرك ضجيجا عاليا .

ولاحظ يى رو ، من اول نظرة ، ان هذا الاوتوبيس قد جرى تحويله من سيارة " دودج" قديمة . كانت هذه السيارة التى شاخت مع الايام تقطع سفحا شديد الانحدار ، وكانت السائقة تبذل

اقصى طاقتها فى القيادة . واحس بأن شيئا سيحدث سريعـــا لـ " السليندر" وان المبخار ستسده النفايات .. ولكن السائقة ابنة العشرين ربيعا كانت فى غاية القوة والحيوية . وكان الشعر القصير والمنديل حول رقبتها والبلوزة الزهرية التى بهتت بسبب حرارة الشمس وتصبب العرق .. كل هذا جعله يتذكر انسانة عرفها من قبل . وفتح عينيه على نحو اوسع ، مدققا فيها النظر .. من الخلف . كانت اكثر شبها بفتاة ريفية على عكس اولئك السائقات المحترفات اللواتى كن يضعن على عيونهن نظارات شمسية ويبدون فى حالة تنم عن التفوق . ربما حصلت على رخصة القيادة حديثا . وظن ، استنتاجا من طريقتها فى قيادة الاوتوبيس ، انها بالتأكيد تقدر على قيادة جرارات من طراز " دونغ فانغ هونغ" او " تينيو ٥٥ " . ان شعرها الفاحم الكثيف وبنيتها الشديدة وكتفيها الملفوفتين .. ذكرته بشكل امرأة نقشت فى سويداء قلبه نقشا . كانت قد وهبته اروع فصل فى كتاب ذكرياته ، مما جعله يحس طوال هذه السنين ، بأن الحياة ما زالت جديرة بالحياة . كانت تلك المرأة هى نيونيو فى يانغجياوناو !

هل هو عائد من اجلها ؟ ربما .. وربما ليس كذلك تماما ! واحس بعبء ثقيل يجثم على قلبه . ولكنه ادرك فى الاخير ان الهدف الاساسى من رحلته المرهقة هذه انما هو ان يجد نيونيو فى يانغجياوناو . وظهرت الذروة الرئيسية لبركة اللوتس فوق السحب الظليلة ، من خارج نافذة الاوتوبيس ، وكانت اشبه بشابة ريفية هادئة ، شديدة الحساسية ، فى القرية الجبلية ، عندما لمح الذروة انتابه الاحساس

انه عائد مرة اخرى . . نفس الاحساس الذى راوده لدى تلقيه الاشعار الرسمى من المنظمة الحزبية بأنه قد سمح له بأن يعود الى الحزب الذى كان يعتبره بيتا له . ولكن . . ماذا كانت تعمل نيونيو بعد هذا الغياب الذى طال اثنين وعشرين حولا ؟ كان يى رو انسانا عميق الاحاسيس . . كانت هذه نقطة الضعف القاتلة لديه ! لن يكون يى رو اذا لم يشعر انه سيعود يوما للتعبير عن امتنانه لنيونيو التى انقذت حياته واحبته حبا صادقا . ربما كانت عودته ستعكر هدوء بالها وفكرها ، لأنها لا بد ان تكون اليوم اما لعدد من الاولاد ! هذا ما جعله يحس بالندم طوال الرحلة لما هو فيه من طيش وتهور ، ويلوم نفسه اذ قرر ان يأتى الى هنا . وها هى الذروة الرئيسية تومئ اليه . ظن انه قد اتخذ القرار الصائب ! اذ سرعان ما سيلتقى بمن احب . . نيونيو ، العمة قوه التى اعتنت به كما لو انه ابنها ، واولئك الفلاحون الذين رأوا هذا الجندى الصغير من جيش الطريق الثامن ينمو ويترعرع . نعم . . هناك انواع شتى من الحب . . حب نيونيو ، حب العمة قوه ، حب الشعب لجيش الطريق الثامن والحزب الشيوعى . عاد يبحث عن حبه الضائع ! هنا فى يانغجياوناو . . ترسم خطى بى جينغ ، وخاض اول معركة فى حرب العصابات . . ثم فى الاصلاح الزراعى وبناء السلطة السياسية .

وظل يقول لنفسه : " نيونيو ! هل ما زلت تذكرين الجندى الصغير الذى يحمل بندقية ؟ "

وفيما هو غارق فى الافكار ، كان الاوتوبيس يصعد الى كومونة

بركة اللوتس ، محدثا ضجيجا مدويا ، هدهد الركاب فراحوا فى النوم .

٢

لم يخطر ببال يى رو ان يعود ، فى يوم من الايام ، الى هذه البلدة من تشايدام .

ووقف امام مبنى رمادى كان قد غادره منذ وقت طويل . وبعد ان تفحص هذا المبنى الذى ازداد لونه قتامة مع مرور الايام ، اسرع يقطع السلالم . ودفع الباب الزجاجى ، بعد اثنتين وعشرين سنة من الغياب ، وسرى فى نفسه الاحساس انه هو نفسه ذلك الانسان ذى الشعر الطويل غير المنسق والملابس غير المرتبة . وكشف الباب الزجاجى عن عينين رحيمتين ، بريئتين ، تشع منهما سعادة غامرة . وندت منه ابتسامة وهو يبحث عن الوجوه المألوفة له ولكنه لم يلمح منها ولو واحدا . وفتح عددا من الابواب وحياه نفس الصوت البارد :

" من تريد ؟ " . . والاسوأ من ذلك صادف نظرات بالبرودة طافحة .

وصعد السلالم الى مكتبه السابق . . مكتب التحرير ، وجد فيه عددا من الوجوه المعروفة لديه . ومع كل . . لم يلحظ احد منهم انه قد عاد . الطاولة التى كان يجلس اليها تشغلها امرأة نظرت اليه مذهولة . لم يتبين من هى . كانت تضع نظارة باطار من ذهب ،

مستوردة من الخارج ، غطت ثلث وجهها . ولما دققت فيه النظر انتابه قلق واضطراب . كان يود ان يعيد بصوت هادر ما كان يعلنه المدير بى فى جدية حقيقية فى الخمسينات :

– اذا حولتم مكتب الصحيفة الى سراى فلن تسمعوا صوت الشعب . يجب ان تختلطوا بالشعب كما اعتدنا على ذلك فى المناطق المحررة القديمة ، ننام على نفس الاسرة ، وتتوطد علاقاتنا على ما يرام . . .

ونظر يى رو الى المرأة دهشا وقال فى نفسه : " لماذا تنظرين الى بهذا الشكل يا رفيقة ؟ اننى لن ابتلعك ولن اسرق حقيبتك ! "

وصاح احد الاشخاص جذلا :

– أ هو انت يا يى رو ؟

– نعم . . انه انا . " ثلج ثلاثة اقدام " !

وضحك كثيرون ممن بالغرفة . فى تلك الايام ، كان لقبه : " ثلج ثلاثة اقدام " . . لقب لم يستخدمه فقط زملاؤه القدامى بل ايضا استخدمه من لم يعرفه . يقال انه وهو فى السادسة عشرة او السابعة عشرة من عمره ولم يكن اطول من بندقية " الكاربين " ، كان يحرر اخبار الحرب فى « صحيفة شانشى – تشاهار – خبى اليومية » . وفى الخمسينات ، امتاز بأنه صحفى قدير فى مكتب الصحيفة . فى تلك السنوات ، قطع مسافات طويلة فى جولات صحفية ، وكتب بحماسة عن مختلف المشروعات التى قامت بأعبائها الحكومة . كما ذهب الى كوريا لتغطية مفاوضات السلام فى " بان مون جوم " . ونظر اليه جميع الصحفيين الشباب على

انه يمتهن الصحافة حقا .

كان يى رو "صحفيا محترفا" ، وكان يقيم صداقات فى سهولة مع الغرباء . فى هذه الغرفة القديمة ، صافح اصدقاءه الجدد واحدا واحدا . ولما توجه الى الطاولة بجانب الشباك ، وقفت المرأة النحيفة التى تقطر جمالا والتفتت نحوه . وفى اللحظة التى رفعت النظارة الذهبية الاطار ، عرف وجهها الساحر المألوف لديه .

– لينغ سونغ ! . . .

وظلت صامتة . . وارخت على ثغرها ابتسامة حلوة دافئة . . تشير الى انهما كانا يعرفان بعضا خير المعرفة فى الماضى . . ولم تعد حاجة الى اللغة الآن لتعبر عن مدى فرحتهما باللقاء . وبرق فى خاطره انه منذ اثنتين وعشرين سنة . . فى ايام الشباب الزاهر على رأى الشعراء ، وبعد ان صحح مخطوطاتها او بعد ان اعاد كتابة الفقرات قبل ارسال مقالاتها الى المطبعة ، كانت تبتسم ارق ابتسامة كما فعلت الآن . ثم بعد ان انتهى العمل كانت تحكى له فى هدوء عما كان يجرى فى مكتب الصحيفة . كان قد فتنه شعرها الجميل ، وسحرته ضحكاتها الرنانة مثل اجراس الفضة ، واثارته رائحتها العبقة بعطر فواح . لم يحب ما اثارته فيه من احاسيس لأنها ، بعد كل شيء ، زوجة اخلص اصدقائه . وهى كمثل غيرها من النسوة اللائى يجرين وراء الشهرة ، ارادت ان تكون صحفية مشهورة .

وبدت لينغ سونغ انها الأكثر بهاء وابهة فى الملبس بين

النساء فى مكتب التحرير . ولما خلعت النظارة ، لاحظ يى رو ان الزمن قد ترك بصماته على وجهها . . التجاعيد واضحة رغم انها باهتة . ومع ذلك ، عرفت كيف تظهر نفسها فى ابهى صورة . وجعل منها ملبسها تبدو اكثر حيوية واصغر سنا من عمرها وخصوصا عندما تصدر منها الابتسامات الناعمة .

فى المكتب . . هل هناك من لا يعرف حكاية الحب بينهما بعد وفاة زوج لينغ سونغ فى سنة ١٩٥٧ ؟ سرعان ما انتشر هذا النبأ . لم يكن يى رو ليعبأ بشىء فى هاتيك الايام .

وصافحها فى ادب وقال :

— كيف حالك ؟

فندت منها ابتسامة رقيقة ، كاشفة عن تعبير مؤداه ان الصمت ينقل المشاعر بأشد من الكلمات . واستدار يى رو حوله وسأل الآخرين :

— اين مكتب الرفيق بى جينغ ؟

كان لهم آراء مختلفة عن مكان وجوده فهم لم يروا مسؤولهم لعدة ايام فى الآونة الاخيرة . . بنت الصحيفة لها مكانة لدى الناس . الزيادة فى البيع والاشتراكات الفردية ، دلت على ان التحسن الهائل الذى طرأ فى مجال النشر قد اتى بنتائج طيبة . ولكن . . اين الرفيق بى جينغ ؟ هل توجه الى مكان ما ليتصل بالناس ويطلب اليهم ان يكتبوا مقالات ؟ من المؤكد ان لينغ سونغ تعرف .

— سمعت الاخت خه رو تقول انه ذهب الى مكان ما .

ثم رفعت يديها ولمست بكفيها شعرها المموج المصفوف .

وقالت :

ـــ هل تعرف اين يعيشون الآن ؟ لقد انتقلوا الى مكان جديد ليس من السهل معرفته . انظر . . قد فرغت من هذه المقالة . . .

وناولت المقالة الى رئيس الفرقة وكانت عن الاسباب العلمية لخسوف القمر .

وظن يى رو انه قد يحدث خسوف للقمر عما قريب . فبعد سنوات طويلة ولينغ سونغ ما زالت تكتب مثل هذه المقالات . يبدو انها لم تحرز الا قليلا من التقدم ثقافيا وانها قد اهدرت وقتا على شعرها المموج . حملقت فى يى رو . كانت عيناها تومضان ومنخراها يرتعشان وشفتاها تفترقان خفيفا وهى تبتسم وظهر من بينهما اسنانها البيض . من الواضح انها كانت تعنى : عليك ان تطلب ان ارافقك !

احيانا . . تستطيع المرأة الجميلة الفطنة ان تعبر عن نفسها بمثل هذه الوسيلة !

ـــ ارجو ان تعطينى العنوان ! سأجد المكان ولو انى اتيت من تشايدام .

وبعد ان غادر مكتب الصحيفة ظن انه على صواب فى موقفه اذ كان ثمة شىء لا بد من نسيانه تماما .

كانت البلدة لم يتغير شىء فيها انما ازدحمت شوارعها . كان يى رو قد اقام لأكثر من عشرين سنة فى حوض تشايدام الصحراوى الفسيح ، وندر ان وقع بصره على انسان ولو سار اميالا . وكان ، بالنسبة اليه ، نباح كلب يعنى شيئا ينظر اليه . اما وهو يتكلم

بين اناس لا عد لهم فكان يداهمه احساس بالاختناق كأنه يهوى في بحيرة ملحية ، لا يغرق فيها ولا يطفو .

ومع ذلك . . سرت فى نفسه راحة عندما فتحت له الاخت خه الباب . قد شاب شعر هذه الاخت العجوز الحادة المزاج .

— هل تلقيت برقية العجوز بى ؟ قد ظن انك ستعود بالطائرة !

— كنت قد اشتريت تذكرة طائرة ولكنى اعدتها . الجد وانغ دوى التبتى قال لى ذات مرة : " بقرة الياك ليست اسرع من الحصان ولكنها تصل الى لاسا خطوة خطوة ! انظر ايها الشاب كم من راكبى الخيل قد سقطوا من على ظهورها ؟ " اظن ان كثيرا من الحقيقة يكمن فيما قال . . .

— كلام فارغ ! اظن انك تخشى ركوب الطائرة . ولكنك لم تكن تخشى شيئا فى الماضى .

— ما علينا ! اين بى ؟

— قد انتظرك عدة ايام . ولما لم يظهر لك ظل خرج .

— اين هو الآن ؟

وادرك ان بى جينغ ما زال صاحب الروح الجسورة .

— من يعرف ؟ تتقدم به السنون وما زال دافقا بالحيوية !

وفهم يى رو هذا المسؤول العجوز .

— أ عنده امر عاجل ولا بد من حضوره ؟

— لست ادرى . ولكنه يعمل جادا كما كان من قبل . انظر ! كان فى عجلة من امره فنسى ادوية المعدة .

واضافت تقول :

ـ هل ذهبت الى مكتب الصحيفة ؟

واومأ يى رو برأسه . تلفت حوله فى الغرفة فلم يقع نظره الا على كتب ورسومات . . نفس ما كان عليه الحال منذ سنوات عديدة . هذا هو ما اتصف به بى جينغ من اسلوب فى العمل .

ـ ألم ترها ؟

ونظرت خه رو بشديد الاهتمام الى يى رو الذى اعتبر دوما انه احد افراد اسرتهم . لقد نشأت الصداقة بينهم منذ ازمان عندما كانت المعارك على اشدها .

« كانت احدى تلك الزوجات اللائى كن مغرمات بممارسة نوع من السلطة على ازواجهن . وعلى كل حال ، قد يحدث ان تحجب القمر السحب فى بعض الاحيان وحتى يحدث خسوف القمر . ثم تذكر حكاية العمة قوه عن "كلب السماء" الذى التهم القمر ، وعندئذ حدث الخسوف . ربما كان تذكره لكلام العمة قوه هو الذى نتجت عنه فكرة ان يعود الى يانغجياوناو .

وكانت لينغ سونغ تتهادى فى خفة نحوه ، متبسمة وهى تقترب منه . كانت ترتدى قميصا صوفيا ابيض ضيقا ، اظهر عن فتنتها . ورأى فوق ياقتها جيدها النحيف . وما زالت تحتفظ بوجه جميل اشبه ما يكون بزهرة يبللها الندى . واقترب الوجه اكثر فأكثر . لم يستطع ان يبتعد . كان وجهها الثلجى يقترب منه . واسرع يهز رأسه وافاق على الفور . لم يع انه راح فى النوم وان وجهه الآن يقترب من نافذة الاوتوبيس .

كان حلما عجيبا ! ولكنه مع ذلك عكس ، الى حد ما ،

الواقع . وساءل نفسه : ربما هى تلك حقيقة الاحلام ؟

وتوقفت هذه السيارة العجوز فجأة . نزل منها بعض الركاب وجلسوا على الحقول المدرجة يدخنون فى غلايينهم الطويلة السيقان ، ويتطلعون الى السماء البعيدة يتمتمون :

ـ خذى وقتك ايتها السائقة الشابة . نحن لسنا فى عجلة من امرنا . حتى الحمار يحرن احيانا عن العمل ! الاوتوبيس بحاجة الى ان يرتاح .

وتجمع ركاب آخرون ، من اجل المزاح ، حول السائقة ليروا كيف تصلح المحرك . وقرفصت امام السيارة وفتحت غطاء المحرك واخذت تبحث عما به من خلل . وكان وجهها قد علاه الزيت والعرق . وتطلعت الى اعلى وقالت : اماه ! دوسى عليه قليلا .

ولاحظ يى رو ان والدة السائقة كانت الشخص الوحيد معه فى الاوتوبيس . . جالسة على مقعد السائق ، وبدت قصيرة الشعر عريضة الكتفين مثل ابنتها . وداست على الفرامل عن طريق الخطأ فقفزت السائقة مثل فهد وزعقت على امها : دوسى على دواسة البنزين وليس على الفرامل ! . . .

وقرر يى رو الذى استبد به القلق ورغب فى ان يذهب من هنالك بأسرع ما يمكن ، ان يقدم لها يد العون . كان له خبرة فى تصليح السيارات المتعطلة ، اذ عمل فى تشايدام طيلة عشرين عاما .

ـ شين شين ! ألم تنتهى بعد !



وكان قد فرغ صبر الام .

وتطلعت الفتاة الى اعلى وقالت :

ــ ماما ! لا احد من الركاب يشكو !

وقامت الام عن مقعد السائق ونزلت من الباب الجانبى ، وقالت :

ــ يمكنهم ان ينتظروا ولكننى لا استطيع . يستحسن ان انزل واصعد الجبل بقدمى .

بدا انها لم تكن تتحلى بما يكفى من الصبر لتنتظر اصلاح السيارة . وفجأة . . جفل يى رو ! لماذا صوتها مألوف له ؟

ونادت عليها الابنة :

ــ ماما ! . . .

ــ شين شين ! لا عليك ! انى ذاهبة .

واسرعت تحث الخطى .

كم كان يأمل يى رو ان تلتفت ليرى وجهها ! ولكن بدا أنها تعمدت ان لا تفعل ذلك . وعندما تقدم الى مقدمة الاوتوبيس كانت المرأة قد انطلقت لحال سبيلها . ونظر الى ظهرها فشعر انه يعرفها .

وفى الاخير . . عادت سيارة الدودج العجوز تشتغل . واعتدلت شين شين فى وقفتها منتصرة ، تلوح مزهوة لأمها التى كانت قد قطعت مسافة طويلة . ثم نادت على الركاب ان يصعدوا الى السيارة واعتذرت اليهم على تعطيلهم . وكان يى رو قد اذهله ما يتجمل به ساكنو الجبال هؤلاء من صبر وتحمل . فبدلا من الشكوى ،

اخذوا يواسونها :

— لسنا مثل امك . . كل شيء على ما يرام الآن .

ولكن يى رو كان يعرف احسن منهم . فحذرهم مثل انسان خبير :

— اخشى ان لا تسير السيارة بعيدا !

ورمقته شين شين بغضب وقالت :

— كيف عرفت ؟ اصعد الى السيارة والا ذهبنا بدونك !

ثم زجرته بنظرة غاضبة وقفزت على مقعدها .

وضحك هازا رأسه وقال :

— طيبى نفسك .

وسرعان ما توقفت سيارة الدودج الهرمة : ونزلت منها شين شين وسألته مبتسمة :

— هل ارسلتك شركة الاوتوبيسات لترى كيف تعمل تعاونيات الفلاحين والعمال والتجار ؟

مرة اخرى . . هذا التعبير الجديد من ساحل الادرياتيك ! وعلت وجه يى رو ضحكة . ثم قيل له ان الهدف من وسيلة النقل القصير المسافة هذه التى قدمتها محطة الجرارات ، هو تخليص الاهالى فى الريف من متاعب حمل الامتعة على كواهلهم او ظهورهم . فخلال حرب المقاومة ضد اليابان ، حمل يى رو الحبوب والطعام الى الجبل . وعرف كيف احس وهو يصعد الممر الجبلى خطوة فخطوة . وقد سحرته صراحة الفتاة وابتسامتها . فذهب جهة محرك السيارة استجابة لطلبها . كان قد عمل عشرين سنة فعرف ما ينبغى

عمله . لم يكن فى عجلة من امره ، فتناول حبتين من البطاطا الحلوة المشوية وقدم احداهما الى شين شين قائلا :

ـــ تفضلى يا شين شين ! لا بد ان امعاءك خاوية .

ومن غير ما ادنى احتشام تناولتها من يده واخذت تزدردها بفم واسع . وقبل ان تبتلعها قالت متعجبة :

ـــ اللباب السكرى مثل العسل ! هذه البطاطا من قريتنا . . قرية يانغجياوناو !

ونظر اليها يى رو فى ذهول :

ـــ هل انت من تلك القرية الجبلية الصغيرة ؟

لم تستطع ان تنطق ولو كلمة واحدة اذ كان فمها محشوا ، ولكنها اومأت برأسها .

ـــ هل امك ايضا من قرية يانغجياوناو ؟

وتفجرت منها الضحكات اذ ظنت ان السؤال سخيف .

ـــ هذا اللباب السكرى مثل العسل منتوج جديد زرعته امى . هل تعرف ماذا يسمون هذه البطاطا الحلوة ؟ يسمونها : نيونيو . . اسم امى !

ولما سمع يى رو اسمها عقد لسانه . واخذ ينظر الى بعيد محاولا ان يرى نيونيو التى قطعت نصف المسافة الى الجبل . فلمح خيالا ضئيلا لانسان يتقدم خطوة خطوة فى صعوبة شديدة . وفجأة . . التفت يى رو الى شين شين مثبتا عينيه عليها . وقال لنفسه : اصبح الآن لها ابنة ! لا عجب انها اعطتنى ظهرها وتركت مسرعة . . .

وقضم قطعة من البطاطا . . كانت حلوة ولكن حلاوتها ليس بمقدورها ان تزيل الأسى المر من قلبه ! كان ينبغى ألا يأتى ! لماذا يعكر عليها صفو حياتها ؟

٣

كانت الاشجار ، خارج الشباك ، تتراقص جذلة تحت ضوء القمر الباهر . ولم يستطع النوم ان يتسلل الى عينى يى رو فى غرفة الضيافة بالكومونة . هل لأنه رأى نيونيو وابنتها الحبيبة قد ملأت قلبه أسى ؟ هل لأنه استاء من نبأ وفاة العمة قوه ؟ او بسبب شخير الضيف فى الغرفة المجاورة الذى ذكره بصديقه بى جينغ ؟

فى هاتيك الايام التى ولت وفى ليلة مقمرة شديدة البهاء كمثل هذه الليلة ، كان ينهض ويسرع فى ارتداء ثيابه ، ويذرع الطريق مع بى جينغ الى القمة الرئيسية ليعودا الى يانغجياوناو . كان يتوقف عند البركة التى كانت مثل بتلات اللوتس وينهل قليلا من مائها الصافى السلسبيل . ثم يتوجهان الى يانغجياوناو مباشرة . وفى الطريق . . كان يفتح معطفه قليلا ويستمتع بالنسيم العليل الذى كان يلامسه فى رفق ولطف . وكان بى جينغ يحكى عن مسائل الحب بين بافل وتونيا فى رواية اوستروفسكى «كيف صهرنا الفولاذ» وعن آه كيو الذى يجسد روح الفلاحين الصينيين . . . وان هى الا فترة بعد ذلك حتى يكونا قد عادا الى البيت حيث كانت العمة قوه ونيونيو تنتظرانهما . . وكانا يتلذذان احيانا بمذاق النبيذ المصفى العطر

الذى سرعان ما يدفع الرؤوس الى النوم . وقبل ان يمضى طويل وقت يكون بى جينغ متمددا على سرير "الكانغ" ويروح فى غطيط وشخير .

كان الرجل فى الغرفة المجاورة يصدر انغاما من الشخير ولكنه شخير ليس بمثل شخير بى جينغ . عندما جاء يى رو الى يانغجياوناو لأول مرة لم يكن اكبر بكثير فى العمر من قائد "عصبة الفتيان" . كانت نيونيو آنذاك صغيرة ولها ضفيرتان ولا تفارق الابتسامة شفتيها . واعتادت ان تقول :

ـ شخيرك رائع يا مدير بى !

وكان بى جينغ يضحك على ذلك ويقول :

ـ يا عمة قوه ! انا آسف على هذا الشخير . صبرا يا عمة ! عندما كنت فى يانآن ذهبت الى عدد من الاطباء الاجانب ولكنهم لم يستطيعوا شيئا . انتظرى الى ان نهزم اليابانيين .

وكانت نيونيو تسأل :

ـ لماذا ؟ ألن تشخر عندئذ ؟

وكان يفرك انفها ويقول :

ـ كلا ! عندئذ سأغادر يانغجياوناو ! ولن اعود استمتع بنبيذ البلح اللذيذ !

ـ سيوحشنى شخيرك عندئذ . . .

لم يفهم يى رو ما كانت تحاول العمة قوه ان تقوله . ولكنه فهم فى وقت متأخر معانيها الخفية . تذكر انه بدأ كلامه فى اجتماع لفرع الحزب فى عام ١٩٥٧ بموضوع الشخير قائلا :

ـ كل ذلك قد صار ماضيا فعلا .. لم تعد تسمع الآن العمة قوه شخير المدير بى ، حتى انا ، نادرا ما سمعته برغم اننى عملت سكرتيرا له سنوات عديدة . وهو اليوم مشغول بالاعباء ، يعقد الاجتماعات او ينظم الدراسات السياسية . وفى ما يتبقى لديه من وقت كان عليه ان يشهل مهمات مختلفة للرفيقة خه رو . فى آخر مرة جاءت العمة قوه تزوره لم يتسن له حتى بضع دقائق ليجلس اليها ويتحدث معها . وطلب منى ان اهتم بها ، وكانت قد احضرت له اربع قوارير من نبيذ البلح وكذلك ثمارا مجففة من الكاكى والجوز .

وقد تعلم يى رو من بى جينغ ان لا يقول الكثير بعد ان عمل تحت اشرافه سنوات عديدة . لم يكن يذكر لانسان كيف كان بى جينغ ، مثلا ، يخرج حزمة من اوراق فئة الخمسة يوانات ويضعها فى يده فى خجل وحياء .

ـ ارجوك ان توصل هذه اليها واطلب اليها ان تقيم عندك . خذ اجازة ثمانية او عشرة ايام وابق فى صحبتها . سأطلب اذنا من هيئة التحرير . حاول ان تحصل لها على كل ما تشتهى . من سوء الحظ ان خه رو لا تقبلها ان تقيم معنا . خذ النبيذ ايضا ، لأن زوجتى لا تسمح لى ان اشرب الا الفائز بالجائزة فى معرض بناما .

وكان يى رو يعرف كم من الضغط مارسته خه رو على بى جينغ . رفض ان يأخذ الفلوس وقال :

ـ أتظن ان ليس معى فلوس ؟

وكان بى جينغ يتنهد ويقول :

ـ هذه الفلوس لا يمكنها بأى حال ان تخفف من ندمى !

ثم يردف فى غضب :

ـ يمكننا ان نحارب اليابانيين ونهزم الاعداء ولكننا لا نستطيع ان نفعل شيئا حيال افكار السوقيين المبتذلة .

وكان يى رو ينظر الى بى جينغ راثيا لحاله . وكان هو نفسه فى ضائقة عاطفية . وكانت لينغ سونغ التى رحل زوجها منذ فترة وجيزة تحاول ان تلتصق به ، وكانت تحاول ان تكرهه ليختار بينها وبين نيونيو .

وفهمت العمة قوه الامر وصفحت عن بى جينغ ، اذ كانت هذه ثالث مرة تأتى الى البلدة لزيارته بعد التحرير . وراحت وراء يى رو الى مهجع الرجال خلف الوكالة الصحفية . وبينما كانت تصعد سلالم العمارة ذات الخمسة طوابق اخذت تتمتم : اعرف ان بى جينغ العجوز هذا قد اصبح كادرا ذا شأن الآن . وان عجوزا مثلى من واد جبلى قصى ليست بذات احترام ان تقيم فى بيتهم الوثير ذاك .

وفهم يى رو تمام الفهم ما كانت تعنيه . لو لم تكن زوجته الشابة الفاتنة تعيش هناك فلربما اقامت العمة قوه عند بى جينغ طول العمر . وتذكر يى رو كيف اساءت العمة قوه الى خه رو لدى زيارتها الاولى بعد التحرير . وجال ببالها ان خادمتهم كانت والدة خه رو وانها قالت لها بأن لديها بنتا رائعة الحسن والجمال . ثم اشارت الى خه رو تقول انه لحظ طيب بأنها قد اختارت بى جينغ الانسان الرائع زوجا لها مع انه يشخر فى النوم ولكن الشخير

لا يؤذى كثيرا ما دامت قد اعتادت عليه . كان ذلك خطأ مريعا ولا ريب ، ولكن خه رو لم تعبأ بذلك . كانت تضحك لا غير ثم راح كل شيء عن بالها . ولكنها آلمتها الملاحظات التى كانت تبديها العمة قوه . فعندما علمت العمة قوه ان المرأة الكبيرة كانت خادمتهم هزت رأسها وقال موجهة الكلام الى خه رو :

— انت شابة وقوية . كان ينبغى ألا تستأجريها لتقوم على خدمتك .

ثم التفتت الى بى جينغ وقالت مؤنبة :

— ليس هذا ما فعل الرجل من جيشنا ، جيش الطريق الثامن . مفهوم ؟

فى العام ١٩٥٤ . . ذهبت تزور بى جينغ للمرة الثانية . كان ذاك الوقت عهد رخاء وازدهار فحملت العمة قوه معها اشياء كثيرة : الدخن والبلح والبطاطا ونبيذ البلح والكعك والبيض المسلوق وانواعا اخرى قيمة مما يتوفر فى يانغجياوناو . كانت فى غاية السعادة بل اكثر سعادة من خه رو التى كانت قد وضعت ولدا ربلا . كانت العمة قوه شغوفة بالاولاد على نحو خاص ربما لأن زوجها واولادها قد ماتوا فى غضون الحرب الثورية . وحملت الطفل قريبا الى صدرها واخذت ترشقه بالقبلات وتلاطفه وتربت عليه كما كانت تفعل مع يى رو . . الجندى الصغير ، فيما مضى . ولحظ يى رو ان وجه خه رو قد اربد فزعا على حين فجأة . كانت تخشى من ان تكون العمة قوه تحمل نوعا من الامراض .

وفى الزيارة الثانية ، جاءت نيونيو مع العمة قوه . وكانت هى

التى حملت الهدايا . كان وجهها متوردا ساعة دخولها ، وكانت قصيرة الشعر عريضة الكتفين .

اقامت العمة قوه وقتا قصيرا فى هذه المرة لأن نيونيو كانت قلقة على الدوام بشأن البذور التى زرعتها . وبعد عودتهما الى يانغجياوناو افتعلت خه رو شجارا مع زوجها . وجاء يى رو صدفة يستفسر عن مخطوطة ولمح مزاجها الحاد . لم يستطع بى جينغ ان يفعل شيئا حيال سلاطة لسان زوجته غير ان يتنهد فى شدة وهو قائد حرب العصابات الذى طالما رهبه الاعداء ، والخطيب المفوه ، ورئيس التحرير المرموق لصحيفة مشهورة . ولم يسلم يى رو من عنفوان تقريعها :

ــ نما الى علمى انك ستتزوج من تلك الفتاة البلهاء !

ــ يا اخت خه ! أتقولين انها بلهاء ؟

ــ انت صحفى امامك مستقبل . فهل هذه الزيجة تفيدك ؟

وحاول بى جينغ ان يوقفها عن الكلام غير انها قالت باصرار :

ــ لا تحشر انفك فى هذا ! اريد ان اقول ما فى نفسى .

وسألها يى رو مبتسما :

ــ يا اخت خه ، لماذا تظنين انها زيجة سيئة ؟ على فكرة .. أو يمكن ان تخبرينى عن اسم الازهار الزرقاء فى فنائك ؟

لم تستطع هى كما لم يستطع بى جينغ .

وقال يى رو مزهوا :

ــ نيونيو تستطيع !

ولكن خه رو ردت فى غضب :

ــ اذا كنت تريد ان تتزوجها فهذا شأنك . . .

فى اليوم الاسبق لهذا المشهد ، كان يى رو قد اصطحب نيونيو فى زيارة الى البلدة حيث توجها الى حديقة نبات حديثة البناء . وحدث ان قالت :

ــ هذه اول مرة فى حياتى ارى مثل تلك الازهار الزرقاء البهية !

وتلفت يى رو وقال :

ــ اين هى ؟

وندت منها ابتسامة رقيقة :

ــ ليست هنا ، وانما فى فناء المدير بى جينغ . هل تعرف اسم تلك الازهار ؟ أوه ! حتى صحفى مشهور مثلك لا يستطيع ! فتشت فى المعجم حتى وجدته . انه اسم جميل !

كان يى رو ينتظر .

وقالت فى رقة :

ــ زهر " لا تنسنى " !

ــ آه ! نيونيو ! أ تخشين ان انساك !

وتحت شجرة ثمارها حمراء ابتسمت نيونيو فى عاطفة جياشة كما كانت تفعل منذ سنين وهما واقفان بجانب نافورة صافية على القمة الرئيسية لبركة اللوتس .

ــ اصبحت انسانا مشهورا اليوم . ارى اسمك دائما فى الصحيفة !

– اسمعى يا نيونيو ! ان اسمك يعنى الشيء الكثير بالنسبة لى .

فى سنة ١٩٥٧ . . جاءت العمة قوه وحدها بعد ان عوفيت من مرض خطير . . فلتت من الموت بأعجوبة . ربما احست انها لن تعيش اطول . فاشترت تابوتا لنفسها دفعت فيه كل ما ادخرته . ماذا بقى لتفعله – كان هذا هو هاجسها – سوى ان تتأكد من ان يتزوج هذان اليتيمان . كان والدا يى رو فى الجيش الاحمر واستشهدا فى الحرب الثورية . وكان والدا نيونيو عاملين فقيرين فى منجم فحم ، فقدا حياتهما فى العمل اختناقا من الغاز السام . فى ذلك اليوم المأساوى . . عثرت العمة قوه على نيونيو الصغيرة على باب الكهف تلفظ فى الروح . فحملتها معها الى البيت وربتها وتبنتها .

وفى الزيارة الثالثة . . طفحت العمة قوه بالسعادة اذ كانت مع يى رو مرة اخرى . وانتقلت من غرفة الى اخرى فى مهجع الرجال تجمع ملايات السرير والبشاكير والقمصان والبنطلونات المتسخة للمحررين والصحفيين والفنانين والمصورين والمراجعين وغيرهم . غسلتها كما كانت تفعل للمقاتلين فى يانغجياوناو فيما مضى .

كانت العمة قوه ، كما كانت فى الايام السالفة ، تحب ان تسمعهم وهم ينشدون وهى تخدم هؤلاء الشباب . كان المقاتلون ينشدون فى الماضى اينما ذهبوا وكانت قلوب الاهالى تتأجج نيرانا ثورية . وسألت يى رو :

– اسمعونى نشيد " الريح تزمجر " ! لم اسمعها منذ سنوات طويلة !

وبدأوا ينشدون بروح معنوية عالية . ورأوا الأم الثورية العجوز تبتسم والدموع الحارة تنسكب على خديها . لم يلحظ احد ان بى جينغ كان واقفا بالباب ، يمسح الدموع الساخنة من على وجنتيه .

حسن . . قد رأوا رئيس التحرير فأخذوا يغادرون غرفة يى رو . ولما بقى ثلاثتهم وحدهم قال موجها الحديث الى يى رو ويتنهد :

– ما انبأتنى به فى المرة السابقة صحيح تماما . يجب ان نفتش عن السبب الذاتى لا السبب الموضوعى . ألم نفقد الاعز لدينا ؟

– ماذا تعنى يا مدير بى ؟

– هل لديك النبيذ ؟

– ليس عندى الفائز بالجائزة فى معرض بناما !

واخذت العمة قوه تراقبهما وهما يرشفان من نبيذ البلح ويلتهمان سيقان الدجاج ، تماما كما كانا فى الماضى يتناولان الدخن المبخر فى بيتها فى يانغجياوناو . وتحدثا عن امور كانت لا تفهم منها شيئا فى بعض الاحيان .

وسأل بى :

– يا عمة ! هل انت غاضبة منى ؟ قد اصبحت ذا شأن ! ولكنى ادرك اننى فقدت الاتصال بعامة الناس .

وفهمت العمة قوه شيئا مما كان يقصده .

ــ لا بأس ! قد يحدث الشجار بين افراد الاسرة احيانا ! سنكون على خير ما يرام فيما بعد .

وفى اجتماع فرع الحزب ، القى يى رو كلمة : " ... ولأقل بصراحة : كم بقى من اهتمامنا منذ مجيئنا الى البلدة بمصالح اهالينا القرويين ؟ لقد فقدنا الاتصال بعامة الشعب الذين اطعمونا الدخن المبخر وحملونا على عرباتهم او نقالاتهم فى ايام الثورة . ان حزبنا بالاعتماد عليهم ، قد الحق الهزائم بالاعداء وحقق الانتصارات . لهذا ينبهنا الحزب مرارا وتكرارا الى اننا يجب ان نعمل مع الجماهير على نحو وثيق . اننا اذا ما فقدنا هذا التقليد المجيد فلا ريب اننا سنخسر . "

ونظر الى لينغ سونغ التى كانت تجلس قبالته . كانت فى ملبس بسيط .. وقد قبلت عضوا بالحزب منذ فترة قصيرة . وبعد الاجتماع سلمته قصاصة ورق جاء فيها : " سآتى وازور العمة ان لم يكن لديك مانع " .

ولما فتحت الباب الزجاجى ونزلت على السلالم التفتت تنظر اليه بطرف عينها نظرة تنم عن سؤاله : " هل ترحب بى ؟ "

وفرد يى رو يديه مشيرا الى انه لا مانع عنده .

وبينما كان زوجها طريح الفراش بالمستشفى ، اصبحت شديدة الاقتراب منه فانتابه شعور بالقلق . وبعد وفاة زوجها كانت تطارده بعينيها . وكلما حاول ان يتجنبها احس ان عينيها مثبتتان عليه .

ولما جاءت فى آخر الامر الى غرفة يى رو عاملت العمة قوه باخلاص وحرارة فتأثرت العجوز تأثرا بالغا . وكان يى رو يفكر

فيما هى عازمة عليه ، الى ان اخرجت تذكرة على حين فجأة وصاحت :

– يا الهى! كدت انسى ان اعطيك هذه التذكرة التى حصلت عليها من اجلك .. تذكرة اوبرا . هل تريدين ان تذهبى ؟

واستوقفت عربة حملت العمة قوه .

خلعت معطفها لدى عودتها . فرأى يى رو شابة فاتنة واقفة امامه ، يظهر من كنزتها الصوفية البيضاء كتفاها الممتلئتان وثدياها الناهدتان وخصرها الرشيق . وكانت عيناها الواسعتان اللامعتان مثبتتين عليه :

– كنت تحدثت يا يى رو عن زهر "لا تنسنى" بعد ظهر هذا اليوم . فهل ابدو مثل تلك الزهرة ؟

وهز رأسه .

– اذن لا بد من ان تكون زهرتك هى نيونيو كما انبأتنى العمة قوه منذ فترة . عليك ان تجرى مقارنة ! من هى الأكثر جمالا ؟ هى ام انا ؟ من احسن ؟

لم يكن يى رو معتادا على مثل هذه المواجهات :

– اسمعى يا لينغ سونغ : ربما كنت اجمل من نيونيو بألف بل بعشرة آلاف مرة . ولكن الحب مسألة اخرى . اننى احترمك ! انا شاكر لك ! لنكن صديقين جيدين .

– انى احبك يا يى رو . لو كان زوجى على قيد الحياة لكنت طلقته وتزوجتك . احبك . الحب قاس ! اعرف اننى ربما لا اكون جيدة مثل نيونيو ولكننى احس انك لى ! جئت الى غرفتك

الآن ليعرف كل انسان انني لك . لنتزوج يوم غد . ان للمرأة الحق فى ان تفوز بحبها وسعادتها ورجلها !

ثم اقتربت منه وحضنته وضغطت عليه بوجهها المبلل بالدموع .

٤

طربت ارتار قلب شين شين لما ادى يى رو من عمل . وبعد ان اصلح محرك الاوتوبيس قفزت جذلة . ولما وصل الاوتوبيس الى بركة اللوتس طلبت منه فى مودة ان يجتاز الجبل ويزورها فى يانغجياوناو . كم كان يحب ذلك ولكنه آثر ان يقضى الليلة فى بركة اللوتس . ان رجلا وصل الخمسين من العمر يعرف معنى كلمة " الاحتراس " .

خرج من غرفة الضيافة وواصل رحلته . ولما صعد الى القمة الرئيسية انتشى بنسيم الصباح العليل المنعش للنفس . كانت هذه اول مرة يسير على الشعب الجبلى بعد اثنين وعشرين عاما !

فى آخر مرة غادر يى رو يانغجياوناو ، ظن هو ونيونيو انهما سيكونان معا فى بحر عشرة ايام او اسبوعين . وبعد ان ابتعد خطوتين التفت فرأى نيونيو ما زالت واقفة هناك تبتسم فصاح :

ـ نيونيو ! سأعود بعد ان انجز مهمتى فى غضون اسبوعين على الأكثر .

ولكنه لم يعد حتى الآن . . بعد اثنتين وعشرين سنة ! جاءت على باله ذكرى ذلك المساء عندما حرر نفسه من فخ حب لينغ

سونغ . وعندما عادت العمة قوه من المسرح رأت ان يى رو على وشك الخروج :

— ماذا تفعل ؟

— اعود الى يانغجياوناو !

— لماذا ؟

— لأتزوج نيونيو !

فرحت العمة قوه وقالت :

— قد سبق وان قلت هذا . قررت السماء بأن لا ينسى يى رو حبيبته نيونيو ! نيونيو قد انقذت يى رو مرتين .

نعم . . كانت قد انقذته مرتين . . مرة من القوات المسلحة لملاك الاراضى المحليين ، عندما كانت تخوض النضال بضراوة مثل الفهد ، والثانية عندما وجدته نصف ميت بين الجثث فى اثناء حملة لونغتانكو .

ثم حكى يى رو ما حدث قبل عشر دقائق من وصولها . وبينما كانت لينغ سونغ على وشك مغادرة الغرفة قالت له باحتقار :

— انت قديس ! غدا سيعرف كل انسان اننى قضيت الليلة معك !

وهمت العمة قوه ويى رو ان يغادرا على التو : حملا اشياءهما على ظهريهما وتوجها الى منزل المدير بى جينغ لوداعه . كانت خه رو مضطجعة على الاريكة . كانت فرحة بأن ترى يى رو ولكنها ما ان لمحت العمة قوه زال كل اثر لابتسامتها . وقفت وقدمت لها مقعدا . ولما اخبرها يى رو عن مقصدهما قالت :

– هل من الضرورى ان تنتظر بى ؟ لا بد ان يحضر اجتماعات لا نهاية لها .

– لننتظر !

كان هذا رد العمة قوه اذ كانت تحب ان تراه مرة اخرى . وتناولت خه رو ورقتين من فئة الخمسة يوانات من الدرج وناولتهما للعمة قوه :

– لن اودعك . خذيهما من فضلك ! ربما تحتاجين اليهما فى الطريق .. او اشترى قماشا واصنعى لنفسك معطفا .

استشاط يى رو غضبا . لاحظ يدى العمة قوه ترتجفان . اى اهانة هذه لأناس قادمين من وادى الجبل ! فى الماضى .. كانت تخاطر بحياتها ، فلم تفش السر عن مكان بى جينغ عندما كان يستجوبها الاعداء، وبالتالى كانت تتعرض لضرب شديد . هل هذه الاوراق المالية هى مكافأتها لأنها انقذت حياته ؟

ولم تبتسم العمة قوه وهما فى الطريق الى البيت . ولما وصلا الى يانغجياوناو ودخلا الى الغرفة ورأيا نيونيو ابنتها ، عاد وجهها يتهلل بشرا .

– نيونيو ! انظرى ماذا احضرت لك ؟

لم تبد على نيونيو ايما دهشة . ألم يتذكر بهاء زهرة " لا تنسنى " الضاربة الى الزرقة ؟

والتفتت العمة قوه وقالت :

– آه ! اين أسيرى ؟

وتجلل يى رو بالحياء وهو يفكر انه سيتزوج من محبوبته

نيونيو . فألقى ما على ظهره ، وحمل الدلاء وذهب الى البئر يجلب الماء كمثل ما اعتاد عليه الجنود فى الماضى عندما اتوا الى القرية . وفى المساء جلس ثلاثتهم قريبين من بعض على شكل دائرة على طرف سرير " الكانغ" يتناولون الدخن المبخر . ملأت نيونيو صحنه بعد ان أتى عليه ، وكان يبدو عليه الاستحياء وهى تقدم له المزيد من الطعام . وحسب عادات القرية الجبلية وجب ان تخدم الزوجة رجلها . اولا .. تقدم يى رو ليخدم نفسه بنفسه ولكن العمة قوه اوقفته :

— اترك نيونيو تفعل ذلك . كان يجب ان تتزوجا من بعض منذ وقت بعيد !

اللحظات الحلوة فى عمر الانسان لا يمكن ان تنسى . سعادة يوم او يومين يمكن ان تبقى سليمة الى الابد فى ذاكرة الانسان . . .

وفى مساء اليوم الثالث ، وبينما يى رو ونيونيو مع بعض ، وصلت برقية من الوكالة الصحفية . ففهم يى رو انه سيرحل عنها . كانا واقفين الى جوار بركة اللوتس منذ لحظات . قال لها :

— هذا هو القدر يا نيونيو !

وحاولت ان تواسيه بقولها :

— لا تكترث ! انك ستعود قريبا .

— مؤكد . سأعود يا نيونيو .

— لقد وهبتك جسمى وروحى . انا لك للأبد .

قالت ذلك وعيناها تومضان بالثقة ، كاشفة تماما عن فضائل الزوجة فى الامانة والرقة .

كان هذا حبا حقيقيا .. الحب الوحيد فى حياة يى رو .

واسرع يى رو الى الوكالة الصحفية . كان كل انسان يعرف ما يتحلى به من مقدرة وكفاءة . وان هى الا مدة وجيزة بعد ذلك حتى وصم بتهمة انه يمينى .

كان ذلك منذ فترة مضت . وها هو قد عاد وعرف من خه رو ان لينغ سونغ قد تزوجت من رجل عجوز فى سنة ١٩٥٨ .. كان يكبرها بعشرين سنة . كانت لديه اموال طائلة ولكن لا احد يعرف ان كانت قد نالت الحب والسعادة . فى بداية "الثورة الثقافية" تعرض الرجل العجوز لانتقادات فظيعة . ثم هاجمته نوبة قلبية وانهار فى غرفة الحبس . وهو اليوم بخير ، وقد رد اليه الاعتبار وقدمت له الحكومة ١٠٫٠٠٠ يوان تعويضا عما لحقه ...

كان لدى خه رو الكثير مما يقال ولكن يى رو قاطعها قائلا :

ــ انا لا اريد ان اصلح المعابد للرهبان !

ولما بلغ يى رو الذروة رأى رجلا ينزل الجبل الى يانغجياوناو .. ذكره بشخص يعرفه خير المعرفة .

٥

شعر يى رو ان الرجل يشبه بى جينغ . مستحيل ! ودقق النظر مرة اخرى مظللا عينيه بيديه ، ولكن ظل الرجل كان قد مر فى لحظة على القبور الحجرية فى مقبرة واختفى فى القرية .

كان يى رو متيقنا ان الرجل هو بى جينغ . تذكر ان بى

قد وصم بأنه يميني فى " الثورة الثقافية " وارسل للاصلاح من خلال العمل فى " صومعة الحبوب استعدادا للحرب" فى مرج بجنوب جبال تشيليان . ومتى ما جاء قطاع الطرق كان المسؤول عن العمل يهاتف طالبا ارسال الجنود للمساعدة . ولكن بى جينغ كان عنده حل افضل . كان يلوح بيديه ويصدر الاوامر : الشيوعيون الحقيقيون يتقدمون للامام ! الحبوب حبوب الشعب والدولة واننا لن نسمح للعصابات المتمردة ان تحوزها . ليظهر الشيوعيون ألوانهم الحقيقية ! من لديهم بنادق وقنابل فليتقدموا الى الامام . . ومن ليس معهم سلاح فليستخدموا العصى الخشبية ! اتبعونى ايها الرفاق !

ونشط المدير بى جينغ من جديد برغم سوء حالته . يقود الجماعة والعصا فى يده ويتقدم ويتأهب لمقاتلة العصابات . كان يى رو معه ايضا حيث جاء يزور قائده القديم .

رعد صوت بى جينغ : هيا الى الكفاح !

ولما رأى افراد العصابة هذا الفوج اعطوا العنان لسيقانهم مولين الادبار . وعندما عادوا الى صومعة الحبوب كان المسؤول ما زال على الهاتف : ارسلوا لنا بعض الوحدات المسلحة على وجه السرعة . . .

كان ذاك هو بى جينغ . . انسانا حديدى الارادة .

ومنذ ان غادر يى رو الوكالة الصحفية لمعسكر الاصلاح من خلال العمل فى حوض تشايدام فى سنة ١٩٥٧ ، قطع كل اتصال له مع العالم الخارجى الا ارسال رسالة واحدة الى نيونيو قال فيها انه ممتن لها . وكان عليها ، ولمصلحتها ، ان تعتبره ميتا وينبغى ألا تنتظره . كانت كلماته اشبه بخطاب وداع .

وكان بى جينغ قد ارسل الى المنفى فى اواخر العام ١٩٥٩ . وكان يعرف ان يى رو فى حوض تشايدام ولكنه لا يعرف عنوانه . فكتب قرابة مئة ورقة الصق كلا منها على ظهر العربات المحملة بالحبوب الى تشايدام . وكان يدون عليها عنوانه ورسالته : يى رو ! تعال وزرنى بأسرع ما يمكنك . انا الآن فى صومعة الحبوب استعدادا للحرب فى مرج جنوب جبال تشيليان .

وبعد ستة اشهر ، وفيما يى رو يصلح محرك احدى السيارات ، وجد واحدة من تلك الاوراق من قائده القديم . وذهب لزيارته . وعندما التقيا قال بى جينغ :

ــ تعال يا يى رو ! لنحضن بعضا ثلاث مرات !

وتناول من جيبه الداخلى ربطة صغيرة ملفوفة بالقماش :

ــ منذ ستة اشهر جاءت العمة قوه من يانغجياوناو لزيارتى ومكثت عندى عدة ايام . وكان بيننا حديث لطيف . وقبل ان تعود قالت :

ــ ربما لا اعيش الى اليوم الذى يرد فيه اعتبارك . ولكنى سأصلى من اجلك .

ثم ناولتنى ربطتين . كانت قد باعت تابوتها بمئة وثمانين يوانا وقسمت المبلغ بيننا . . .

ولم يستطع بى جينغ ان يكبح جماح دموعه .

ــ ان حزبنا لن ينسانا ابدا ! ان الشعب لن ينسانا ابدا ! يى رو ! تذكر دوما ان الشعب هم آباؤنا الاعزاء .

وفتح يى رو الربطة ولاحظ ان التسعين يوانا الورقية مصفوفة

مع بعض فى دقة . وسرح فى تفكير عميق .

وعندما كان يى رو على وشك الرحيل لاحظ ان لدى بى جينغ ما يود ان يقوله ولكنه كتم عليه فى الاخير . اشار فقط الى انه كم يحب العودة الى يانغجياوناو . وسقط نظر يى رو على ساقى بى جينغ المنتفختين فقال :

ـ ايها المدير ! ارجوك ان تهتم بنفسك .

فشكره وقال له :

ـ سأكون على ما يرام .

وعند الوداع ، وضع يى رو فى يدى قائده القديم كوبون ستة كيلوغرامات من الحبوب ، كان هو كل ما فى حوزته ، وقفز الى السيارة . فتأثر بى جينغ وقال :

ـ كيف ستدبر امرك من غيره يا اخى ؟

ـ لا تقلق ! اهتم بنفسك !

ولوح له بيديه والسيارة تتحرك .

ونادى عليه بى جينغ :

ـ تذكر ان الشعب لن ينسى ما فعلنا !

كان ذلك منذ وقت مضى . . . وها جاء منتصف شهر يوليو ، والناس قد اعتادوا ان يقدموا الاحترام لأقربائهم الموتى فى القبور . أ لهذا جاء المدير بى لزيارة قبر العمة قوه ؟

وكان يى رو الآن يقترب من قرية يانغجياوناو الجبلية الصغيرة . قد غاب عنها عشرين سنة واكثر . لم يكن موقنا انه سيعود ويزور نيونيو مرة اخرى . وجلس على صخرة يرنو الى القرية الصغيرة التى

عرفها . كان لعشرين عاما يتردد على اماكن كثيرة مع فرقة النقل التى كان يعمل فيها ، وها هو قد عاد فى الاخير .

دخل فناء صغيرا فى وسط القرية ، كان يكسوه الهدوء . وكان يتدلى على الباب قفل . ثم وجد المفتاح مخبأ فى ثقب على جذع شجرة نخيل . كل شيء بدا كما كان عليه . ولما اوشك يفتح الباب ، احس فجأة انه من غير اللائق لأنه لم يعد بيته . وبعد هنيهة عزم ان يدخل .

بدت الغرفة نفس ما كانت عليه عندما تركها طوال هذه السنوات التى انقضت . ثم رأى رسالة على المنضدة كتبتها نيونيو بخطها الانيق : انا ذاهبة مع شين شين لشراء قربان لتقديمه للعمة قوه . طعامك فى الحلة . سخنه وكل . اذا لم تستطع الانتظار يمكنك ان تقابلنا عند قبرها .

من الواضح ان نيونيو قد تركت هذه الرسالة لزوجها : وندت عن يى رو ابتسامة طافحة بالالم . واختلس نظرة من خلال ستارة الباب الى الغرفة الداخلية حيث اعتادت ان تقيم العمة قوه ونيونيو فيما مضى . كانت ستارة الباب نصف مفتوحة ووقع نظره على احذية جديدة عديدة بدت كأنها مثل التى صنعتها فرقة الخلاص النسائية للجنود ايام حرب المقاومة ضد اليابان .

ودلف الى الغرفة ، ووقف الى جانب سرير " الكانغ " وتفحص الاحذية . كانت من نفس الحجم والشكل . وما ادهشه اشد دهشة ما ظهر على كل حذاء من سنة الانتاج : ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ . . . واخذ يعدها . . اثنان وعشرون زوجا . وفهم يى رو

كل ما فى الامر . وغمرته العاطفة . وكاد ينهار . ومد يده يرفع غطاء الحلة على موقد الطهو . ما زالت البطاطا الحلوة المشوية دافئة ، ثم رأى رسالة فوق الموقد :

والدى :

هذا هو " لباب السكر مثل العسل " الذى تحبه كثيرا .

هل تعرف اسمه ؟ يسمى : نيونيو .

ابنتك

شين شين

وتوجه الى الغرفة الخارجية ورأى صورته معلقة على الجدار . . صورة التقطت له فى كوريا فى جبهة بان مون جوم . كان يرتدى آنذاك معطفا عسكريا بلا قبعة ، وكان شعره واقفا كأنه ذيل ديك . والى جانب الصورة كانت هناك شهادة تقدم للخدمة المأثورة لسائق الجرارة الممتاز . ورأى فوقها اسم يى شين شين !

ولبرهة طويلة ، احتار يى رو ماذا يصنع . ثم انطلق الى الخارج . وكانت الشمس تنزل الى مخدعها فى الافق الغربى . اسرع الى اونغتانكو حيث ظن ان العمة قوه لا بد دفنت هناك . زوجها واولادها قتلوا فى معركة عند لونغتانكو حيث دفنوا على قمة الجبل قريبا من ميدان المعركة . ذهب ليرى زوجته التى خاطت له اثنين وعشرين زوجا من الاحذية وهى تنتظر عودته فى يأس . ذهب ليرى ابنته سائقة الجرارة وليزور قبر العمة قوه — نعم . . العمة قوه التى كانت بمثابة ام له . فهم الآن انها لا بد منعت بى

جينغ من ان يخبره بأن له زوجة تنتظره وله ابنة لم يرها .. كل ذلك لأنها لم ترغب ان تفسد عليه عمله . وكمثل ام حقيقية .. عرفت جيدا هذين اليتيمين : نيونيو وهو نفسه ! وا أسفاه ! قد ماتت ولن تستطيع ان ترى هذين الاثنين معا مرة اخرى . كانت شمس المساء ترخى بأنوارها القاتمة على الجبال . وفى الاخير .. وصل يى رو الى لونغتانكو .

كان اليوم الخامس عشر من الشهر القمرى .. والقمر فيه يكون بدرا . نزلت الشمس الى الغرب وبدأ يبزغ القمر من الشرق . ولما صار المساء يزحف اكثر فأكثر ومضت السماء بشفق بهى . كان يى رو يبحث عن قبر العمة قوه عندما سمع من يناديه : بابا ! ثم رأى شين شين تركض نحوه . كانت نيونيو واقفة قرب قبر تنتظر فى هدوء . كانت تعيد على نفسها ما قالته منذ اثنتين وعشرين سنة عندما افترقا : ستعود ! اعرف انك ستعود !

وقالت شين شين هامسة :

— بابا ! بالامس لم تقدر امى ان تتحدث معك . قالت لى فيما بعد انك لم تتغير ولو ذرة !

— من غير شك ! كيف اتغير ؟ ولهذا اسميناك : شين شين .. قلبان فى قلب واحد !

ومن مكان غير بعيد ارتفع صوت فجأة : لا ! لن يتغير ! لأن اياما افضل آتية ...

— مدير بى ! ...

صاح يى رو ونيونيو فى نفس الوقت تقريبا .

واسرع بى جينغ الخطى .. يكاد يجرى اليهما . وامسك نيونيو بيد وبيى رو بالاخرى ، مغمورا بالفرحة .

وفجأة : . قالت شين شين :

— ماما ! بابا ! القمر ! انظرا الى القمر ! . . .

ثم تناهت الى اسماعهم اصوات صنوج وفرقعة سهام نارية . كان الناس يهتفون : " انظروا ! كلب السماء سيبتلع القمر ! . . . "

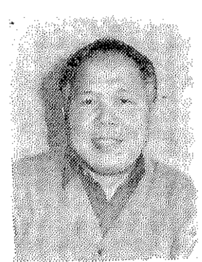
كان خسوف القمر . وسرعان ما ساد الجبال نور قاتم . من السادسة الى السابعة ، جلست الاسرة كلها الى جوار قبر العمة قوه ويلفها ظلام مطبق .

وفى الاخير . . عاد القمر يبزغ بعد الساعة السابعة والربع تقريبا ، ملقيا شعاعا من نور خفيف على عينى شين شين .

وعند الساعة الثامنة والنصف . . كان ضياء القمر يزداد لمعانا فى السماء . وقفزت شين شين وصاحت بصوت عال كأنما ارادت ان تسمعها جدتها القابعة تحت الثرى : " انتهى كل شيء ! عاد القمر يسطع بنوره علينا ! "

نعم . . كانت ليلة رائعة انبأت عن يوم مشمس !

كلمة عن المؤلف



لى قوه ون من مواليد شانغهاى فى سنة ١٩٣٠. درس فى مدرسة نانجينغ الوطنية للمسرح فى سنة ١٩٤٧ . وبعد سنتين عمل فى قسم البحوث التابع للمعهد المركزى للمسرح . وفى سنة ١٩٥٢ ، انضم الى متطوعى الشعب الصينى ، واشتغل كاتبا فى الفرقة الفنية العسكرية . وفى سنة ١٩٥٤ ، عين محررا اديبا فى قسم الدعاية باتحاد نقابات عمال سكة الحديد . وفى سنة ١٩٥٧ .. ارسل ليزاول العمل الجسمانى لفترة طويلة. وفى سنة ١٩٧٩ . . عمل كاتبا فى الفرقة الفنية لسكة حديد الصين .

حققت له قصته « اعادة الانتخاب » التى نشرت فى سنة ١٩٥٧ . . شهرة واسعة . ثم توقف عن الكتابة حتى سنة ١٩٧٩ . ومنذ ان استأنف الكتابة نشر قصة « الاوتوبيس وصل الى فنشويلينغ » وقصة « الوادى والسحلبية » وقصصا قصيرة اخرى . اما روايته الطويلة « الربيع فى الشتاء » فظهرت فى سنة ١٩٨١ .

الجسد والروح

تشانغ شيان ليانغ

كان الابن المنبوذ لأبوين ثريين .

ــ فيكتو هوجو : البؤساء

١

لم يخطر ببال شيوى لينغ جيون ان يرى اباه مرة اخرى .

كان المكان غرفة فاخرة الاثاث فى الطابق السابع من فندق فخم . لم يكن من شىء خارج النافذة سوى الامتداد الواسع فى السماء يرقمها على نحو خفيف خيوط بيض من سحائب رفيعة . . . وراء نافذة بيته فى المزرعة على هضبة التراب الاصفر القصية ، كانت الامتدادات الصفر والخضر للارياف الواسعة . . وكانت ايضا متلازة مع بعض . وقد احس بنوع من الدوار منذ وصوله الى المدينة ، كأنما كان يسبح فى السحب العالية . الدخان الازرق الشبيه بالضباب الذى خرج من غليون ابيه وتفشى فى ارجاء

الغرفة . . اضاف لونا مصطنعا على كل شيء امام ناظريه . وما زال ابوه يدخن نفس نوع التبغ من العلبة المطبوعة بصورة زعيم الهنود الحمر ، ورائحة التبغ المشبعة برائحة القهوة الشجية التى كان يشمها دائما وهو طفل ، قدمت الدليل لحواسه بأنه ليس فى حلم ، وان هذه الحادثة حقيقية فعليا .

ـ ما فات مات . .

قالها ابوه بايماءة صارمة . منذ ان حصل على درجة الليسانس من جامعة هارفارد فى الثلاثينات حافظ على سمة الوقار التى اكتسبها فى ايامه فى كمبردج . جلس على الاريكة واضعا احدى الساقين على الاخرى مرتديا بدلة غربية انيقة .

ـ ما ان وصلت الى بر الوطن ، فهمت المثل القائل : " التطلع الى الامام " . يستحسن ان تتحرك الآن وتستعد لمغادرة البلاد .

كان لاثاث الغرفة وملابس ابيه تأثير فى ان يستعيد ذكريات . . ثم هاجمته احساسات غريبة . ما فات مات حقا ولكنه كيف ينسى الماضى ؟

فى يوم من فصل الخريف مثل هذا اليوم ، قبل ثلاثين سنة ، كان يسير فى شارع شيافى يحاول ان يجد مسكن ابيه . كان فى يده العنوان مكتوبا بخط امه . وفى الاخير عثر على المكان : نفس المبنى . . نفس الحديقة . كان المطر قد توقف ، والاوراق المتقطرة على الاشجار بدت ذابلة ومن غير حياة . ولمح فوق الجدران سلكا شائكا . وضغط على الجرس بالجدار الرمادى .

وبعد برهة طويلة ، فتحت النافذة الصغيرة بالباب الحديدى ، وسمح له بالدخول نفس الرجل الذى اعتاد ان يأخذ الرسائل الى ابيه . ومشيا على الممر الذى تحيط به الاشجار من الجانبين ووصلا الى مبنى من طابقين حيث يعيش ابوه .

حينذاك ، ومنذ ثلاثين سنة ، كان والده اصغر بكثير . كان يرتدى "سويتربيج" وكانت ذراعه مستندة الى رف الموقد . وكان على الاريكة قبالته نفس تلك المرأة التى كانت ام لينغ جيون تصب عليها لعناتها فى كل يوم .

قالت :

— هذا ولدك . انه يشبهك كثيرا . تعال هنا يا ولدى العزيز .

لم يتحرك لينغ جيون ، انما رمقها بعينيه . تذكر انه رأى عينين براقتين وشفتين ساطعتين مصبوغتين بالاحمر .

رفع والده رأسه وقال :

— ماذا بك ؟

— امى مريضة وتطلب منك ان تعود .

— دائما هى مريضة . دائما . . .

وقف ابوه غاضبا من عند الموقد واخذ يذرع المكان فوق السجادة ذهابا وايابا . كانت السجادة خضراء اللون مزينة بنسيج ابيض . وصار لينغ جيون يتتبع اباه بعينيه ، ولم يستطع ان يكبح دموعه الا بصعوبة .

— قل لأمك بأنى سآتى بعد قليل .

كان ابوه واقفا امامه . وكان يعرف ان ذلك مجرد وعد فارغ

وان امه سمعت ذلك اكثر من مرة على الهاتف .

وقال لينغ جيون بلهجة يختلط فيها العناد والجبن :

— تريدك ان تعود الى البيت الآن .

— اعرف . . اعرف . . .

ووضع الاب يده على كتف ابنه وقاده الى الباب :

— عد انت اولا وخذ سيارتي تلك . اذا كان مرض امك خطيرا فقل لها ان تذهب فورا الى المستشفى .

ودعه ابوه عند الردهة ، وفجأة تحسس شعر ابنه بلطف . وتردد وهو يقول :

— لو كنت اكبر قليلا لكنت . . . كنت قد فهمت . . امك هى . . . هى صعبة المعاشرة . انها مثل . . . مثل . . .

ورفع لينغ جيون رأسه فرأى اباه يحك حاجبه المعقود . واخذ فعلا يعطف على ابيه من نظرة الى هذا التعبير الواهن . . المبرح الآلام .

وركب لينغ جيون سيارة ابيه ، كرايزلر ، عبر شوارع تغطيها اشجار صفراء الورق فى منطقة الامتياز الفرنسية ، وكانت عيناه مغرورقتين بالدموع . لقد غمرته مشاعر بالخزى والرثاء لنفسه ووحدته . . لم يشعر بالاسف لأى انسان آخر وهو نفسه حزين . لم يحظ بكثير من عاطفة الامومة من ام امضت وقتا فى الاهتمام بالتربيت على حجارة لعبة الماجونغ اكثر بكثير من التمليس على شعره . كما لم يلق التوجيه الابوى من اب ما ان كان يعود الى البيت حتى يكتئب ويمتعض ويهتاج ويبدأ فى مشاجرات لا تتوقف

مع امه . قال ابوه بأنه لو كان لينغ جيون اكبر قليلا لكان فهم . . .
والحق انه قد فهم الكثير مع انه كان ابن احد عشر ربيعا فقط . .
اهم ما كانت تحتاج اليه امه هو الحنان من ابيه . . واهم ما كان
يحتاج اليه ابوه هو الانفكاك من زوجة شاذة ونزوية . ولكن لا
فائدة له من ابيه ولا من امه . لم يكن اكثر من نتاج زواج مرتب
بين خريج جامعي عائد من امريكا وابنة ملاك اراض .

وكما حدث . . لم يعد ابوه الى البيت . ولما اكتشفت الام ،
فيما بعد ، ان والد لينغ جيون قد غادر مع صاحبته بر الوطن ،
بقيت على قيد الحياة عدة ايام اخرى ثم فارقت الحياة فى مستشفى
المانى .

فى هذا الوقت ، دخل جيش التحرير الشعبى مدينة شانغهاى . . .

والآن ، بعد ثلاثين سنة سادتها تقلبات اكثر من ذى قبل ،
عاد ابوه فجأة واراد ان يصطحب الابن معه الى خارج البلاد .
كان الامر برمته غريبا حتى ان لينغ جيون لم يصدق ان الرجل
الجالس قبالته هو ابوه ، وليس هو ابن ذلك الرجل .

فتحت سكرتيرة ابيه ، الآنسة سونغ ، خزانة الثياب لتخرج
بعض الملابس للرجل العجوز . . ولمح لينغ جيون بداخلها حقائب
كبيرة وصغيرة عليها اوراق مصمغة زاهية الالوان لفنادق فى لوس
انغلوس وطوكيو وبانكوك وهونغ كونغ ، ولا داعى لذكر بطاقات
الطيران البيضوية الشكل مطبوع عليها " بان اميركان بوينغ —
٧٤٧ " . كشفت خزانة الثياب الصغيرة عن عالم واسع . ونقلت
السلطات المحلية الى لينغ جيون ، منذ ثلاثة ايام ، اشعار وكالة

السفريات الصينية بنبأ عودة ابيه ، فتحمل ليومين وليلتين كثيرا من المتاعب فى الاوتوبيس والقطار قبل ان يصل فى آخر المطاف .

وضع لينغ جيون حقيبته من الجلد الصناعى الرمادية اللون على ركن من الاريكة . كانت امثال هذه الحقيبة تعتبر فى المزرعة " منتوجا غربى الطراز" . . وما ان ظهرت فى الغرفة حتى بدت تنكمش خزيا وعارا . ووضع على الحقيبة كيسا من نايلون فيه فرشاة اسنان ومعجون اسنان وعدد من البيضات المسلوقة التى بقيت من سفرته . ولما نظر الى البيضات والخطوط الشبيهة بالشعر ترقمها ، تذكر ان شيو تشى ، زوجته ، قالت له عشية رحيله ان يقدم بعض البيض لأبيه .

قبل ذلك بيومين ، اصرت شيو تشى على اصطحاب تشينغ تشينغ الى محطة الاوتوبيس فى مركز المحافظة لوداعه . لم يترك لينغ جيون المزرعة منذ ان تزوج ، لذلك فان هذه الرحلة نقلته الى جو ليس اقل من حدث صانع للعصر فى اسرتهم الصغيرة .

– اين بكين يا ابى ؟

– بكين فى شمال شرق مركز المحافظة .

– هل بكين اكبر من مركز المحافظة ؟

– اجل . . انها اكبر بكثير .

– هل فى بكين نبات زهرة النجم ؟

– لا يوجد .

– هل فى بكين عناب ؟

– لا يوجد .

— اوه ! . . .

تنهدت تشينغ تشينغ فكانت تنهيدتها مثل تنهيدة الكبار ، وقد بدت عليها خيبة امل شديدة وقد وضعت ذقنها فى راحة يدها . . طريقة تفكيرها فى مكان يكون جيدا لا بد ان يكون فيه نبات زهرة النجم والعناب .

— ان بكين مكان كبير يا فتاتى الحمقاء . .

قالها العجوز تشاو السائق ، واضاف فى مرح يقول :

— ابوك مسافر فى هذه المرة الى بلاد بعيدة . ستغادرين البلاد مع جدك بعد وقت قصير . أليس هذا صحيحا يا معلم شيوى ؟

ورفعت شيو تشي ركبتيها ، وهى تبتسم فى رقة للعجوز تشاو ، من المقعد الذى وراءه ، لم تقل شيئا وانما عبرت من خلال ابتسامتها عما تتحلى به من ثقة واستقامة . لم تستطع ان تتصور ان لينغ جيون سيسافر الى الخارج بأكثر ما تتصور تشينغ تشينغ كم مدينة بكين كبيرة .

كانت الطريق الريفية بدروبها المتقاطعة متعبة وكثيرة المطبات ، وكان الحصان الذى يجر العربة يتمايل بخطوات متقطعة . وكانت حقول المزرعة المستطيلة الشكل والمتناسقة تمتد الى شمال الطريق ، فيما المرج الذى كان يرعى فيه الخيول يمتد الى المناطق الضبابية وغير المتميزة فى الجنوب . وبدا ان للمنطقة نوعا من الجاذبية السحرية . وكان لكل عشبة وشجرة القوة لتثير غديرا متواصلا من الذكريات . . وفجأة شعر لينغ جيون بمزيد من المحبة الى هذا الريف .

وصلوا الى مجموعة من ثلاث شجرات من اشجار الحور

البيض ، عرف من نظرة واحدة ان وراءها شجرة عناب وارفة . نزل من العربة وقطع غصنا من شجرة العناب وشرع الثلاثة يأكلون الثمار بعد ان عاد الى معقده . هذه الثمار البرية لا توجد الا فى الشمال الغربى . . عذبة المذاق طرية برغم حموضتها . وفى ايام المجاعة التى حدثت العام ١٩٦٠ . . اقتات من ثمار برية كهذه . لقد مرت سنوات منذ ان تذوق بعضا منها ، وها هو اليوم يأكلها والمذاق قد زاد احساسه بالحنين الى الريف . ولا عجب فى ان تشينغ تشينغ قد سألت ما اذا كان العناب يوجد او لا يوجد فى بكين .

وقالت شيو تشى مبتسمة وهى تلقى من فمها نواة خارج العربة :

— من المؤكد ان جدها لم يتذوق العناب ابدا .

كان هذا اوسع مدى ارخته لخيالها فيما يتعلق بعودة حميها من الخارج .

لم تكن بحاجة الى كثير تصورات . . الشبه بين الاب والابن يمكن شيو تشى من معرفة حميها اذا التقته فى الشارع . لكل منهما عينان طويلتان وضيقتان ، وانف مستقيم ، وفم واسع . ويمكن القول انهما يشتركان فى آثار وراثية كما هو واضح فى سلوكهما وايماءاتهما .

لم يبد الاب متقدما فى السن . كانت بشرته داكنة مثل ابنه . . سفعتها الشمس — على شواطئ لوس انغلوس او هونغ كونغ . ولم يظهر عليها شحوب ولا تورم . كان ما زال مهتما بمظهره ، متأنقا فى ملبسه . ومهما ازداد شعره بياضا ظل يتأنق فيه ، وبرغم ان نقط

الشيخوخة ظهرت على ظاهر كفيه فان اظافره رائعة التشذيب .

والى جوار طقم الخزف على طاولة القهوة ، هناك غليون من طراز "B – 3" وكيس تبغ من جلد مراكش وولاعة سجائر مذهبة ودبوس ربطة عنق مرصعة بالماس .

كيف – اذن – يكون قد اكل العناب ؟

٢

قالت الآنسة سونغ بلغة صينية سلسة :

– حتى هنا يمكنك ان تستمع الى «آخر الضربات» .

وانطلق عبير الياسمين من جسمها الفارع والممتلئ . وكان شريط حريرى بنفسجى حول شعرها الاسود الطويل الذى تدلى على ظهرها فى خيوط سود تشبه ذيل الفرس حين يتحرك جيئة وذهوبا .

– انظر ، ايها الرئيس ، الى الناس فى بكين تجدهم يتمايلون مع الديسكو ويرقصون افضل حتى من اولئك الذين فى هونغ كونغ . التحديث قد وصل !

– لا احد يستطيع ان يصمد امام اغراء المتعة .

ابتسم والد لينغ جيون على طريقة فيلسوف يكاد يستشف كل كبيرة وصغيرة فى حياة البشر .

– لم يعودوا يعتبرون انفسهم ناسكين الآن .

قام معه ابوه والآنسة سونغ ، بعد العشاء ، الى قاعة الرقص .

لم يعرف ابدا ان ببكين مثل هذه الامكنة . عندما كان صغيرا ، اصطحبه والداه الى نواد ليلية فى شانغهاى مثل " بوابة المثة متعة " و" نادى الليل الفرنسى" ، وها هو اليوم يعود الى زيارة مواطن ذكراهم القديمة . ولكنه سرعان ما اضطرب حاله وهو يرى هؤلاء الرجال المتشبهين بالنساء والنساء المتشبهات بالرجال ، والجميع يحومون تحت الاضواء الناعمة مثل الاشباح بين ضوء القمر . كان كممثل من صعد على خشبة المسرح ليؤدى دور احد الممثلين وعجز عن اداء الدور المتوقع منه .

واحس قبل دخول قاعة الطعام بلحظات بنوبة غثيان عندما رأى كثيرا من الوان الطعام تعاد الى المطبخ من غير ان يؤكل الا قليل منها . فى المقصف الحكومى فى مركز محافظته ، يحضر كل شخص علبة من الالومنيوم للفضلات ليتم التهامها فى البيت ليلا .

وكان يصيبه الذهول لدى كل لحن فى قاعة الرقص . . العديد من الرجال والنساء شرعوا يرقصون فى اوضاع غريبة . فبدلا من ان يمسك كل منهم بالآخر ، وقفوا وجها لوجه واخذوا يهتزون مندفعين للامام والخلف ، كل منهم يتحدى الآخر مثل الديوك المتصارعة . هكذا كان الناس يفرغون ما بهم من طاقة زائدة ! سرح فكره فى الذين يحصدون الارز فى الحقول اللاذعة الحرارة فى هذه اللحظات . . يحنون خصورهم ويحركون اذرعتهم بلا توقف ، الآن من اليمين الى اليسار ، والآن من اليسار الى اليمين . واحيانا يرفعون رؤوسهم وينادون بصوت اجش على حملة الماء : هاى ! ماء الى

هنا ! لو استطاع الآن ان يضطجع على بقعة في ظل شجرة قرب قناة تقرقر بالماء الاصفر ويشم عبير قش الارز والفصفصة في النسيم العليل — ما اروع ذلك لو حدث . . .

— هل ترقص يا سيد شيوى ؟

اخترق السؤال فجأة اذن لينغ جيون من الآنسة سونغ التى كانت جالسة الى جواره . كان مزاج المتعة الذى تكون لديه قد تبخر . احنى رأسه ونظر اليها : هى الاخرى ذات عينين براقتين وفم ساطع بأحمر الشفايف .

— لا استطيع . . .

وظهرت على شفتى لينغ جيون ابتسامة فاترة : يمكنه ان يرعى الخيول ويحرث الحقول ويحصد المحاصيل ويذرى الارز . . ما الفائدة من معرفة الرقص — ولا سيما هذا النوع من الرقص ؟

فقال والده للآنسة سونغ ضاحكا :

— لا تحرجيه . انظرى — المدير وانغ آت يطلبك للرقص .

رجل وسيم فى بدلة رمادية جاء الى الطاولة حيث الآنسة سونغ وانحنى لها مبتسما . وسار الاثنان الى حلبة الرقص .

واشعل والد لينغ جيون غليونه مرة اخرى وقال :

— ماذا بقى لك تفكر فيه ؟ انت تعرف خيرا منى ان سياسات الحزب الشيوعى دائما تتغير . فى الوقت الراهن ، الحصول على تأشيرة سهل نوعا ما ، ولكن من يعرف ماذا سيحصل فيما بعد ؟

واستدار لينغ جيون وصار وجهه فى وجه ابيه :

— هنا ايضا اشياء لا ارغب فى تركها .

ـ بما فى ذلك كل المعاناة ؟ . . .

سؤال ابيه هذا يثير الاستفزاز .

ـ قيمة السعادة يمكن مضاعفتها فقط بالمعاناة .

ـ ماذا تقصد ؟

ونظر اليه ابوه هازا كتفيه فى حيرة .

وانغمر قلب لينغ جيون بموجة من الأسى . تذكر ان اباه ينتمى الى هذا العالم الغريب المبهم ؛ التشابه الجسدى المجرد لا يمكنه ان يزيل الغربة الروحية بينهما . نظر الى ابيه بنفس ما نظر اليه ابوه ولكن نظرة اى من الاثنين لا يمكنها ان تخترق عين الآخر لتسبر ما فى الاعماق تحت السطح .

واخيرا . . سأله ابوه :

ـ أما زلت . . . متألما ؟

ـ ابدا . . ابدا على الاطلاق .

وتحرك ذراع لينغ جيون فى ايماءة بالنفى تماما مثل ايماءة ابيه .

ـ مثلما قلت . . ما فات مات . العصر الحالى مسألة مختلفة . . .

لحن مغاير يعزف الآن . كان منخفضا فى هذه المرة ومريحا ، مثل الماء متدفقا عبر قنوات رى طويلة . وبدت الانوار اكثر خفوتا ، فصعب على لينغ جيون ان يتبين الاشكال المهتزة على حلبة الرقص . طأطأ ابوه رأسه وفرك جبينه . . ظهر عليه الوهن والمعاناة مرة اخرى .

ـ حسن ! ما فات مات حقا ! ولكنك عندما تفكر فيه تجده كله معاناة . . على اية حال ، اشتقت اليك حقا ، ولذلك الآن . . لذلك . . .

ظهر التأثر على لينغ جيون من كلمات ابيه الخفيضة التى تساوقت مع كلمات اغنية عذبة نوعا ما . وقال لينغ جيون الغارق فى الاستغراق :

ـ اجل . . انى اصدقك . انا ايضا اشتقت اليك .

ورفع الاب رأسه وقال :

ـ أ حقا ما تقول ؟

اجل . . فى ليلة خريفية منذ عشرين عاما ، لمعت انوار القمر من خلال تعريشة لنافذة ورقية مزقها المطر على جماعة من الرجال متكئين على ما يشبه الاكوام السملة . كان بضعة عشر انسانا نائمين فى كوخ من غرفة واحدة منخفضة . كان لينغ جيون مستندا الى الجدار فلاحظ ان ملابسه منقوعة برائحة تربة رطبة . ارتعش من البرد وتهيأ له ان يخرج من تحت قش الارز الرطب . وفى الخارج كانت الاوحال تلمع تحت ضوء القمر مثل شظايا الزجاج المكسور . وكانت برك الوحل فى كل مكان . وعبق الجو برائحة منتنة .

ووجد لينغ جيون اسطبل خيل حيث بعثت الدفء اكوام من روث الخيل . كانت الخيول والبغال والحمير تنخر وهى تمضغ القش المكوم فى المذاود . ولمح مذودا فارغا فقبع فيه . رقد فى مذود خشبى كما كان المسيح عند ولادته .

ولمع ضوء القمر فى زاوية ، مقسما النور من الظل فى خط قطرى عبر فى جملون اسطبل الخيل . وكان رأس كل حيوان مربوطا الى مذوده كأنما يعبد القمر . وسرت فى اوصاله كآبة شديدة حين تمثل المشهد مبينا وقوعه فى عزلة . . اضطر ان ينضم الى صفوف الحيوان اذ نبذه الانسان .

ودمعت عيناه . وضغط المذود الصغير على جسمه كأنما الحياة ضيقت عليه من كل الاركان . اولا . . قد هجره ابوه . ثم رحلت امه عن الدنيا ، وتصرف عمه فى كافة ممتلكاتها ، واخذ كل شىء عدا لينغ جيون . ثم انتقل الى مدرسة داخلية حيث عاش ودرس على حساب منحة تعليمية عامة . قبله الحزب الشيوعى . . دربه الحزب الشيوعى . واخذ يشترك ببطء فى الروح الجماعية التى سادت اثناء جو الامل فى الخمسينات برغم نزعته الحساسة والصامتة التى غرستها فى نفسه اسرته غير العادية . فى اغلب تلك الفترة ، اشترك جميع طلبة المدارس العالية فى نفس احلام المستقبل الجميلة . وتحولت احلامه بعد التخرج الى حقيقة واقعة . دخل الى الفصل مرتديا بدلة ماو ، زرقاء اللون ، وفى يده المحاضرة والطباشير . لقد وجه طريقه فى الحياة . ولكن بسبب ان امين فرع الحزب بالمدرسة كان لا بد من ان يملأ قائمة اليمينيين ، وضع اسم لينغ جيون فى نفس فئة ابيه السياسية . يبدو ان علاقة الدم تحدد لا محالة والى الابد الطبقة التى ينتمى اليها الانسان . وهكذا صنف على انه عضو من الطبقة الرأسمالية . فى الماضى ، كانت الطبقة الرأسمالية قد نبذته ولم تترك له سوى كلمة "رأسمالى" لتظهر

فى استمارة السيرة . وفيما بعد ، تجنبه الناس وخلعوا عليه وصفا آخر ليكون يمينيا برجوازيا . وفى الاخير . . هجره الجميع ، وارسل الى مزرعة نائية للاصلاح من خلال العمل .

احد الخيول انتهى من التهام القش ، ومشى بجانب المذود حيث كان لينغ جيون راقدا . اقترب منه بقدر ما يسمح له الرباط ، ومد رأسه الى ان اصبح فمه فوق رأسه . احس لينغ جيون بنفس دافئ على وجهه . رأى الحصان الاسمر يحرك شفتيه على رأسه بحثا عن حبوب الارز فى المذود . ومرت لحظات قبل ان يكتشف هذا الحصان الاسمر وجوده . لم يرتع الحصان بل اتكأ ليشتم رأس لينغ جيون ويمس وجهه . فتأثر بالغ التأثر فاحتضن رأس الحصان الطويل الهزيل ، ولم يتماسك عن البكاء بصوت عال . مسح دموعه بعرف الحصان . وقبل ان يمضى طويل وقت ، استند على ركبتيه يجمع الحبوب فى قاع المذود وقربها من متناول الحصان .

اين انت يا ابى ؟

٣

ها قد وصل ابوه .

ليس هذا حلما ! ابوه يرقد على السرير المجاور بجانبه ، متمددا على سرير "سيمونز" . مد يده على الفرشة : كم هى مختلفة عن المذود الخشبى الصلب كالحجر ! لمع ضوء القمر عبر ستائر الشاش ملقيا نقطا على السجادة والاريكة والسرير .

الانطباعات التى تولدت فى نفس لينغ جيون فى النهار بزغت فى ضوء القمر القاتم ، وغلبته احساسات بأنه متخلف تماما وليس معتادا على كل هذا . قد عاد والده ولكنه غريب تماما . عودة ابيه لم تجلب سوى ذكريات المعاناة وتسببت فى تشويش عقله .

كانت الغرفة ، برغم دخول الخريف ، تبدو اكثر حرارة وخانقة . ولم يكن هناك من سبب بأن لا يرفع البطانيات ويجلس فى الفراش ويشعل نور السرير وينظر حوله فى الغرفة بلا اهتمام . ووقع نظره على جسده . تفحص العضلات الناتئة فى ذراعيه ، وبطنى الساقين بأوردتهما المتوسعة وقدميه ذات الاصابع الرحاء ، وراحتى يديه وكعبى قدميه المرقشة بالجسآت الصفر . . واستعاد ما قاله له ابوه فى فترة بعد الظهر .

بعد تناول القهوة بعد ظهر ذلك اليوم ، طلب ابوه من الآنسة سونغ ان تخرج . عندئذ ، تحدث عن التطورات فى شركته بالخارج وعدم كفاءة اشقاء لينغ جيون الاصغر منه من زوجة ابيه وشوقه الى لينغ جيون وموطنه .

وقال والد لينغ جيون :

ـ احس بالمواساة قليلا وانت بجانبى . كلما فكرت فى ما حدث فى الثلاثين سنة الماضية كلما انتابنى الضيق . لقد فهمت ان خلفية اسرتك البرجوازية قد جعلت الحياة تعيسة فى وجهك مع تكرار حملات الصراع الطبقى فى بر الوطن . بل وصل بى التفكير الى انك لم تعد مسجلا فى كشوف الاحياء . . كان قلقى عليك لا يبارح فكرى . ان صورتك وانت صغير دائما ما ظهرت

فى مخيلتى . اتذكر كيف كنت فى حضن المربية بعد ولادتك . . يبدو ان ذلك لم يكن الا امس فى فندق المغتربين الصينيين القريب من وزارة الشؤون الخارجية فى نانجينغ . . جدك اقام مأدبة احتفالا بمولدك . فى ذلك اليوم ، ارسلت العائلات الكبيرة فى الصناعة والتجارة مثل رونغ وقوه وليو وتشنغ مندوبين عنها من شانغهاى للمشاركة فى الحفل . اظنك تعرف انك الابن الاكبر للابن الاكبر لعائلتنا . . .

صار لينغ جيون ينظر الى جسده القوى النحيل فى ضوء المصباح الذى يتسلل من اباجورة خضراء ، فداهمه احساس غريب . لقد تشكل فى ذهنه تباين صارخ بين نفسين . . الحاضر والماضى ، اذ حكى له ابوه ، لأول مرة ، عن ظروف طفولته التى تعود الى ما وراء ذكرياته الاولى . اكتشف اخيرا ما كان يقلق اباه : الابن الاكبر للابن الاكبر لعائلة ثرية بما لا يصدق العقل ، تلفه الحرائر المقصبة ، يقام له حفل يحضره كل وجهاء واقطاب الصناعة وعقيلاتهم بالمدينة الميناثية ، ثم اصبح كادحا بكل ما فى الكلمة من معنى ! كم من الاتراح والافراح مر بها فى درب حياته . . من شدة الى اخرى !

لم يكن للينغ جيون بيت يعود اليه بعد اطلاق سراحه من الاصلاح من خلال العمل . لذا بقى فى المزرعة يرعى الخيول واشتهر بلقب الراعى .

فى وقت مبكر من الصباح ، عندما مدت الشمس شعاعاتها

على رؤوس الشجر فى ايكة الصفصاف ، ثم لمعت قطرات الندى الفضية على المرج ، كان لينغ جيون يفتح بوابة الاسطبل . كانت الحيوانات بالداخل تحتك ببعض وكل منها ينافس الآخر للصفوف الاولى مندفعة الى المرج . كانت تركض على العشب الكثيف مطلقة صهيل الفرح رافعة اذيالها على كواشحها . كان يحس وهو على صهوة الحصان كأنه يلقى بنفسه الى احضان الطبيعة والحصان يعدو فوق المرج حيث رسمت الخيول ممرا اخضر غامقا .

كان فى المرج مستنقع ملىء بالقصبات . وكانت الحيوانات تتجمع بين كتل القصبات وتنزل رؤوسها لقضم العشب . وكان كل ما يسمعه من نشاطات الخيول من مكانه خارج المستنقع ، شخيرها ورشاشا متواصلا حولها . وكان يجلس على سفح تل ويرنو الى السماء حيث السحب الثلجية البياض كانت فى نفس حال حياة الانسان من التبدل المتواصل . واذا ما هبت الريح على الاعشاب ومياه المستنقع حملت رطوبة ورائحة عرق الخيل وانفاس الطبيعة ، واذا ما مسته من رأسه الى قدمه بعثت فى نفسه نوعا من المواساة . كان يرفع ذراعه ويحنى رأسه الى اسفل ناحية ابطه فتتسلل الى خياشيمه رائحة عرقه ممتزجة بأريج الطبيعة . كانت تلك احساسات رائعة لانتعاش روحى بعث فى نفسه احلاما بلا حدود اذ اعتقد انه قد امتزج برياح البرارى . كان يحوم فى كل مكان ، ونبذ احساسه بالوحدة . وتلاشت كآبته وسخطه على القدر وآلامه وبدلا منها يتدفق فى نفسه حب جارف للحياة والطبيعة .

عند الظهيرة .. كانت الخيول تخرج واحدا واحدا من القصبات .. بطونها ممتلئة ومكورة ، اعرافها منتصبة شعورها ، واذيالها تهفهف اماما وخلفا لطرد ذباب الخيل . كانت تتجمع حوله بطريقة توحى بالود ، تنظر الى راعيها بعيون واسعة رقيقة . ومن آن لآخر ، كان الحصان رقم ٧ المرقش بنقط بيضاء وسوداء ، يدور حول الخيول النحيفة واخيرا ينسل الى جانب الحصان الاعرج الذى يحمل الرقم ١٠٠ يقضم فى رفق . وكان الحصان رقم ٧ يثير الضيق بفمه المهدب بشعر غير كثيف . كان الحصان رقم ١٠٠ لا يتحمل هذه المضايقة فيخفض مؤخرته ويركل بساقيه كما كان بارعا قبل ان يحل به الوهن . وكان الحصان رقم ٧ يتراجع ويرفع رأسه ، ثم ينطلق ذهابا وايابا فى المرعى ، فى حين ينطلق من خلفه رشاش فضى تماما كمثل طفل شقى يحاول ان يصرف الانتباه عن عمله السيء بأداء "عمل خفى" . وهنا .. كان لينغ جيون يرفع السوط ويصيح بصوت مدو عدة مرات . وعندئذ يرفع كل حصان اذنيه . ويوجه نظرات تقريع للحصان رقم ٧ الذى يعود اليه هدوؤه مثل تلميذ لقى التأنيب . كان يقف واقدامه فى المستنقع ، يشد فمه ويطحن على اسنانه الامامية فى حياء . آنذاك ، كان لينغ جيون يحس بأنه ليس مجرد راع لمجموعة من الحيوانات بل كان يحس انه اكثر من امير فى الاساطير ، كان بطلا لكائنات خارقة تتصف بذكاء الانسان .

كانت ظلال السحب على اقدام الجبل تتحرك ببطيئة ، تحت شمس الظهيرة العالية . وكانت اسراب من طيور الماء المعروفة

محليا باسم "جاموس الماء" ، تظهر فاترة فى الحرارة اللاهبة وتبدأ تسقسق وهى تنقر بين القصبات .

وهذه المنطقة لا تتصف فقط بالاتساع المهيب حيث تهب الرياح المتماوجة عبر اعشاب المرج وتظهر فيها المواشى والاغنام ، بل ايضا تتحلى بالجمال الرقيق من الجبال الخضراء والغدران اليشبية . يمكن استقطار مفهوم مجرد — "الوطن الام" — فى هذا الفراغ المحدود الرائع الشكل . احس لينغ جيون بالرضا . . الحياة جميلة على اية حال . لقد زودته الطبيعة والعمل بأشياء عديدة لم يكن ليتلقاها فى حجرة الدرس .

كانت العواصف المطرية تزور ذلك المكان احيانا . اولا . . تظهر السحب الممطرة مثل ستائر من شاش حريرى اسود ، تكاد تلمس سفوح الجبال القاصية . وتصبح الاشعة الباهرة التى تصافح المراعى الشاسعة ذات لون ذهبى بهيج . ثم تزحف السحب الممطرة ، تدفعها الرياح ، ببطء اسفل سفوح الجبال . وقبل مضى وقت طويل تتساقط قطرات المطر فى حجم حبة الفاصوليا ، فيما يكون الضباب الابيض الكثيف يتصاعد فوق المرعى . وقبل ان تصل العاصفة الى ذروتها ، يسوق لينغ جيون الخيول الى ايكات اشجار قريبة . يرفع السوط وهو على صهوة جواده ويسوق الخيل فى وجه هبات الريح التى تجعل من جاكتته تتطاير مثل جناحى الطائر . ويسلك هذا الدرب او ذاك عبر المرعى ، يسوق الخيول التى خرجت من القطيع ، ويعيدها اليه غير متوقف عن الصياح ولا الاشارات . فى اوقات كهذه ، كان يحس بجسمه مترعا بقوة

نارية ويشعر انه غير تافه .. وفى الصراع مع الرياح والمطر وما لا يحصى من الآفات الحشرية استعاد ثقته بنفسه شيئا فشيئا .

فى هذه الظروف المعاكسة فقط يتمكن الرعاة من كل فيلق ان يلتقوا . وكان الكوخ الذى بنى لايوائهم من المطر مثل زورق ضيق رسا فى جو ملىء بالضباب والمطر . وكان باردا ورطبا نوعا ما من الداخل ، يتخلله دخان ازرق من تبغ رخيص . كان لينغ جيون يستمع الى مزاح الرعاة الذى كان يخرج فى الفاظ نابية وكان يدهشه ان يرى انهم نادرا ما عبروا عن مشاعرهم المعقدة حول العمل او الحياة ، ليسوا مثله . كانوا بسطاء ، وكانوا واقعيين منذ البداية .. ربما كانت حياتهم شاقة ولكن عندما يقال وينجز كل شىء دبت السعادة والرضا فى قلوبهم . وفى ذلك الحين حسدهم لينغ جيون كثيرا .

ذات يوم .. جاء راع عجوز ناهز الستين من عمره الى لينغ جيون وسأله :

– يقول الناس انك يمينى . ماذا يعنون بقولهم يمينى ؟

اخفض رأسه محرجا واجاب فى بطء :

– اليمينيون .. اليمينيون هم اناس ارتكبوا اخطاء .

فقال راع من الفيلق السابع :

– اليمينيون هم اناس خرجوا بكلام صريح قليل فى سنة ١٩٥٧ . المثقفون وصموا بذلك فى تلك السنة .

كان هذا الراعى من الفيلق السابع انسانا صريحا ذرب اللسان ، مغرما بالمزاح الثقيل . وكانوا جميعا يسمونه " قوه العنيد " .

بدا الراعى العجوز مستغرقا فى التفكير ونفث فى غليونه وقال :

ـ اذا دعونا الكلام الصريح "صنع اخطاء" .. اذا لم يتكلم احد بصراحة صار كل شىء خارجا عن المألوف .

واردف يقول :

ـ من جهة اخرى .. الافضل للانسان ان يكون عاملا لا كادرا . لقد دنوت من السبعين عاما ، ولكن عينى لا تغطيهما غشاوة ، واذنى ليستا اصمتين ، وظهرى معتدل ، وعندما آكل الطعام امضغ واطحن بأسنانى . . .

وقاطعه قوه العنيد مبتسما فقال :

ـ هذا يعنى ان على اولادك واقربائهم ان يكونوا عمالا ايضا .

ورد عليه الراعى العجوز :

ـ وماذا فى هذا ان اصبحوا عمالا مثلى . اذا انت لم تستطع ان تزاول العمل الجسمانى كانت حياتك بلا جدوى .. لن تكون مسؤولا ولن تكون عالما . . .

هذا النوع من المناقشات العشوائية يثير فى جوانح لينغ جيون شعورا مبهما قريبا من الشعور برؤية قوس قزح بعد عاصفة رعدية . قد اشتاق للعودة الى حالة البساطة العادية كى يتوصل الى الاحساس بالرضا كما لزملائه العمال .

تدريجيا .. تمكن لينغ جيون ، عبر فترة طويلة من العمل الجسمانى ووسط التقلبات المادية التى يخضع لها كل من الانسان والطبيعة ، من التوصل الى اسلوب حياة مستقر . هذا الاسلوب الحياتى المستقر شكله حسب الانماط اليومية الصارمة التى وضعها

بنفسه . ومع الايام . . ذوى هذا الماضى الى ما يشبه حلما غامضا او حكاية قرأها ذات يوم عن شخص آخر . كما ابتعد اسلوب حياته المستقر المختلف تماما عن حياته وهو شاب ، عن كثير من ذكريات شبيبته . واصبحت حياته فى المدينة وهما ، وبدا الواقع الريفى وحده هو الحقيقة الصارمة .

وفى الاخير . . اعتاد على الحياة فى هذا المكان وايضا لم يعد قادرا على ايجاد حياة ترضيه فى مكان آخر . . اصبح الآن راعيا بحق وحقيق .

ومع مضى الايام ، نشبت " الثورة الثقافية " . . وكان الاهالى المحليون قد نسوا منذ وقت طويل كل شىء عن ماضى لينغ جيون . ولم يتذكر تصنيفه كيمينى الا قلة من الناس بعد هبوب عدد من الحملات السياسية المسعورة . كان لينغ جيون يجر امام الجمهور للتشهير به والتعذيب . عند هذا المنعطف ، تجمع الرعاة من عدة فيالق فى داخل الكوخ للمناقشات ، وتوصلوا فى خاتمة الامر الى عذر " الاعشاب على السفوح السفلى ليست جيدة " . وبعد ان حيوا مدراء المزرعة بوداع تعوزه الحماسة ، جمعوا الحيوانات بالصفير والزعيق ثم ساقوها الى المراعى الصيفية على السفوح العليا . وكان لا بد ان يصحب لينغ جيون الخيول حيث انه لم يكن فرد واحد من الجماهير الثورية راغبا ، من اجل الثورة ، ان يحل محل لينغ جيون الذى سيقضى فى المراعى عدة اشهر لا يمكنه العودة الى البيت . وجاء راعيان ساعدا لينغ جيون على رفع متاعه الخفيف على صهوة حصان . وتوجه الرجال الى رؤوس الجبال تاركين المكان

الذى عمت فيه الفوضى .

ولما وصل الرعاة الى الممر الرئيسى هتفت جماعة منهم : " لنذهب ! نحن منطلقون الى الجبال . . من يبالى بأولئك الباحثين عن الاخطاء ! " ودوى الصفير الحاد مع كورس من الهتافات وضربات حوافر الخيل تثير سحبا صفراء متماوجة من الغبار . وفى اقصى مرمى البصر مراعى المرتفعات الرطيبة تلمع بتلألؤ بلورى مثل الجاديت . . . كان ثمة شعور خاص يساور لينغ جيون دائما لهذا اليوم الذى حفر فى ذاكرته حفرا لا يمحى .

هذا المكان شهد اتراحه وافراحه . ومع التراكم فى خبرته الشخصية ، اتجه احساسه بالبهجة تدريجيا الى ما وراء دنيا العاطفة التى يمكن ان تتوازن مع الاتراح . وبالتالى ، صارت مآسيه بلا معنى .

فى ربيع السنة الفائتة ، استدعى لينغ جيون فجأة من المرعى بسفح الجبل من قبل مجلس ادارة المزرعة . كانت فى يده قبعة قشية وهو داخل ، يستبد به شعور من قلق وخوف ، الى مكتب على بابه لافتة " الدائرة السياسية " . اخذ نائب المدير دونغ يقرأ اولا من وثيقة رسمية ثم حكى للينغ جيون انه ظلم بنعته يمينيا وها هو اليوم تبرأ ساحته وتجرى الاستعدادات لتعيينه مدرسا بمدرسة المزرعة .

كانت سيماء نائب المدير دونغ رزينة خالية تماما من اى تعبير . وكانت ذبابة خيل فى المكتب قبل وصول لينغ جيون تزن

هنا وهناك ، تحط على الجدار مرة وعلى دولاب الملفات مرة اخرى . وصار نائب المدير دونغ يتابع الذبابة بعينيه ، وامتدت يده الى مجلة فى شوق شديد لخبطها مرة او مرتين .

— يمكنك ان تذهب الى السكرتيرة فى الغرفة المجاورة وتأخذ التوجيه الادارى بنقلك من الآنسة بان . اذهب الى المدرسة غدا .

واخيرا . . حطت الذبابة على مقعد المكتب . فهوت عليها المجلة غير ان الذبابة طارت فى خفة الى جانب آخر . وغاص نائب المدير دونغ فى مقعده مغموما .

— عليك ان تؤدى عملك جيدا من الآن فصاعدا ، وان لا تفعل اخطاء مرة اخرى . هذا كل ما فى الامر .

كان وقع هذا الحدث الفجائى على لينغ جيون فى شدة صدمة كهربائية . واعتراه اندهاش وذهول . لم يستطع فعلا وهو فى هذا الموقف ان يستوعب معنى تبرئة الساحة فى اطار الحياة السياسية للامة او ماذا ستجلب التغيرات الجذرية لحياته . لم يجرؤ ابدا ان يتخيل بأن مثل هذا اليوم سيحين . شعر بالبديهة بأن الحظ السعيد المتواصل قادم فى طريقه . وبدأ شعور خفيف من السعادة يخرجه من ذهوله الى الاثارة المبهرة . . مثل اثر الكحول النقى فى مجرى الدم . اولا . . جف حلقه . ثم بدأ كل جسمه يرتجف خفيفا . واخيرا . . لم يستطع ان يكبح جماح فيضان الدموع . . وجاء النحيب من صدره كمثل الصدى فى واد جبلى . هذا المشهد اثر فى نائب المدير دونغ الرزين الذى لا يعرف وجهه التعابير . وعندما شد لينغ جيون يدى دونغ بيديه احس بأن ثمة املا غير

واضح فى المستقبل .

ومرة اخرى دخل الى الفصل مرتديا بدلة ماو الزرقاء ويحمل دفاتر التحضير والطباشير فى يديه . لقد جدد حلمه الذى راوده منذ عشرين سنة .

لم يكن احد من عمال المزرعة ميسور الحال . كان اولادهم فى ملابس مهلهلة ، وتنبعث رائحة العرق والغبار ونوع من جفاف الشمس فى الفصل . ونظر التلاميذ فى مقاعدهم الخشبية البسيطة ، الى لينغ جيون بعيون واسعة ، غير مبالين بأن المعلم كان يرعى الحيوان فى السابق . وان هى الا فترة قصيرة حتى كسب ثقة التلاميذ . لم يقدم اى مساهمات غير عادية لنتحدث عنها . لم يجرؤ ان يتصور انه يخدم الاشتراكية او " التحديثات الاربعة " : شعر بأن هذه الدوافع المجيدة انما هى للابطال . لم يفعل سوى انجاز مسؤولياته كمعلم . ومع ذلك ، حظى باحترام التلاميذ فى هذا الشأن . وفى صبيحة توجهه الى بكين ، رأى التلاميذ قد اصطفوا على الطريق امام المدرسة ينظرون الى العربة التى نقلته . ربما سمعوا انه استطاع فى الاخير ان يتصل بوالده فى الخارج وانه على وشك ان يغادر البلاد مع ذلك الاب الثرى . كبح التلاميذ دموعهم وارتسمت على وجوههم تعابير الحزن وهم يرونه يركب العربة ثم يختفى عن الانظار بين اشجار الحور ... ؟

كان بعض الرعاة ما زالوا يأتون من اميال بعيدة يزورون لينغ جيون بين وقت وآخر . وكان الراعى العجوز قريبا من الثمانين سنة ، ومع ذلك كان نشيط الخطوات كما كان . وفى ذات يوم

كان جالسا على فراش الآجر فى بيت لينغ جيون وتناول معجما صينيا حديثا واخذ يتفحصه وقال :

ــ اخشى ان قراءة هذا الكتاب السميك تحتاج الى عمر كامل حتى بالنسبة لانسان متعلم .

ورد عليه قوه العنيد :

ــ هذا معجم . والآن .. ألم يحصل تشوش فى دماغك فى سنك هذا ؟

ــ نعم .. طول حياتى .. انا امى ، لا اعرف شيئا عن القراءة .. عندما اذهب واتفرج على فيلم لا استطيع ان اقرأ عنوانه . كل ما افعله اننى اشاهد الممثلين وهم يتحركون .

واهتاج الرعاة عاطفيا لأن هذا العجوز قد فهم اخيرا ان التعليم شيء هام فى هذا العهد الجديد .

ــ فى هذه الايام اذا اردت ان تعمل شيئا فلا بد من ان تكون متعلما . فى المرة الماضية حملت الدواء للحيوانات ، وكنت على وشك ان اعصر المرهم فى حلوقها من غير ان اعرف ما هو .

وقال قوه العنيد للينغ جيون :

ــ يا يمينى ! لقد خلصت نفسك من اكوام الغبار التى نلتصق بها نحن الرعاة . ان الناس من امثالنا فاتهم القطار ، واولادنا الآن يعتمدون عليك ...

واضاف للراعى العجوز :

ــ هذا صحيح . اذا علمت حفيدى كيف يقرأ كتابا بهذا الحجم فانك تفعل الخير لأصدقائك القدامى فى المرج .

ربما كانت هذه المناقشات ينقصها التهذيب الادبى ولكنها اوضحت اهمية ما يقوم به من عمل ، وشرع يحدد بمزيد من الوضوح آماله بالنسبة للمستقبل . من اجسام الرعاة ، لقط لينغ جيون رائحة عرق الخيل والعشب وروائح طبيعية كثيفة اخرى . وان الود الذى احسه مع الرعاة كان مختلفا تمام الاختلاف عن الجو الخانق الذى احس به مع ابيه والآنسة سونغ .

كان يرى قيمته فى عيون الرعاة وتلاميذه وزملائه . ما هو الافضل من رؤية معزته وقيمته فى عيون اناس آخرين ؟

٤

فى الصباح ، خرج لينغ جيون يتمشى مع الآنسة سونغ وابيه فى شارع وانغفوجينغ . واكتشف انه لم يعد يطيق حياة المدينة . فالاسمنت والاسفلت هنا ليسا بشىء مثل مروج الريف . وكان يتدفق فى الشارع سيل لا ينقطع من الناس ، كل منهم غريب عن الآخر . . كان المشهد صاخبا وفى نفس الوقت غريبا بالنسبة اليه . اضافة الى ذلك ، تعب لينغ جيون من اجهاد متوتر ينجم عن الضجيج المتواصل من كافة الجهات .

فى متجر للمشغولات الحرفية ، طلب والد لينغ جيون طقما صينيا ازرق وابيض من خزفيات جينغدتشن الممتازة دفع له شيكا قيمته ٦٠٠ يوان . ودخل لينغ جيون الى متجر يبيع الاوانى الخزفية واختار جرة مخللات ثمنها اكثر من يوانين بقليل . كانت هذه

الجرة الصغيرة فاتنة شبيهة بحرفة يدوية اكتشفت فى مقبرة هان ، بتصميمها العتيق الطراز المكون من خطوط صفراء وبنية مقوسة لم يسبق ان رأى لينغ جيون هذه الآنية المنزلية الجميلة فى اى مركز محافظة فى منطقة الشمال الغربى . كانت شيو تشى التى تحدثت دائما عن نوعية جرر المخللات فى موطنها ، تريد اقتناء جرة مخللات مثل هذه . والجرة التى ببيتهما الآن هى من الصلصال احضرها شخص من مقاطعة شنشى . . حصلت عليها شيو تشى فى مقابل سهرها عدة ليال وهى تخيط انعلة لخمسة ازواج من الاحذية القماشية . كانت هذه الجرة القديمة المزججة بلون ازرق خفيف قبيحة المنظر ، اذ تسرب منها السائل الملحى فتحول لونها الى لون ابيض بعد جف السائل .

– لا بد ان امرأتك فائقة الجمال .

قالتها الآنسة سونغ بابتسامة جذابة بعد عودتهم الى الفندق بقليل . واضافت :

– هذا يجعل الناس يتقدون غيرة وهم يرونك كم تحبها .

ارتدت الآنسة سونغ زيا جديدا فى هذا اليوم . . بلوفر بنفسجى خفيف رقبته على شكل ٧ فوق قميص حريرى بمربعات حمراء وسوداء ، وتنورة من صوف رمادى شفاف . وزادت هذه الفتنة تحت اشعة شمس الخريف الحارة فى حدة عطر الياسمين الذى تعطرت به .

تنهد والد لينغ جيون وقال :

– الزواج فى العادة هو نوع من الالتزام والواجب .

وجلس على جانب ينظر فى بطء الى فنجان القهوة . ربما اثار هذا الموضوع ذكرياته لأن العجوز بدا عليه الحرص فى انتقاء كلماته :

ـ لا يهم ان كان الانسان يشعر بعاطفة حيال زوجته ام لا ، ولكن يجب عليه ان يلتزم التزاما تاما بذلك الالتزام والواجب حتى النهاية . والا يتعب ضميره ، ويشعر بالندم . ان رجائى بذهابك معى الى الخارج لا يشملك وحدك . . لا بد ان تحضر زوجتك وطفلتك معك .

وقالت الآنسة سونغ :

ـ حسن اذن يا سيد شيوى ! ألا تريد ان تحكى لنا عن قصتك ؟ لا بد ان حكاية حبك كانت تجربة بالغة الاثر . لا اظن ان رجلا وسيما مثلك لم تطارده النساء .

ورد لينغ جيون بابتسامة اعتذار :

ـ كيف يكون لى مثل هذه القصة ؟ عندما تزوجنا ، زوجتى وانا ، لم نكن نعرف بعضا . . . ناهيك من قصة الحب .

ـ اوه ! . . .

ند من فم الآنسة سونغ صوت ذاهل مبالغ فيه ، بينما كان العجوز يحرك كتفيه على نحو لا ينم على الراحة .

اراد لينغ جيون ان يحكى لهما كيف حدث زواجه مع شيو تشى ، اذ ان الخلفية الاجتماعية لهذا الشكل غير العادى من الزواج كانت نكبة كبرى . . نكبة كان فيها ايضا اهانة للشعب الصينى . كان يخشى ان يثير كلامه ضحكات ساخرة على اشياء كانت

مقدسة لديه . وفيما هو متردد ، رشف قهوته . كان مذاق القهوة المر يحتوى ايضا على مذاق حلو . . فى الواقع لا تنفصل المرارة والحلاوة عن بعض . واذا ما اختلطت الاثنتان نتج عنهما مذاق خاص يثير حماسة شاربى القهوة . استحسن والد لينغ جيون والآنسة سونغ النكهة الطيبة للقهوة . . ولكن هل هما قادران على فهم تعقيدات الحياة ؟ فى ذلك العهد الذى ثارت فيه الفوضى ، كان الزواج كمثل المؤسسات الاجتماعية الاخرى قد انتزع تماما من مهابته المصونة طبيعيا . كان مسألة اتفاق خالصة . استطاع ابوه والآنسة سونغ ان يدركا هذه السخافة المنافية للعقل ولكنهما لم يعرفا كيف يحولان هذا النوع من الاتفاق الى مباركة . واكثر من ذلك . . كلما ازدادت احواله صعوبة كلما بدا حظه الطيب غير المرئى عزيزا . احس لينغ جيون بأن يصعب على اى شخص ان يفهم الحزن وايضا العواطف الجياشة التى تهاجم الفكر فى كل وقت يتذكر مع شيو تشى ظروف زواجهما الفريد .

حدث ذلك مساء يوم فى ربيع العام ١٩٧٢ . مضى ذلك اليوم كمثل غيره : عاد لينغ جيون الى كوخه بعد ان انتهى من عمله الروتينى فى جلب الماء للخيل وجمعها فى الاسطبل . كان قد رمى السوط من يده واذ قوه يدخل عليه .

وقال له قوه والاثارة تملأ جوانحه :

ــ أهلا ايها اليمينى العنيد . . أتريد زوجة ؟ ان كان لك رغبة فطلبك تحت يدى ، ويمكننى ان احضرها لك الليلة .

ــ اذن تحضرها .

كان هذا رد لينغ جيون مبتسما على ما ظن انه مزاح .

ــ حسنا ! كلمة واحدة تكفى للاتفاق بين الرجال . كل المطلوب منك ان تهتم بالاستعدادات الشخصية الخاصة بك . اوراق المرأة كلها جاهزة . لقد اتيت لأرى امين الحزب المشرف عليكم ، وقال انه ما دامت هذه رغبتك فهو مستعد للتوقيع على كل الاوراق حالا . حسنا ! لقد جهزت ورقة لرغبتك سأسلمها للدائرة السياسية عندما امر بمصلحة ادارة المزرعة وانا فى طريقى الى بيتى . وعندما اعيدها الى هنا سأحضر المرأة معى وهذه الليلة ستكون " ليلتك فى عش الزوجية " !

وهبطت ستائر الظلام وكان جالسا على مقعد يطالع فى " المجلة الادبية الشهرية لجيش التحرير " ، حين سمع هتافات الاطفال بالخارج : " جاءت زوجة اليمينى ! جاءت زوجة اليمينى ! "

فتح الباب على مصراعيه ودخل قوه كما فعل من قبل .

ــ كله تمام ! لن اتقاضى اكثر من رشفة نبيذ ، ولكن . . ألا استحق ان تقدم لى ماء على الاقل لتظهر لى امتنانك ؟ قضيت بعد الظهيرة بكامله غاديا ورائحا حتى كادت قدماى لا تلامسان الارض من السرعة . . قطعت خمسة عشر ميلا .

شرب ملء مغرفة من ماء البئر غرفها من دلو لينغ جيون ومسح فمه بكمه وانطلقت منه تنهيدة رضى . ونظر الى خارج الباب ثم بدد الصمت هاتفا :

ــ تفضلى ! تفضلى ! هذا بيتك . تفضلى لتتعارفا : هذا هو اليمينى

الذى حكيت لك عنه ، اسمه الحقيقى : شيوى لينغ جيون . انه فى حال طيبة ولكنه فقير نوعا ما .. كلما كان الانسان فقيرا كان اكثر كرامة كما تعرفين !

وفى الاخير ، لحظ لينغ جيون امرأة غريبة واقفة امام جماعة من الاطفال . كانت ترتدى سترة رمادية متجعدة وتحمل ربطة بيضاء صغيرة ، واخذت تدقق النظر بلا مبالاة فى كوخه الملوث بالسخام والتراب ، كأنما تستعد فعلا للدخول .

وصاح لينغ جيون مرتعبا :

ــ هذا ... هذا لا يمكن عمله ! لقد تطاولت فى الامر حدا بعيدا !

ــ لماذا لا يمكن عمله ؟ انت الانسان الذى يفهم اكثر من غيره .

واخرج قوه رزمة اوراق من جيبه وضعها على طرف السرير ، وقال :

ــ هذه الاوراق تم توقيعها جميعا . هذا هو القانون ... القانون ! هل تفهم ؟ عليك ان تفهم اننى قلت للدائرة السياسية بأنك منشغل برعى الخيول وانك طلبت منى ان اهتم بعمل الاوراق لك . اذا تراجعت الآن فهذا اسوأ نكران للجميل اسمعه فى حياتى ! هل تسمعنى ايها اليمينى !

ــ هذا لا يمكن ... صحيح ؟ صحيح ؟

رد لينغ جيون على قوه بنفس السؤال مرات ومرات ، وذراعاه مفرودتان فى ذعر . كانت المرأة قد دلفت الى الداخل وجلست



على المقعد الذى كان يجلس عليه لينغ جيون قبل قليل . لم تكترث لما حدث كأنما حديث الرجلين لا علاقة له بها على الاطلاق .

— ألا يمكن ذلك ؟ انت تسألني عن شيء يتعلق بكما انتما الاثنان ؟ من تريدنى ان اسأل ؟

ووضع قوه " القانون " على السرير وقال :

— حسنا . . خذ الامور ببساطة الآن ! فقط لا تنس ان تدعونى لشراب فى السنة القادمة عندما تحتفل بأول مولود لك .

وتوجه الى الباب حيث توقف ويداه على خاصرته وصار ينهر الاولاد ليبعدهم كما لو كانوا دجاجا :

— علام تنظرون ؟ ألم تروا آباءكم يتزوجون ؟ عودوا الى بيوتكم واسألوا آباءكم عن الزواج ! هيا انصرفوا حالا !

ثم راح قوه لحال سبيله .

اخذ لينغ جيون يتفحص المرأة خلسة على ضوء المصباح الخافت . لم تكن فيها مسحة من الجمال ابدا . . النمش يغطى انفها الرفيع المرفوع لأعلى ، وشعرها مصفر ينقصه البريق ، وعلى وجهها الهزيل تعابير الضنى . لم يقدر لينغ جيون ان يفهم كيف يكن لها مشاعر عطف . صب لها كوبا من الماء ووضعه على منضدة خشبية وقال :

— تفضلى الماء . . لقد قطعت مسافة طويلة . . .

رفعت رأسها ولمحت فى عينيه تعبيرا ودودا . وبعد ان شربت الماء فى صمت بدا ان حيويتها اخذت تستعيد نفسها قليلا . انحنت على طرف السرير لتطوى اللحاف ثم اقتربت من بنطال لينغ

جيون البالى عند الركبة . حملت البنطال الى صدرها وفتحت الصرة التى احضرتها معها واخرجت منها بعض قطع من قماش وابرة وخيطا واخذت ترفو . كانت حركاتها منتظمة ، يمكن ان يلاحظ المرء من خلالها طاقة مكبوتة . هذه الحيوية يبدو انها شيء لم تستطع التعبير عنه من ذاتها ، ولكن من خلال ترتيب الاشياء او تنظيم البيت. لقد رتبت البيت ترتيبا لطيفا فأصبح نظيفا متوهجا برغم مظهرها الكئيب . وتحركت اناملها على اشياء مثل الملابس والالحفة والحصر كأنما كانت تعزف على مفاتيح بيانو منسجمة مع مختلف الالحان ، وصار الكوخ يضج بالموسيقى .

وفجأة تذكر لينغ جيون لقاءه البعيد مع الحصان الاسمر ، فسرت فى قلبه موجة من الأسى على الفور . احس كأنما هما يعرفان بعضا منذ زمن بعيد ، وانه ايضا ينتظرها منذ سنوات عديدة . وجلس الى جانبها تعتمل فيه مشاعر نشوة غامرة على عكس اى شيء عرفه من قبل . وغطى وجهه بيديه خشية من ان يصدق بأن حسن الطالع قد هل حقا ، خشية من ان الحدث السعيد سيترك سوء الحظ الجديد فى طريقه . حاول ان يستوعب هذه العاطفة الجديدة ، ناظرا الى الظلمة من بين راحتيه .

ومع مرور الوقت ، وضعت المرأة الابرة والخيط جانبا . وانبأها حدسها بأنه انسان يمكن ان تعتمد عليه طول العمر . لم يكن لديها ادنى فكرة انه غريب ، فوضعت عفويا ذراعها بخفة حول كتفيه المحدودبين . وامضى الزوجان الوقت فى حديث حتى الفجر فوق سرير الآجر المغطى بالخيش .

كانت شيو تشي فى الاصل من سيتشوان . . " ارض الخيرات" . ولكنها عانت من مغبة الفقر فى هذه السنوات العجاف حتى ان الانسان لم يكن بقادر على ان يجد ما يكفى حتى من البطاطا الحلوة ، ولم يكن ثمة خيار امام الاعداد الكبيرة من الفلاحين الذين اضناهم الجوع الا ان يهيموا على وجوههم . وكانت الشابات افضل حالا نوعا ما بايجاد الشريك فى المقاطعات القريبة واقامة حياة عائلية هنالك . وما دامت قرية سيتشوانية قدرت على تزويج احدى الشابات منها بهذه الطريقة ، كانت المرأة صاحبة الشأن تفتش عن علاقات مماثلة للنساء المرغوب فيهن بالقرية . وعلى هذا النحو ، كانت مجموعة اثر مجموعة من الشابات يغادرن " الجبال والانهار فى سيتشوان " ، لا يحملن معهن سوى صرة صغيرة من متاعهن . كن يعبرن نهر اليانغتسى ويخترقن جبال تشينلينغ ، وتسحبهن اقدامهن عبر ما لا يحصى من الانفاق الطويلة والقصيرة مسرعات نحو المستقبل الذى ينتظرهن فى شنشى او قانسو او تشينغهاى او نينغشيا او شينجيانغ . وكانت العائلات القادرة على توفير مبلغ من المال تشترى تذاكر الاوتوبيس لبناتهن الشابات فيما كانت النساء من العائلات الفقيرة يتشعلقن بالقطارات وكانت الصرات التى يحملنها ليس فيها اكثر من بعض الملابس المرقعة ومرآة مستديرة ومشط خشبى . وبمساعدة ذلك كن يقدمن جمالهن الغض مثل الرهان فى اوكار القمار المعروفة . ربما فزن بحياة سعيدة وربما فقدن كل شيء . . .

ان هذا النوع من الزواج الخفيض السعر قد شاع منذ البدء

فى المزارع بمنطقة لينغ جيون . وكان العزاب الشباب والكبار على حد سواء يبحثون عن نساء من سيتشوان ، اذ كانوا عاجزين عن تقديم المهور . واذا ما تزوجت امرأة منهن ، حاولت دائما ان تكون خاطبة لعدد من النساء المرغوب فيهن ما زلن فى موطنها . كانت تكون كأنما لديها ملف شخصى يمكن ان تستشيره . متى ما وقع البصر على شاب مقبول .. تكتب رسالة تستدعى امرأة سيتشوانية اخرى قد تتزوج فور وصولها .

كانت شيو تشى من النسوة اللواتى استدعين برسالة وساطة للزواج . جاءت تبحث عن شاب يعمل سائق جرارة فى الفيلق السابع . ووصلت بعد رحلة كان فيها ما فيها من الانهاك والتعب ، الى المزرعة مع اوراقها الثبوتية . غير ان الرجل وقبل وصولها قد انقلبت به الجرارة فأصيب بجراحات توفى على اثرها بفترة قصيرة . لم تذهب شيو تشى الى المحرقة لتقديم الاحترامات الاخيرة ، اذ لا تشعر بامتنان لأحد وبالتالى لا داعى لأن تذهب .

كان القلق قد استبد بها .. لم تنزل فى بيت تلك المرأة من موطنها والتى كتبت لها الرسالة ، اذ هى تعلم ان المرأة تواجه ظروفا صعبة .. زوجها مقعد ، والاثنان يربيان طفلا جاء بعد سنتين من زواجهما . وكل ما استطاعت شيو تشى ان تفعله ، وقد يئست ، ان تجلس امام اسطبل خيول الفيلق السابع حيث اخذت تراقب التحرك البطىء لظلها كالمزولة .

وجاء قوه الى الاسطبل بعد ظهر ذلك اليوم يجلب الماء للخيل . وعرف ما هى فيه ، فترك الخيل ترعى فى المرج ، وذهب يفتش

من بيث لبيت على امل ان يجد حلا لما هى فيه من ورطة . لم يكن الا ثلاثة عزاب فى الفيلق السابع آنذاك . . ذهبوا واحدا وراء الآخر الى الاسطبل لالقاء نظرة عليها فلم يعجب بها احد اذ كانت قصيرة القامة مهزولة الجسم . وفى الاخير ، فكر قوه فى لينغ جيون الذى كان فى منتصف الثلاثينات من عمره .

هكذا تزوج لينغ جيون وهذه هى حكاية زواجه .

– اليمينى تزوج !

اصبح الزواج حدثا عظيم الاهمية فى فيلق الانتاج . هؤلاء الناس الذين اضنتهم حركة " التمسك بالثورة بشدة " ، مسرورون بالتخلص مؤقتا من المنازعات العصبوية ، وقد اعرب الجميع عن التعاطف مع هذا " العنصر اليمينى " الذى لم ينتم الى اية عصبة ، ولم يؤذ احدا وبقى طول الوقت منهمكا فى " دفع الانتاج " . وعلى العموم . . يتحلى البشر بطبيعة طيبة . . واستجابة للحنان الذى لقيه لينغ جيون من الآخرين ظهر حنانه لهم ايضا .

قدم له الاهالى المحليون قدرا للطهو ، وقدم له آخرون بعض كيلوغرامات من الحبوب وكوبونات لشراء الاقمشة . اضافة الى ذلك ، انبرى طبيب بيطرى شاب يجمع نصف يوان من كل عائلة من اجل لينغ جيون . وحدث ان فرع الحزب فى اجتماعه قد اجاز قرارا بالاجماع لاول مرة منذ نشوب " الثورة الثقافية " . . اخيرا منح لينغ جيون اجازة ثلاثة ايام يستحقها المتزوجون الجدد بصورة مشروعة . كان الناس بخير حتى فى تلك الفترة التى سادتها سحائب الظلام .

وشرع الزوجان يقيمان اسرة وهما يشعران اعمق الشعور بأنهما مدينان لهذا العطف الذى جاء من الآخرين بما صنعوا من خير وقدموا من احسان .

كانت شيو تشى مجدة متفائلة منذ البداية . لم تواصل تعليمها الا لمدة سنتين فى المدرسة الابتدائية فى بلدة قرب قريتها ، وكانت عاجزة فى وصف ردود فعلها للحياة فى لغة شاعرية . وفى مساء اليوم التالى لانتقالها الى بيت لينغ جيون ، عرضت سينما الفيلق فيلم « لينين فى سنة ١٩١٨ » عند مكان تشميس الحبوب . ومنذ ذلك اليوم اصبحت جملة من نص دور فاسيلى "سنحصل على الخبز وعلى الحليب ايضا" تعبيرا جاريا على لسانها . كانت تردد ذلك وهى تضحك . كان حاجباها رفيعين وعيناها صغيرتين ، فاذا ما بدأت تضحك بدت عيناها مثل هلالين . وكانت غمازتاها تضفى على ملامحها بعضا من فتنة .

ولما كان لينغ جيون يرعى الخيول كان يغيب عن البيت فى النهار . وكانت تقف فى كل يوم تحت شمس الظهيرة اللاهبة وتضع الطين فى القوالب كى تصنع الطوب . وبعد ان نقلت ملء ثلاث عربات يد من الطوب الى ثلاثة اركان من البيت ثم كدستها فوق بعض ، اقامت اخيرا سورا مثلثا . وفجأة اصبح لديها مساحة ثمانية عشر مترا مربعا من ارض مساحتها ٩٫٦٠٠٫٠٠٠ كيلومتر مربع هى مساحة الصين . وقالت : "فى موطنى . . لكل بيت اشجار حوله . اذا خرجت من باب البيت رلا تقع عينك على شىء سوى السماء فأى بيت ذاك ؟"

ثم خرجت الى الغابات واقتلعت شجرتين من الحور الابيض قطر كل واحدة مثل قطر السلطانية . سحبتهما الى البيت بقوة مروعة وزرعت واحدة على جانب من البيت والاخرى على الجانب الآخر .

ولما انتهت شيو تشى من تسوير الفناء صارت تربى حيوانات اليفة . . ربت الدجاج والبط والاوز والارانب . ولما اخذت تربى الحمام اطلق الاهالى عليها لقب " القائد العام للقوات المسلحة " .

كانت المزرعة التى عاشا فيها مثل بركة من الماء الآسن حيث لم تتعب القيادة نفسها فى تنفيذ السياسات الصحيحة ولا انجزت شيئا ايجابيا لدى تطبيق سياساتها الخاطئة . وبرغم كل الضغط الذى مورس على الاهالى لـ " قطع ذيل الرأسمالية " ، صمدت شيو تشى فى وجه ذلك مثل نبتة عنيدة يمتد ساقها الى اعلى من شق بين الواح الحجارة . وكبرت الحيوانات التى ربتها كأنها انبثقت من علبة سحرية – " سنحصل على الخبز وعلى الحليب ايضا " – ومرت سنة حدث فيها تغير كبير على حياتهما ، اذ اصبحا فى رغد من العيش برغم الأجر الزهيد الذى يتقاضيانه . كانت شيو تشى تتمتع بقدرة حقيقية لتهب ضد تيار المجتمع . ففيما هتف آخرون حول الانتقال الى الشيوعية ، كانت فى فناء بيتها تطبق اعادة الاقتصاد السلعى من الاقتصاد الطبيعى . انتجت شيو تشى كل شىء بيديها . وكانت حينما تعود الى البيت بعد العمل تلحق بها دجاجاتها وبطاتها واوزاتها وحماماتها . وكانت تحمل تشينغ تشينغ على ظهرها ، والدجاجة الكبيرة تتهادى على قدميها

والحمامات تحط على كتفيها . وظل الموقد متقدا بالحطب وسيقان الجبوب ، والماء يغلى فى القدر الحديدى . ربما لم تدرس شيو تشى " بحوث العمليات" ولكنها ادت مهماتها فى انتظام ودقة ومن غير عجلة كمثل البوديساتفا بوذا ذات الالف ذراع .

ان المرأة التى ترعرعت على البطاطا الحلوة قد جلبت اليوم الدفء الى لينغ جيون الذى لم يستمتع به من قبل . هذا الدفء جعل جذور حياته تتشبث عميقا فى ارضه ، ولم يعط هذه الجذور الحياة سوى عملهما . وقد زاد الزواج من مشاعر لينغ جيون لهذه الارض ، وجعله يفهم بوضوح اشد البساطة والنقاء والسلامة لحياة انسان يزاول العمل الجسمانى . لقد حقق السعادة والرضا اللذين ظل يبحث عنهما طوال هذه السنين .

ويوم ان اعلن نائب المدير دونغ تبرئة لينغ جيون ووقع الاوراق المطلوبة ، عاد لينغ جيون ومعه منحة خمسمئة يوان من القسم المالى طبقا للتوجيهات السياسية الجديدة . ولما حكى لشيو تشى ما حدث من الالف الى الياء ، لمع وجهها بتعابير الذهول . ولما نظفت يديها فى تنورتها اخذت تعد الاوراق المالية الجديدة ، ورقة ورقة .

ــ من الآن فصاعدا سنكون مثل الناس الآخرين يا شيو تشى !

وبينما كان لينغ جيون ينظف فى طشت الغسيل قال بصوت عال مفعم بفرح لشيو تشى التى ما زالت تعد الاوراق المالية فى المطبخ الصغير :

ــ لماذا لا تقولين شيئا يا شيو تشى ؟ هل اكل الهر لسانك ؟

وقالت شيو تشى مبتسمة :

ـ كيف ستتصرف فى كل هذا ؟ الفلوس كثيرة ! ظللت اعد واعد .. انها كثيرة !

ـ بحق السماء ! انت حقا ... اية قيمة للفلوس ؟ ان ما هو جدير بالسعادة هو ان سجلى السياسى نظيف ...

ـ سجل نظيف سياسيا .. هراء ! بقدر ما اعرف فانك ما زلت كما كنت . اعتادوا ان ينادوك باليمينى ، ثم بعد ما مضى نصف العمر يعترفون بأنهم اخطأوا . عندما اعترفوا بخطئهم قالوا لك بألا تأتى اخطاء اخرى من الآن فصاعدا ! ما هذا كله ؟ من لا يأتى اخطاء اخرى من الآن فصاعدا ؟ من الافضل ان نترك كل ذلك وشأنه ونعيش كما كنا . وما دام صار فى ايدينا فلوس يمكننا ان نستمتع ببعض الرفاهية . لا تزعجنى بهذا الشكل .. دعنى اعد هذه الفلوس مرة اخرى .

اجل .. ان هذه الزوجة التى كانت تصغره بخمسة عشر عاما ، لم تنظر اليه ابدا على انه مختلف عن الناس لأنها احتفظت دوما ببساطة وحكمة اهل الريف . ان تهمة ما اذا كان يمينيا او لم يكن حملت مفهوما لم يدخل الى مخها الصغير . عرفت انه انسان طيب وانسان امين .. وفى هذا ما يكفيها . وكانت تثير هذا الموضوع مع زميلاتها فى العمل : والد ابنتى الصغيرة حسن المسلك .. لو تلقى منكن ثلاث ركلات فلن يفعل شيئا لينقم منكن . ولو حتى الذئاب تلحقه فلن يتعجل . ولو حصل ان يظلمه انسان ، كان ذلك خطيئة حقيقية لا تمحى الى الابد .

اجل .. كانت شيو تشى مولعة بجمع المال ، اذا انفقت فلسا حاولت ان تقسمه الى نصفين .. حتى مبلغ الخمسمئة يوان الزهيد قد جعلها فى غاية الرضى اذ ارتعشت اصابعها وومضت عيناها بدموع الفرح . ولكنها لما عرفت ان والد لينغ جيون "رأسمالى اجنبى" ثرى ، لم تأت كلمة "مال" على لسانها . وكل ما فعلته انها حثت لينغ جيون ان يأخذ لأبيه قليلا من البيض المسلوق مع التوابل الخمسة . كانت تثير الموضوع وغالبا ما تنصح تشينغ تشينغ التى كانت فى السابعة من عمرها آنذاك : الوقت الوحيد لانفاق المال عندما تصارعين فى كسبه بنفسك ، وعندئذ يرتاح ضميرك . عندما اشترى ملحا اعرف اننى سأدفع ثمنه فلوسا حصلت عليها من بيع البيض ، وعندما اشترى فلفلا اعرف اننى ادفع ثمنه فلوسا مما حصلت من الحبوب ، وعندما اشترى لك الكتب اعرف اننى ادفع ثمنها فلوسا حصلت عليها من العمل الاضافى بالمزرعة ...

عملت شيو تشى من دون تعاليم اخلاقية ولا مفاهيم فلسفية راقية وما الى ذلك . ومع ذلك جعلت هذه النصائح البسيطة والواضحة من اصغر عضو بالاسرة تدرك اشياء عديدة .. العمل الجسمانى مهمة نبيلة ، ومكافأة العمل الجسمانى تهيئ للانسان الاستمتاع بالبهجة ، والثروة الناجمة من الاستغلال والاتكال على الغير عار .

لم تكن شيو تشى تعرف الغناء . وعندما بلغت تشينغ تشينغ من العمر شهرا استقل افراد العائلة الثلاثة الاوتوبيس الى مركز المحافظة حيث التقطت لهم صورة فى الاستوديو الوحيد بالمحافظة . وكان باعة الجيلاتى المتجولون يطوفون بالشوارع يصيحون على

سلعتهم : الجيلاتى ! وفيما بعد صارت " الجيلاتى" تهويدة الاطفال الوحيدة تجرى على لسانها . كانت تحضن تشينغ تشينغ وتردد الكلمة قريبة بقدر ما تستطيع من لهجة اهل الشمال الغربى . وكان صوت غنائها رتيبا ولكن عذبا . . ليس فقط يغرى الصغيرة بالنوم وانما كان يجعل لينغ جيون الذى كان يتوقف عن القراءة يحس باحساس انسان بسيط فى مرحلة بدائية . فى اوقات كهذه كان يدخل منطقة تبدو ذات جمال صاف .

كان ايضا باعة الجيلاتى فى شارع وانغفوجينغ ببكين ، ولكنهم لم يكونوا ينادون على سلعتهم . كانوا فقط يجلسون فى متاجرهم صامتين بوجوههم الخالية من اى تعبير . ما اسخف المقارنة ! افتقد لينغ جيون اغنية الطفل العذبة كما الحلم كما افتقد البسمة المتفائلة ذات الغمازة — سنحصل على الخبز وعلى الحليب ايضا .

كلا . . لن يستطيع البقاء هنا فى المدينة . اراد ان يعود فورا . ان الناس الذين ساعدوه فى وقت الشدة هم هناك ، وهم الآن ينتظرون منه المساعدة . ان الارض التى رواها بعرقه هى هناك ، وفى هذه اللحظة كان عرقه يومض ويتلألأ على الحقول المحصودة هناك . ان الزوجة التى ساعدته على ان يجتاز اختبار الظروف هى هناك وكذلك ابنته . كل شىء له هناك . جذور حياته هناك .

٥

عاد لينغ جيون فى آخر الامر . وصل اخيرا الى مركز المحافظة الصغيرة التى يعرفها خير المعرفة . وامام محطة الاوتوبيس الطريق المسفلت الوحيد الذى تغطيه طبقة رقيقة من الغبار الاصفر . ولما هبت الريح ثار الغبار حول مداخل محلات البيع بالقطاعى والبنك ومكتب البريد . وآلات تزغيب القطن على الجانب الآخر من الطريق ما زالت تعمل فى تساوق كأنما لم تقف منذ توجهه الى المدينة . والفلاحون الذين يبيعون الارز الغروى المخمر والكعك وبزور البطيخ ما زالوا متجمعين امام مدخل محطة الاوتوبيس . وعلى جانبى الطريق المتعرج من الشرق الى الغرب ، مساكن بعضها عتيق الطراز ، منقوشة عتبات ابوابها ، والمسرح الحديث البناء ما زالت ترتفع فوقه السقالات ، وجماعات كبيرة من العمال فى كل الاركان .

وشعر طوال بعد الظهر كأنما كان متدليا من مظلة تسبح على الارض وحطت قدماه مرة اخرى على ارض صلبة . لقد احب كل ما فى هذا المكان مهما شابه من شىء . . تماما كما احب حياته بما فى ذلك معاناة الماضى .

وعند الغسق . . مرت العربة التى اقلته بفيلق الانتاج الذى كان يعيش فيه . وكانت اشعة الشمس الغاربة ما زالت متحدرة من الجبال الغربية ، وكانت القرى وكذلك اهاليها تلفهم طبقات من الضباب الوردية الالوان . وكل ما استطاع ان يميزه فى بيته من بعد شجرتا الحور اللتان غرستهما شيو تشى ، واللتان ارتفعتا الآن عن سطح

البيت . . كانتا ساكنتين اذ لم تبد منهما ادنى اهتزازة كأنما كانتا تنظران اليه فى اهتمام شديد .

كانت الدواجن عائدة للبيات الليلى ، وبدا انهن عرفن لينغ جيون فانتشرن على جانبى الطريق ووقفن بلا حراك ينظرن اليه مفتحات الاعين . ولم يبدأن فى انزال رؤوسهن والعودة الى اقنانهن الا بعد ان ابتعدت العربة . وسرى تيار من الدفء غمر قلب لينغ جيون . تذكر الحديث الذى جرى مع ابيه عشية مغادرته له . فى تلك الليلة ، جلس الاب والابن وجها لوجه على اريكة . كان ابوه يرتدى بيجاما من حرير وكان مقوس الظهر وبدا وجهه مكتنزا بتعابير الأسى وهو ينفث فى الغليون .

قال له ابوه :

ـــ هل ستعود قريبا ؟

ـــ اجل . . فالمدرسة تستعد لامتحانات نصف السنة .

صمت ابوه لفترة قبل ان يواصل الكلام :

ـــ انه ليسعدنى ان اعود وأراك .

حاول ان يحتفظ بالهدوء الا ان شفته السفلى ارتعشت قليلا . ثم استطرد يقول :

ـــ لقد اكتشفت كم انت ناضج . ربما كان سبب ذلك يعود الى ما فى قلبك من ايمان راسخ . ولديك قوة اشد لذلك . ان الايمان هو بالضبط ما يبحث عنه الناس . وللامانة اقول بأننى اديت نصيبى من البحث فى الماضى ، ولكن لم يهدنى البحث الى نتيجة . . .

وعند هذه النقطة من الكلام انزل ذراعه فى اشارة الى انه تعب . ولما واصل الحديث عرج على موضوع آخر :

ـ عندما كنت فى باريس السنة الماضية قرأت مختارات من قصص موباسان مترجمة الى الانكليزية . هناك قصة تدور حول اجتماع الشمل بين عضو بالبرلمان والابن الذى رزق به فى ايام شبابه . لقد تحول الابن فيما بعد الى انسان ابله . وبعد ذلك ، خيل الى دائما اننى اراك واقفا امامى فى حالة متعبة . وها قد رأيتك فعليا فسأتوقف عن القلق . حقا .. انك قد اذهلتنى .. كأنك اصبحت .. كأنك اصبحت ...

لم يحدد الاب شيئا فى كلامه عما آل اليه لينغ جيون . ولكن الابن لمح نظرة عزاء فى عينى ابيه . احس بأن الاب والابن على حد سواء راضيان بجمع الشمل والفراق بينهما . لقد حصل كل منهما على ما يبتغيه . لقد خف التعب الذى ألم بضمير أبيه . اما لينغ جيون فقد استعرض نصف حياته فى لحظة حرجة من اتخاذ القرار واستخلص درسا عظيم الاهمية حول الحياة بشكل عام .

اختفت الشمس وراء الجبال الغربية . وومضت شعاعات الشمس المتبقية فى لون مصفر خافت على السحب العديدة الالوان فوق الجبال . وعكست السحب بدورها اضاءة منتشرة على المرج تحت اقدام الجبال والقرى ترقم البرارى حيث اسود لون النور فى الاخير فى ظلال نور الشفق الرقيق . ولما اقترب لينغ جيون اكثر فأكثر من المدرسة لمح الفناء من مسافة ليست قريبة . بدا كمثل بحيرة صافية فى وسط ايكة من الاشجار القرنفلية الازهار يكسوها

نور اصفر . تدفقت هذه العواطف الرقيقة فى نسيم المساء لتشكل تيارا دافئا سرى فى كل بدنه .

احس بأن أباه عندما ذكر كلمة الايمان لم يفهم حالته الروحية الراهنة . ان المعرفة العقلانية وحدها من غير اساس للادراك الحسى ليست الا شيئا اجوف . ففى مجالات معينة وفى اوقات محددة ، ان المشاعر اهم بكثير من المفاهيم العقلانية . وان اثمن شيء حصله فى هذه السنوات العشرين من تجارب الحياة كان احساسه حيال العمل الجسمانى . ولما وصلت افكاره الى هذه النقطة ، ساحت الدموع من عينيه . لقد تأثر بهذه الصورة لنفسه : لم يعمل بجد ومشقة طوال العشرين سنة عبثا .

ووصل الى المدرسة اخيرا . فى تلك اللحظة كان قلة من الناس واقفين خارج بابه الامامى وينظرون الى العربة الجارية على الطريق . كانت شيو تشى ترتدى تنورة قطنية بيضاء ظهرت فى ظلال الشفق الغامق كمثل نقطة فى ضوء نجم ساطع وصاف . وتجمع المزيد من الناس هنالك الى ان عرفوه فى الاخير ، وعندئذ جرى الجميع على الطريق لاستقباله . وكان امام الناس ابنته الصغيرة فى فستان احمر بدت مثل جمرة تنطلق نحوه . كانت تقترب .. وتقترب .. وتقترب ...

كلمة عن المؤلف



تشانغ شيان ليانغ من مواليد نانجينغ فى عام ١٩٣٦ . بدأ حياته مدرسا فى مدرسة الكوادر بمقاطعة قانسو بعد تخرجه فى المدرسة الثانوية ببكين عام ١٩٥٥ . فى عام ١٩٥٨ . . ارسل الى مزرعة فى نينغشيا حيث زاول العمل الجسمانى . وفى عام ١٩٧٩ ، عمل محررا فى مجلة « شوفانغ » . وفى السنة التالية ، انضم الى اتحاد الكتاب الصينيين ، وانتخب عضو مجلس الادارة لاتحاد كتاب نينغشيا .

فى الخمسينات . . نظم اكثر من ستين مقطوعة شعرية بعدها ظل لفترة طويلة من غير انتاج . ومنذ العام ١٩٧٩ . . نشر رواية قصيرة تحت عنوان « همسات الحب فى زنزانة » ، اعقبها نشر عشر قصص قصيرة احداها بعنوان « حكاية العجوز شينغ وكلبه » .

وكانت قصة « الجسد والروح » هى الاساس لفيلم « راعى الخيول » .

صاحبة الكلمة الاخيرة فى الاسرة

وانغ رون تسى

١

سوه تشنغ يحمل على كاهله مسيرة ستين عاما قضاها مخلوع الفؤاد ، مفرطا فى الحساسية . وكانت زوجته ، لى تشيو لان ، صاحبة الكلمة الاخيرة فى الاسرة . ولما كانت ربة البيت فقد دخل اسمها السجل العائلى بدلا منه واستخدم ختمها لما كانوا يتلقون من حبوب واموال من فيلق الانتاج . عندما كان يعود سوه تشنغ من الحقل بعد العمل ، كان يتناول العشاء ويمسح فمه ثم يفتح المذياع . كانت تشده نشرات الاخبار والبرامج الخاصة الموجهة للمزارعين ، ولم يكن لديه ميل للاغانى ولا للاوبرات . وكان يقول ان البرامج التى يتتبعها قد فتحت عينيه ووسعت من رؤيته . كان هذا ما يفعله فى كل يوم ، ويترك لزوجته كافة الاعمال المنزلية ، كبيرة او صغيرة ، مثل اعمال الطهو وتربية الدجاج .

خلال السنوات الاخيرة تولد ميل الى حفر البئر بين المزارعين

فى كل حدب وصوب ، فأخذوا يحفرون الآبار الارتوازية التى كانت تزودهم بالمياه قريبا من ديارهم . وعديدة هى العائلات فى قرية سوه تشنغ التى حفرت هذه الآبار . ولما سؤل سوه تشنغ عن رأيه قال :

— يلزم ان استشير زوجتى .

وكان جواب الزوجة :

— سنحفر بئرا واحدة . ما يفعله الآخرون يمكننا ان نفعله ايضا . نحن مثلهم تماما فى سلامة الرأس والاطراف .

فقال لجيرانه بكل الثقة :

— سنفعل ولا ريب ! اذا كنتم قادرين على ذلك فنحن كذلك .

واطرى سوه تشنغ باعجاب بالغ فى قلبه على زوجته ، لأنها حقا امرأة قديرة . كانت لها قدمان كبيرتان ، وكان شعرها معقودا على شكل كعكة وراء رأسها . كانت تصغر زوجها بعشر سنين ، وكانت ذربة اللسان ، بارعة اليدين . لذلك ، كانت تتدخل فى كل كبيرة وصغيرة داخل البيت وخارجه . . تعد الملابس المناسبة قبل ان يتغير المناخ مع تبدل الفصول ، وتسقف البيت بالقش ، وتعد الزريبة للخنازير الصغيرة . . . كانت تتولى الاهتمام بكل شىء ، حتى فى التفاصيل الدقيقة . ومع كر السنين ، ازدادت مهارة فى معالجة الحسابات لا تهمل حتى ولو فى فلس واحد ، ومع ذلك كانت تسخو بأكثر من اى رجل اذا ما دعت الضرورة .

وفى الليلة التى سبقت حفر البئر . . نحى سوه تشنغ عيدان الطعام وطبق الارز ، وجلس متصالب الساقين واشعل غليونه وادار

المذياع . كان فى البداية يصغى مستمتعا بكل شىء .. وفجأة اغلق المذياع .

كانت تشيو لان مستمتعة هى الاخرى بالبرنامج ، فيما كانت تغسل الاطباق فى الغرفة الخارجية . ومدت يدها التى ما زالت مبتلة وشدت الخيط المتدلى من الجدار فى الغرفة الداخلية لتفتح المذياع مرة اخرى . واخذت تلقى السمع وهى تواصل الغسيل .

ظهر الضيق على سوه تشنغ وراح يدخن فى غليونه . وبعد ان نفض الرماد لثالث مرة اقفل المذياع ثانية . كانت تشيو لان قد حل بها الانفعال ، فأسرعت الى الداخل وصاحت وهى تمسح يديها بوزرتها :

— الحق .. قد بلغ الامر اشده ! اذا كنت لا تحب ان تسمع فانى احب .

وتمتم يقول :

— اصابنى صداع . اريد ان انام .

وتبدد غضب تشيو لان على الفور وتقدمت اليه تتحسس جبينه .

— لا توجد حرارة . هل تشعر بمرض ؟

وتمتم :

— أ .. أ .. أ ..

— سأعد لك حساء الحمص — لست مسؤولا على اى شىء ، ولا تبالى بأى شىء ، وكيف مرضت !

وان هى الا برهة حتى احضرت له الحساء اضافت اليه ملعقتين

من السكر . وشرب سوه تشنغ سلطانيتين كبيرتين من الحساء . فتصبب العرق على جسده . بقى راقدا فى الفراش ولكنه ظل يتقلب دون ان يطرف له جفن . ومن آن لآخر كان يترك الفراش ليدخن ، وينفض الرماد على عتبة الشباك . وعند الفجر ايقظ زوجته ، اذ لم يعد يحتمل ما هو فيه .

وسألته وهى تفرك عينيها :

— ألا تشعر بتحسن ؟

— اريد ان احدثك فى موضوع .

— تفضل !

ورمقها بنظرة ثم اخفض رأسه . وغرس الغليون فى كيس التبغ ولكنه لم يقدر ان يملأه لبرهة . ونهضت تشيو لان وقد نفد صبرها وسألته وهى ترتدى ملابسها :

— هل فقدت لسانك ؟

فاستجمع قواه وانفجر قائلا :

— لا تحفرى البئر .

— ولم لا ؟

— ألم تسمعى ما قالوا فى المذياع ؟

— ماذا قالوا ؟

— انت تعرفين كما اعرف .

ونحت تشيو لان لحافها وقامت من الفراش وقالت :

— اذن . . ابق ما تعرفه لنفسك .

وشد ذراعها وقال :

ـ لا تغضبى . على كل حال .. سأخبرك .
ـ قل ما عندك ! ليس لدى وقت اضيعه .
واقترب منها وقال هامسا :
ـ ملاك الارض والفلاحون الاثرياء فى هاوشان لم يعودوا فى فئة التصنيف ، فقد ازيل الوسم الطبقى عنهم ، حتى تشاو باى وان الذى قضى ثمانى سنين بين جدران السجن .
ـ اعرف ذلك .
ـ واتاهم الحظ الآن . انهم على قدم المساواة معنا نحن الفلاحين الفقراء والمستأجرين سابقا .
ـ هذا صحيح .
واخذت تشيو لان تقضم شفتيها .
واشعل سوه تشنغ غليونه وصار ينفث فى الدخان .
ـ لذلك .. لن نحفر بئرا . ربما كان ذلك مضيعة للعمل .
ـ لماذا ؟
ـ انت امرأة عقلك متحجر . سأكون واضحا واميناً معك . بيتنا هذا كان ملكا لملاك الارض ليو جين قوى . سمعت ان ابنه ثرى ويملك فندقا فى اليابان ، واهدى لحكومة محافظتنا سيارة وجهاز تلفزيون عدا اشياء اخرى . وحتى لو مات ليو جين قوى ، فسيطالب اولاده واحفاده ببيتنا هذا . سنفقده فى يوم ما . ما عليك الا ان تنتظرى وسوف ترين .
ـ انت خيالى .
ـ انا خيالى ؟ ليس كذلك . ألا تعرفين ان سياسة حكومتنا

تتغير طوال الوقت . ينبغى ألا تكونى شديدة الثقة بنفسك .
وطأطأت تشيو لان رأسها ولم تجد شيئا تقوله .
ـــ كنت دائما اجعل لك القول الفيصل فى شؤون عائلتنا .
وعليك فى هذه المرة ان تستمعى لى . لن تخسرى شيئا فى ذلك .
واخذت تشيو لان تضحك بملء شدقيها .
فتلبست الحيرة بتلابيب سوه تشنغ وقال :
ـــ ما هذه السخافة ؟
وظلت تشيو لان تضحك وتخبط زوجها بقبضتيها . واسرع هو يكم فمها بيده وقال :
ـــ لا تكون سخيفة ! للحيطان آذان . هل تريدين ان توقظى جيراننا ؟
ورمقته تشيو لان بنظراتها مرة اخرى . وقالت :
ـــ ابله ! لقد ضاع الحساء بسببك . لا اعتقد ان الشمس ستشرق من الغرب ولا اعتقد ان الحزب الشيوعى سيؤدى بنا الى المآسى . توقف عن احلامك فى المشاكل ونم .
كان النهار قد طلع لما نهضت تشيو لان . ونادت على من فى الغرفة المقابلة :
ـــ ألا تريد ان تنهض يا شين هواى ؟ الشمس قد اغرقتك بنورها !
ودخل ابنها الاصغر ، شين هواى ، الذى لم يتزوج بعد ، وهو يزرر ملابسه .
ـــ هل تريديننى يا امى ؟

ناولته بعض الفلوس وقالت :

ـ اذهب واشتر مفرقعات نارية .

فقال سوه تشنغ :

ـ ما المناسبة ؟ نحن لا نبنى بيتا !

وصاحت الزوجة :

ـ انا اريد ان اسمع الفرقعة لا غير .

كان من عادة الفلاحين ان يفرقعوا الالعاب النارية عندما يشرعون فى بناء بيت . لم يفعل احد ذلك عند حفر بئر . ولكن تشيو لان اصرت على ذلك . وقالت لابنها بأن يقف فى وسط الفناء حاملا عصا يتدلى منه خيط طويل من المفرقعات النارية . ثم طلبت من زوجها ان يشعل فيها النار . واشعل سوه تشنغ البائس عدة عيدان من الكبريت ولكنه لم يفلح فى اشعالها . فشدت تشيو لان منه علبة الكبريت واشعلت المفرقعات . وتقاطر جمهور غفير على صوت المفرقعات ، فيما ركض الاطفال هنا وهناك يلتقطون المفرقعات التى لم تنفجر . وسرى الدخان من قصاصات الورق ، فكان مشهدا يبهر الانظار !

صاحت تشيو لان :

ـ ارفع العصا لأعلى يا شين هواى .

واخذ المارة يتهامسون ويستعجبون من ربة بيت مدبرة مثل تشيو لان وهى تبدد المال بلا هدف . ولما تفجرت آخر مفرقعات ناولت زوجها مجرفة وقالت بصوت عال :

ـ ابدأ الحفر يا ابا شين هواى !

وعلى كل حال . . شرع سوه تشنغ يحفر بنشاط دون ان يعى السبب .

٢

عندما حفرت البئر الى عمق عشرين قدما واجههم الصخر . ولما لم تظهر اية اشارة على ظهور الماء ، اراد سوه تشنغ ان يملأ الحفرة . غير ان تشيو لان لم تلق سمعا اليه اذ قالت انه ما دام موقع البئر على نفس خط بئر جارهم فلسوف يصلون الى الماء ان عاجلا ام آجلا . ربما كان الماء تحت الصخر الذى استدعت له حجارا لنسفه .

وفيما تجهزت المتفجرات ، جاء نداء من مكبر الصوت يدعو تشيو لان ان تذهب الى محاسب الفيلق لمعالجة مسألة هامة . وفيما كانت منشغلة بلصق الشرائط الورقية على زجاج النوافذ لتجنب انكساره من فرقعة الديناميت نادت على زوجها تقول :

ــ اذهب وانظر ما فى الامر .

ورد عليها وهو يفرك يديه محتارا :

ــ ولكنهم يريدونك انت !

ــ يا لسخافة عقلك ! ألا تستطيع حتى ان تنقل رسالة شفوية ؟

وعاد سوه تشنغ بعد فترة وسحب زوجته الى الغرفة الداخلية وقال :

ـ يا ام شين هواى ، ليو .. ليو .. جين قوى قد عاد !
كان متوتر الاعصاب لدرجة ان كان ينطق الكلمات بصعوبة .
واستندت تشيو لان الى الباب والدهشة قد اخذت بها .

ـ يقيم فى دار ضيافة المحافظة . قال انه جاء ليرى بيته القديم غدا . يمكنك ان تخمنى ما يدور فى عقله ...

وعقد لسان تشيو لان .

ـ ما العمل ؟ شخص قد جاء من المحافظة . بدا مثل مسؤول هام ، كما تكلم مثل مسؤول ايضا . الآن كان يتكلم مع امين الحزب فى مكتب المحاسبة . قال انه سيأتى الى هنا فى لحظات .

ـ لماذا ؟

ـ ليرى بيتنا . وقال انهم سيحتفون بليو جين قوى . توجد شاحنة خارج المكتب ، تحمل الكراسى الفارهة والسجاجيد وسررا خشبية ـ اثاث مثير للاعجاب بأكثر مما كان لدى ليو جين قوى من قبل .

وفكرت تشيو لان للحظة ثم قالت :

ـ أ انت خائف ؟

وبصق سوه تشنغ وقال :

ـ من هو ليو جين قوى ؟ هه ! لم اخف منه عندما ادناه فى الاجتماعات الجماهيرية ايام الاصلاح الزراعى ، فلماذا اخاف منه الآن ؟ ما اخشاه هو اننا ربما لا نتلقى اى مساندة فى الصراع معه هذه المرة . كانت نغمة المسؤول كما لو ان ليو امبراطور وانا مجرد ريفى ساذج .

ـ لا تتحدث معى عن ذلك المشهد الهزيل ! اترك كل شيء لى . فقط اذهب وقل للحجار ان يشعل المتفجر .

ولما رأته مترددا قالت :

ـ هذا بيتنا وفناؤنا . يمكننا ان نفعل ما نشاء به . فلماذا نخاف ؟

ونظر سوه تشنغ من الباب فلمح اناسا يدخلون الى الفناء ! فشدها من كمها وقال :

ـ ها هم جاءوا . المنسؤول فى المقدمة .

واخذت تشيو لان تزيل خصلة من شعر تدلت على حاجبيها وخرجت من الغرفة فى مشية الواثقة من نفسها ، واستندت الى الباب وفتحت عينيها لتفهم من يكون الزوار .

كان المتقدم سون ، مدير المكتب الادارى لحكومة المحافظة الذى ما ان دخل الى الفناء القى حوله نظرة مثل مفتش شديد المراس وقال :

ـ ما اقذر هذا المكان ! ما الفائدة من حفر بئر الآن ؟ ليس منه فائدة .

ومشى فى حذر الى حافة البئر وجعل يديم النظر . ثم التفت وسأل امين الحزب العجوز :

ـ هل يمكنهم ان ينتهوا منه غدا ؟

ـ لا اظن ذلك . سيحتاجون الى اربعة ايام اخرى .

واخذ سون يفكر للحظات وقال بلهجة حاسمة :

ـ اذن . . فلتردم البئر . مكان بائس كهذا لا يليق بأن

يراه ضيفنا المبجل . لا احد فى بلد آخر يحفر آبارا بمثل هذه الطريقة البدائية . انه تصغير لنا نحن الصينيين اذا ما رأوه .

ـ قد بذلوا جهدا شاقا .

ولكن سون اصر على رأيه وقال :

ـ اردموه . المصالح الكلية يجب ان تأتى قبل المصالح الجزئية . والآن ، لنلق نظرة على البيت .

وبينما يتقدم لدخول البيت لمح فجأة امرأة عابسة تسد عليه الطريق ، وكل يد من يديها تشد بطرف من الباب . كانت عيناها مسددتين اليه دون ان يتحرك لها حاجب .

ذهل سون . وقدمهما امين الحزب الى بعض . وبعد هذه المراسم ابتسم سون وقال :

ـ انت الرفيقة لى تشيو لان ، قد سمعت الكثير عنك .

ومد اليها يده فى ادب .

ولكنها تجاهلته وابت ان تتزحزح ، وظل وجهها جامدا بلا حراك .

ـ من تريد ان ترى ؟ ألا تعرف ان لهذا البيت صاحبا ؟

دهش سون فاغرا فاه بينما كان سوه تشنغ يشدها من كمها ، فأبعدت يديه وقالت وهى تنظر الى وجه سون :

ـ لو كنت تعرف ان لهذا البيت صاحبا وجب عليك ان تقدم نفسك اولا . لم ار فى حياتى انسانا متطفلا يدس انفه فى شؤون الآخرين فى بيتهم ! انى اسألك : من صاحب هذا البيت ؟

وكسا الحياء وجه سون . وغلى دمه ولكنه جعل يفكر كمسؤول

له شأن انه ستقل كرامته اذا ما تناقش مع امرأة ريفية جاهلة .

وقال امين الحزب العجوز :

ــ المدير سون جاء فى مهمة يا تشيو لان . حاولى ان تفهمى .

ــ انا انسانة صريحة . فيما يتعلق بالعمل ، فقد تعاونت مع المسؤولين منذ حركة الاصلاح الزراعى . حينما شعر الناس ان زيارة بيتى لم تكن صعبة مثل زيارة آل ليو فى تلك الايام ، كانوا يترددون على بيتى . لم اضع كلاب حراسة ابدا . يمكن لليو جين قوى ان يزورنا الآن ، ولكننى لن استقبله كخادمة له ! اننى اعامل الناس مثل بعض ، المسؤول مثل غير المسؤول . منذ يومين ، عندما جاء تشانغ ــ امين الحزب بالمحافظة ، كنس فناءنا ما ان وطئته قدماه . ولكن المدير سون يرى انه شديد القذارة . هذا ليس بيت انسان اعزب . كيف يمكن لبيتنا ان ينجو من روث الدجاج والقراميد وحجارة الآجر المكسورة ؟ لماذا يجب ان نردم البئر ؟ أبسبب ليو فقط ؟ ان كنت تظن ان بيتى لا يليق بمقامه فلتأخذه الى البيوت الغربية الطراز فى مركز المحافظة . يمكنك ان تحتفى به هنالك كضيف مبجل . ولو انك احضرته الى هنا فلا بد له من ان يحترمنى كسيدة لهذا البيت . هذا كل ما فى الامر .

كان امين الحزب يصغى اليها بانتباه تام فيما اختفى سوه تشنغ فى الغرفة الداخلية .

وثار الغيظ فى نفس سون ولكنه كبح جماح نفسه . وقال مفتعلا ابتسامة :

ـ اننى اقدر مشاعرك يا رفيقة تشيو لان . ولكن وجب ألا تتشبثى بعقليتك الريفية البالية . السيد ليو جين قوى مغترب صينى وطنى الآن . فى سبيل تحديث بلادنا . . .

وقاطعته تشيو لان بقولها :

ـ انك تفهم الامور اكثر منى : قل لى فقط ما تريد منى ان اعمله .

وحدث ضجيج وعجيج حين انزل الناس الاثاث من الشاحنة ووضعوه فى الفناء . وقال سون مشيرا الى السرر والكراسى :

ـ هل يتناسب بيتك وهذا الذى يبين كم هى حياة السيد ليو رائعة فى قرانا الاشتراكية .

وتفحصت تشيو لان الاثاث الفاخر .

ـ اذن . . ما رأيك فيه ؟

وتساءلت تشيو لان بابتسامة خالية من المعنى :

ـ أتعنى ان هذا الاثاث سيكون ملكا لى ؟ حسن ! سأبقيه لابنى شين هواى حين يتزوج .

فهز سون رأسه بشدة وقال :

ـ لا . . ليس كذلك .

ضحكت تشيو لان ومرة اخرى تمدد وجهها وقالت وهى تهز يدها :

ـ اذن لماذا احضرتموه الى هنا ؟ هل هو للعرض ؟ لا حاجة بى اليه . ابعدوا هذا الاثاث ! لا اريده . فناء بيتنا شديد القذارة . بيتى ليس معرضا .

ـ تشيو لان !

ونمت من صوت امين الحزب نغمة قاسية .

ودق سون قدمه بالارض من الغضب .

ـ اتركوه هنا . لا بد من ردم البئر الآن !

ـ الآن ؟ أتحاول ان تهينني فى بيتى ؟

وهرعت تشيو لان الى حافة البئر وصاحت بالحجار :

ـ أشعل المتفجر !

وجاء الجواب من البئر :

ـ او . . كى .

واخذت الدهشة بقلوب المتفرجين .

وتقدم سوه تشنغ يتوسل الى زوجته :

ـ لا تركبى رأسك . اتركيهم يفعلوا ما راق لهم .

ودفعته جانبا وقالت له :

ـ انت لست رشيق الحركة كما كنت . ابتعد عن البئر الآن .

ثم تسلقت الى البئر من زريبة الخنازير ، ووضعت كفيها على فمها على شكل بوق وصرخت بصوت مدو :

ـ اننا نشعل المتفجر . يا جيراننا : افتحوا نوافذ بيوتكم كى لا ينكسر الزجاج .

وتردد الصوت فى الحقول : " نشعل المتفجر ! "

واصفر وجه المدير سون من الغضب ، وصاح بمن جاء معه من الرجال :

ـــ ابعدوا الاثاث ! هيا بسرعة !

وغادر امين الحزب العجوز قرير النفس فى سره .

وانفجر صوت مكبوت ، واهتزت الارض . وجرى اندفاع ناحية موقع البئر . ووقفت تشيو لان تحت شجرة والدموع تسيح من عينيها مغطية وجهها .

٣

كان قد سقط ثلج غزير منذ سنوات عديدة قبل كل هذا .

ومع الغسق ، ظهرت عربة تقطع الطريق والاجراس تجلجل على رقبة الحصان . وكان السائق الشاب فى اسمال بالية يرتعد فى مقعده ، والسوط فى يده .

وفجأة . . وقفت العربة ، ونزل منها السائق ولوح بسوطه على شيء يغطيه الثلج فى وسط الطريق . ثم قرفص وازاح الثلج بيده فرأى فتاة متسولة متجمدة من البرد وعلى ذراعها سلة فارغة .

ونادى صوت من العربة :

ـــ هيا تحرك .

وقام السائق وبين يديه الفتاة الصغيرة ونادى فى احترام :

ـــ سيدى . . .

وانفرجت ستارة العربة لتكشف عن عينين طارفتين نصف مفتوحتين . وجاء صوت ليو جين قوى آمرا :

ـــ ارمها ارضا .

وتوسل اليه الشاب :

— ارجوك ان تنقذها يا سيدى . ربما كتبت لها الحياة .

— هل تشترى لها تابوتا اذا ماتت ؟

وعاد الشاب يتوسل وعيناه بحر من الدموع .

وصاح ليو :

— اى سوء حظ يحدث قبل عيد الربيع . القها بعيدا !

واعاد الشاب ، كازا على اسنانه ، الى الارض ودثرها فى حرص بمعطفه القطنى . وهوى بسوطه على الحصان ، واسرعت العربة على الارض المفروشة بالثلج . وكان الظلام قد حل لما وصلوا الى القرية . واسرع الشاب عائدا ، بعد ان ربط الحصان فى عمود ، الى نفس المكان الذى ترك فيه الفتاة وحملها الى كوخه . لم يكن لديه نار فضمها بين ذراعيه طوال الليل ليدفئها . وفى الفجر ، فتحت عينيها . . .

وعاد الشاب فرحا الى سيده وقال وعيناه تتلألآن بدموع الفرح :

— انها على قيد الحياة ! انها على قيد الحياة !

وتوسل الى ليو ان يبقيها ، عارضا عليه ان يعمل فى خدمته بلا مقابل طوال السنة .

كانت تشيو لان — كان هذا هو اسم الفتاة الصغيرة — فى العاشرة من عمرها قصيرة القامة نحيلة البدن ، واضطرت ان تنهمك طوال اليوم فى اعمال شاقة . . جرش القمح وطحن الدقيق وغسل الملابس وتنظيف الخضروات . . . كان ليو متسلطا عليها ، حتى كلبه كان ينبح عليها مسعورا . وامضت حياتها فى توتر مستعر .

ولم تكن لتجد الدفء الا حين تعود الى الكوخ حيث السائق الشاب ، سوه تشنغ ، الذى كان بمثابة اخ اكبر لها . لقد ربط القدر بينهما .

ومضت سبع سنين ، وكبرت تشيو لان .

وفى يوم ، جاءت تقول لسوه تشنغ :

ــ انت قاربت الثلاثين سنة يا اخ سوه تشنغ . لماذا لا تتزوج ؟

ورد عليها بأمانة :

ــ لا واحدة ترغب فى الزواج من اجير فقير مثلى .

ــ هل تحبنى ؟

ودهش سوه تشنغ .

ــ تزوجنى ان كنت لا تكرهنى .

وقال لها :

ــ لا . . لا !

ولمعت عيناه وهى تواصل الكلام :

ــ تزوجنى يا اخ سوه تشنغ . لنغادر هنا ونبن بيتا لنا . سأكرس حياتى لك .

واوقفها وقلبه شديد الخفقان :

ــ لا تكثرى من الكلام . السيد سيسمعنا .

ــ وماذا فى هذا ؟ عندى ما يزيد عن حاجتنا هنا . اننى سأخرج اتسول .

وخرج وهو يتنهد .

وذات يوم سأله ليو :

— هل تريد ان تتزوج تشيو لان يا سوه تشنغ ؟

— لا . . لا !

وضحك ليو.

وفي مساء يوم ، عاد سوه تشنغ بعد ان ادى مهمة فسمع تشيو لان تبكي في الكوخ . فدخل ورأى رجلا اصلع يشدها ، وكان ليو يدفعها وفي يده غليون ماء . كانت تشيو لان ترفض ان تتحرك ويداها متشبثتان باطار الباب . ولما رأت سوه تشنغ ، خلصت نفسها وطارت الى ذراعيه باكية :

— انقذني يا اخي سوه تشنغ !

وامسك بها سوه تشنغ رامقا ليو بنظرة شذراء .

ونفخ ليو في غليونه وقال :

— انك جئت في الوقت المناسب . ودع اختك . عما قريب ستتزوج في اسرة طيبة وستسعد بحياتها هناك . هذا هو السيد لي .

وبكت تشيو لان وقالت :

— لقد باعني .

وقع كلامها على سوه تشنغ كأنما نزلت صاعقة من السماء :

— سيدي . . انك . . .

لم يقدر سوه تشنغ ان يواصل الكلام .

وواصل ليو ينفث في غليونه مطأطئ الرأس .

ونظر الاصلع الى سوه تشنغ في شك وريبة ثم سأل تشيو لان في ضراوة :

— من هو ؟

واجابه ليو :

ــ انه اخوها .

ولم تقل تشيو لان شيئا ، وانما جعلت تقضم شفتيها .

ومد السيد لى يده وامسك بذقن تشيو لان وقال :

ــ هل نمت معه ؟ تكلمى !

ودفعت تشيو لان يده وردت عليه بأعلى صوتها :

ــ اجل ! لقد نمت معه لمدة سبع سنين . اننى ملك يديه منذ امد بعيد .

وصعق ليو جين قوى .

اما سوه تشنغ فاكتسى خجلا وتمتم يقول :

ــ انت . . انت . . .

ودفنت تشيو لان رأسها بين ذراعيه تبكى فى حرقة ومرارة . وانفجر سوه تشنغ هو الآخر فى البكاء .

وضحك السيد لى فى برود وقال :

ــ أتريد يا سيد ليو ان تلصق هذه العاهرة بى وتطلب فيها ثمنا غاليا ؟

واخرج العقد من جيبه ومزقه اربا اربا وانصرف راجعا .

حاول ليو ان يوقفه ولكنه اسرع الخطوات دون ان يلقى نظرة وراءه . واربد وجه ليو واشتد غضبه وشد تشيو لان من شعرها وانهال على جبينها بغليونه .

* * *

اختفى الدخان من الفناء .

ورفعت تشيو لان يدها من غير وعى لتلمس ندبة خلفها على جبينها غايون ليو جين قوى . ما زالت تبدو كأنها تؤلم . ربما نسى ليو ما ارتكبه فى حق تشيو لان من مساوئ ولكنها . . .

ومدت بصرها عند بوابة بيتها الى القوس القرميدى فوق المدخل . لقد امضت معظم الوقت من حياتها هنا . . خادمة فى الايام التى ولت ، وسيدة فى الوقت الراهن . كانت ترتع فى احضان الفقر . اما الآن فتدثرها السعادة برغم انها ما زالت بعيدة عن الثراء . يوم ان خرجت من دار ليو والدم ينزف من جبينها ، ساعدها زملاؤها الفقراء من اهل القرية فى اقامة كوخ صغير ، تزوجت فيه من سوه تشنغ . وفى اليوم التالى ، وفيما غادرها ليؤدى اعمالا مختلفة خرجت هى تتسول . كانت سعيدة ان كان لها بيت . ولما تحررت القرية فى سنة ١٩٤٧ ، صفى القرويون حساباتهم القديمة مع ليو . ونقل رئيس جمعية الفلاحين ، وهو امين الحزب العجوز اليوم ، سوه تشنغ وتشيو لان الى بيت ليو . وقال موجها الكلام الى سوه تشنغ : هذا البيت ، من الآن فصاعدا ، ملك لكما . لقد كسبتماه ببذل العرق والدم . انه لكما ولأبنائكما واحفادكما .

والقت تشيو لان بنفسها على البوابة السوداء تتهدهد من البكاء . لم يكن فى حسبانها منذ ذلك اليوم ان يمكن حرمانهما من البيت حتى حينما بدا الوضع مهددا بالخطر . فى سنة ١٩٤٨ ، اعاد الفلاحون الجبناء الى ليو كل ما حصلوا عليه فى ايام الاصلاح الزراعى ، كان ذلك عندما شن الكومينتانغ الهجوم على المناطق

المحررة الرئيسية وعادت القوات المسلحة التابعة لملاك الاراضى . وكان ليو جين قوى من الدهاء بحيث لم يتخذ اى خطوة متهورة . ولما انسحبت قوات الكومينتانغ من بر الوطن هرب وابنه اولا الى تايوان ثم الى بلاد اجنبية . وفى سنة ١٩٦٢ ، حين ارسل الكومينتانغ عصابات مسلحة عدد افراد كل منها قليل لشن الغارات على المناطق الساحلية ، اشتد القلق بسوه تشنغ . ولكن تشيو لان لم تعرف الخوف ، مؤمنة ان النظام الشيوعى لن يهتز ابدا . واليوم . . الغى النعت لملاكى الاراضى والفلاحين الاثرياء ولم يعودوا موجودين كطبقة كما كان حالهم من قبل . هذا امر معقول حيث انهم قد تعرضوا للاصلاح الاجبارى لسنوات ، وكثير منهم فتحوا صفحات جديدة . ولكن . . ماذا فى جعبة سون ؟ هل خرج عن الحزب الشيوعى ؟

احست تشيو لان بالحرارة فى رأسها وانه ثقيل . وبدلا من ان تذهب الى البئر توجهت مباشرة الى الغرفة وارتمت على السرير . ولما عرض سوه تشنغ ان يحضر طبيبا ويطهو لها حساء الحمص قالت :

— لماذا هذه المهزلة ؟ لا اريد سوى التدليك .

ووضع سوه تشنغ ابهاميه على جبينها وبدأ يدلكها .

ولما زارها امين الحزب العجوز فى المساء سألته تشيو لان :

— أحقا يجرى استعادة النظام القديم ؟

واشعل غليونه وجلس على طرف السرير ورد عليها وعلى فمه ابتسامة :

ـ استغرب ان شخصية قوية مثلك تطرح مثل هذا السؤال !

واضاف سوه تشنغ يقول :

ـ تشيو لان على حق . يبدو ان الريح السياسية تهب لصالح الاثرياء والاقوياء مرة اخرى .

ـ كفى سخافة يا سوه تشنغ . اغرس فى ذهنك ان دولتنا هى دولة الحزب الشيوعى .

ـ لا احترم شيوعيا من امثال المدير سون .

ـ لماذا ، اذن ، لم تتناقش معه يوم امس ؟

وحملقت تشيو لان فى زوجها وقالت :

ـ انه مخلوع الفؤاد حتى يتكلم .

وضحك امين الحزب عندما رأى سوه تشنغ يكسوه الخجل .

وواصلت تشيو لان قولها :

ـ ولكن سون جاء الى هنا كمسؤول شيوعى .

وتوهج التبغ فى تجويف الغليون وامين الحزب ينفث الدخان .

ـ هنا مربط الفرس . هيبة حزبنا قد تقلت بسبب شيوعيين تافهين من امثاله ، والناس حاليا غير واثقين منهم كما اعتادوا من قبل . ان سون واضرابه لا يعرفون اليوم سوى رفع الاشرعة واتباع الريح السياسية . انهم سيستخدمون سلطتهم لاهانة الآخرين . ليس من بينهم احد صالح . وينبغى لنا ألا نحكم على الحزب الشيوعى بما يفعلون او يقولون . أليس هذا صحيحا يا سوه تشنغ ؟

ـ انا اتفق معك .

واخذت تشيو لان تعض فى شفتيها وسبحت فى التفكير .

ونفض امين الحزب الرماد من غليونه وقال :
ــ ما رأيك يا تشيو لان ؟
وردت عليه مبتسمة :
ــ ماذا سنفعل غدا ؟
ــ انت المضيفة . سنتركك تديرين امر معاملة الضيف وتفعلين ما يروق لك .

واخبرها بأن موظفا بالمحافظة قد هاتف قبل قليل يقول بأن تشانغ ، امين الحزب بالمحافظة ، قد وجه اللوم لسون وطلب منه بأن يترك الفلاحين يقررون كيف يستقبلون ليو جين قوى الذى جاء للزيارة فقط . يمكن لحكومة المحافظة ان تقدم سيارة الى ليو فى يوم غد ويمكنه ان يأتى من غير ان يصاحبه اى مسؤول بالمحافظة.

وانطلقت من تشيو لان تنهيدة تنم عن الاسترخاء .

وقال امين الحزب معترفا :

ــ لأكون امينا اقول بأننى اولا وقبل كل شيء لا افهم لماذا ينبغى ان نعامل عدوا قديما كضيف مبجل . وفيما بعد ادركت اننى قد تخلفت عن الزمن . لا يمكننا ان ننظر دوما الى الوراء وننظر الى الامور بنفس الصورة القديمة . لقد عاملنا اناسا من صنفه كأعداء لسنوات عديدة . هذا ظلم . انهم اذا اصلحوا من سلوكهم وايدوا الحزب والاشتراكية فليس عدلا التمييز ضدهم الى الابد . الى جانب ذلك . . ان ليو جين قوى وطنى . انه صينى .

كان سوه تشنغ يستمع باهتمام شديد .

ورفعت تشيو لان رأسها وقالت :

ــ ارجوك ان تهاتف الامين تشانغ وتقول له بأنني ايضا عندى احساس بصينيتي ولن افعل ما يسيء الى الحزب الشيوعى . ارجوك . . ادع ليو نيابة عنى .

وظهرت ابتسامة تنم عن سعادة على فم الامين .

وقال سوه تشنغ :

ــ ماذا سنفعل بالبئر ؟

ــ استمر فى عملك .

٤

كان الى جوار البئر عربة يد مقلوبة استخدمت عجلتها كبكرة يرفع بواسطتها سوه تشنغ وعائلته سلالا من الحجر من قاع الحفرة . كانوا يعملون فى نغمات متساوقة وتشيو لان تغنى : واحد . . اثنان . . ارفع !

وكانت شمس الصباح قد اغرقت الفناء بضيائها . وقد ملأت الخنازير بطونها وكانت تحك اجسادها بجدار الزريبة . وكان ديك ابيض كبير يصيح رافعا رأسه الى اعلى . ولما هبت الريح سقطت قطرات الندى من اوراق نبات اليقطين الذى تضفر حول سطح الكوخ القشى . وتوهجت كيزان الذرة تحت الافازيز بتأثير الاشعة الذهبية .

وعندما كانت تنزل السلة الفارغة الى القاع ، كانت تشيو لان تمسح العرق من جبينها وتقول متمتمة :

ــ لقد مضت اكثر من ثلاثين سنة . لا بد انه عجوز الآن .

وقال سوه تشنغ مرددا :

ــ لقد ولد فى عام الكلب . لا بد انه فى الحادية والسبعين اليوم .

ــ ربما لا اعرفه عندما اراه .

ــ هل تزوج مرة اخرى فى اليابان ؟

ــ لا اظن ذلك مما سمعت .

ــ لماذا هجر حياة الدعة هناك وعاد ؟ أليستعيد ممتلكاته ؟ الامين تشانغ قال بأنه عاد للزيارة . هل تصدق ذلك ؟

ــ من الصعب ان يهجر الانسان وطنه . بعض جيراننا رأوه يبكى حين غادر . يا له من بائس . . .

وقال سوه تشنغ غاضبا :

ــ لماذا ترأفين بحاله بينما لم يبد اية شفقة بنا ؟

ــ ما فات مات . لماذا لا نترك ما مضى يمضى لحاله ؟

وكانت كلمات التقدم فى حفر البئر تصعد من اسفل الى اعلى : وصلنا الى تربة مبتلة . . نرى وشل الماء الآن .

ووصل عمق البئر ، بعد ثلاثة ايام من الجهود الشاقة ، الى عمق ثلاثين قدما .

وفى الساعة التاسعة صباحا ، سمع صوت محرك سيارة . وقال سوه تشنغ هامسا فى سخط :

ــ قد وصل !

ووقفت تشيو لان تفكر للحظة ثم قالت :

— يا ابا شين هواى ! اذهب وبدل ملابسك بأخرى نظيفة . الملابس تحت السرير .

ولما ذهب قالت لابنها :

— اركب دراجتك واشتر لحما احمر من القرية الشرقية . سأصنع له فطائر محشوة باللحم . هذا ما يحبه .

وبعد ان غادر شين هواى ، تناولت علبة سجاير من رف الشباك والقتها فى البئر ، ونادت على الحجار فى اسفل البئر :

— اننى آسفة اذ لدى ضيف . ارجو ان تنادينى عندما ترى الماء .

ولما انتهت من هذه الاجراءات ، نفضت الغبار عن ملابسها واتجهت الى البوابة .

ودخل عجوز متوعك الصحة ، ضئيل الجسم يتبعه جمهور من الاطفال . هل هو ليو المتغطرس ؟ كان اصلع الرأس ليس به سوى شعيرات بيضاء وكان حاجباه قد اختفيا تقريبا . وظهرت بقع السن على وجهه المتغضن . كانت ساقاه ضعيفتين ، وكان محنى الظهر يتكئ على عكاز . وما زالت يده اليسرى تمسك بالغليون المائى الذى خرجت منه نفحة من دخان متكورة .

وارتعشت تشيو لان حين لمحت الغليون .

ووقف ليو عند البوابة السوداء ينظر الى المرأة الواقفة بجانبها . وتبسم ابتسامة خرقاء ثم هز رأسه ، لم يظهر دلالة على انه عرفها . وفجأة . . ارتعشت يداه وسقط الغليون على الارض . واغمض عينيه الخاليتين من البريق ألما عندما رأى الندبة على جبينها .

وارتعشت شفتا تشيو لان وشدت باطار الباب بكل شدة حتى كادت اظافرها تنغرس فى الخشب .

لم ينبس اى منهما بكلمة .

وكان احد الاطفال يصيح : " انظروا ! سقط الغليون من يد العجوز . "

وضحك الآخرون على كلامه .

وانتاب تشيو لان مزيج من المشاعر . ابعدت الاطفال الذين تفرقوا واخذوا ينظرون من بعيد . ثم تقدمت وتناولت الغليون . ما زال نفس الغليون .. فقط اصابعه تركت مزيدا من العلامات على النحاس . لا بد انه تغير هو الآخر بعد هذه السنوات الطويلة .

ورفع ليو يدا ترتعش وقال :

ـ انت تشيو لان اذا لم تخنى الذاكرة . يسرنى ان اراك انت وقريتى الام مرة اخرى . . .

كانت عينا تشيو لان قد تخضلتا قليلا بالدموع وهى تمسح التراب من الغليون وتناوله اياه . وقالت له :

ـ تفضل ! لدى سوه تشنغ تبغ جيد يقدمه اليك .

وتناول ليو الغليون بيديه وقال :

ـ كيف حال سوه تشنغ ؟

ـ انه بخير . الفضل فى ذلك يعود للحزب .

ونادت تشيو لان :

ـ يا ابا شين هواى ! عندنا ضيف .

زرر سوه تشنغ سترته واسرع خارجا ولكنه وقف لدى رؤية

ليو وظل معقود اللسان للحظة ومندهشا .

وهز ليو رأسه :

— لقد كبرت انت ايضا .

وبعد وقت طويل قال سوه تشنغ :

— لقد ولدت فى عام الديك . انا الآن فى الستين من عمرى .

وضحكت تشيو لان .

تبدد التوتر ودخلوا الى الفناء . لما قصت تشيو لان حكاية البئر على ليو اومأ برأسه موافقا وقال :

— الماء تحت الارض جيد . اردت ان احفر بئرا عندما بنيت هذا البيت ، ولكننى غيرت رأيى خوفا من ان يجلب سوء الحظ لعائلتى .

وجعل يضحك على ما كان يؤمن به من خزعبلات .

وجاء الصوت من قاع البئر :

— الماء ! الماء !

وصفقت تشيو لان فرحة واسرعت الى هناك . والقت بنظرها الى البئر وهى تقول :

— هل الماء غزير ؟

— اجل ! انه يخرج من فتحة ضيقة .

والتفتت تشيو لان ونادت على زوجها :

— احضر لى مغرفة .

ووضع سوه تشنغ مغرفة يقطين فى سلة انزلها الى البئر . ولما رفعها ثانية كانت مملوءة ماء .



ـ تذوقيها يا ام شين هواى . انظرى ان كانت عذبة ام مالحة .

وتناولت تشيو لان المغرفة وقدمتها الى ليو قائلة :

ـ من فضلك ان تتذوق هذا الماء من قريتك .

تأثر ليو ولكنه لم يجرؤ على تناولها .

فحثته تشيو لان قائلة :

ـ تفضل ! سيتوفر لدينا الكثير فيما بعد لنشرب .

وتدخل سوه تشنغ فى الحديث وقال :

ـ تفضل ! انت ضيفنا .

تناول ليو المغرفة بيديه المرتعشتين وبدأ يشرب بجرعات كبيرة غير عابئ ان يركد التراب العالق بالماء . لقد جرع الماء وعيناه نصف مغمضتين .

وسأله سوه تشنغ :

ـ أ هو عذب ؟

وضع ليو المغرفة على فمه ونهل جرعات اخرى وكانت الدموع تسح من عينيه على خديه .

وامتلأت عينا تشيو لان بالدموع ، وامالت وجهها الى جانب فى سرعة خاطفة . . .

كلمة عن المؤلف



وانغ رون تسى من مواليد العام ١٩٤٦ بقرية من اعمال محافظة وندنغ بمقاطعة شاندونغ . عمل بعد تخرجه فى مدرسة وندنغ للمعلمين سنة ١٩٦٧ ، معلما ثم صحفيا . وفى سنة ١٩٧٠ . . انضم الى القسم الادبى بالهيئة الثقافية فى ولاية يانتاى . وهو اليوم اديب محترف فى قسم الادب الدرامى بحكومة منطقة يانتاى . وقد قبل عضوا باتحاد الكتاب الصينيين سنة ١٩٨٢ .

بدأ وانغ رون تسى حياته الادبية فى اواخر الستينات اذ نشر ، كهاو ، عددا من القصائد والتقارير الصحفية والقصص . ومنذ سنة ١٩٧٩ . . كتب بضع عشرة قصة قصيرة منها : « الربيع المبكر» و« الاخ ليانغ والاخت فانغ » . اما قصته « بيع السلطعون » التى نشرت فى سنة ١٩٨٠ ففازت بجائزة فى المسابقة الوطنية للقصة القصيرة .

الوشاح الزهرى المهفهف

تشن جيان قونغ

١

كان تشين جيانغ انسانا غريب الطباع . كتب كثيرا من الروايات التى عبقت بالمشاعر الجياشة حظيت بالقبول من كل انسان غير ان الاسلوب الذى عالج به الناس فى الحياة العادية اوحى بأنه ليس لديه ذرة من الفهم للانسان . مؤخرا . . حاولت ان ارتب معه مقابلتين من اجل مقالة خاصة ، ولكنه كان فى كل مرة يرفض طلبى فى كل بساطة . فى مساء السبت الماضى ، لمحته قبل ان استقل الترام ١٠٣ . وكان من الطبيعى ان انادى عليه ولكنه تجاهلنى تجاهلا تاما . كان واقفا يمسك بالدرابزين ، باردا لا مباليا تكسوه مسحة من عبوس . هل اختبل ؟ لا يبدو عليه ذلك . بل على العكس . . بدا انسانا بسيطا ومستقيما . مؤلفاته عميقة ولكنها ليست صعبة على القراءة ، ومن المؤكد ان الذى كتبها

ليس انسانا ضحل التفكير . ولكن .. لماذا كل هذا السلوك الغريب ؟

وجاءت الصدفة .. عهد الى ان اغطى مناسبة "جائزة افضل رواية" التى دعت اليها مجلة «السحب الزرقاء» الادبية ، وحدث ان كان مكاننا فى نفس الغرفة من الفندق . فازت قصته القصيرة «جار المركب» بجائزة لموضوعها العميق الاغوار وتصويرها للشخصيات الغليظة غير المعقدة ومسلكها القوى . ولكنه لم يظهر حتى بعد ان انتهى الاحتفال . هل لأنه كان منشغلا فى جامعة س فى ذلك الوقت ام لأنه اراد ان يتجنب اضواء المغنيسيوم المعمية ومطاردة الصحفيين ؟

جاء فى مساء ذلك اليوم .. نحيف البدن ، متوسط القامة ، له وجه مربع طويل قليلا ، ذو قسمات خشنة ، وحاجباه مستقيمان وكثيفان ، ومقلتاه غائرتان قليلا ، وانفه مستقيم مرتفع . كانت شفتاه مطبقتين مشكلتين خطا مستقيما ، بينما كانت ذقنه مائلة قليلا . ها هو هنا نفس الرجل الذى رأيته منذ ايام خلت .. كان التعب مرسوما على وجهه ، وعيناه الجافتان تومضان طوال الوقت . حيانى بهزة من رأسه وابتسم ابتسامة خفيفة ، ومن ذلك ادركت ان ثمة اعباء فى رأسه . اتجه الى الاريكة وجلس .

ــ لماذا تأخرت ؟ هل كنت تعد شيئا للمحررين ؟

ــ لم يحصل ذلك .

ــ يبدو عليك التعب .

ــ صحيح ؟

لم ينكر واقع الحال كما لم يبد عليه اهتمام فى مواصلة النقاش .

وظللنا الصمت .

لم اكن لأتحمل مواقف محرجة كهذا الموقف فقلت :

ــ لم تظهر فى حفل الجوائز ، وهذا كان مخيبا لآمال كل شخص . الرفيق ما تشنغ يوان جاء ووجه بعض التعليمات . وقال بأنه يأمل فى ان يلتقيك يوما ما .

ــ ه . . م م م !

وعقد حاجبيه وقال :

ــ لقد هاتفت وقلت بأنى لا استطيع . ثمة اشياء فى الجامعة وجب ان اؤديها . لهذا لم استطع المجىء .

وقلت له :

ــ الرفيق ما كلفنى بأن ادعوك الى بيته حيثما طاب لك ذلك . انه يود ان يتحدث معك . قال بأنك كاتب مبشر بالامل .

ولم يفتح شفتيه عن شىء .

وبعد ان اطفئ النور ، استلقى ولكنه سألنى على حين فجأة :

ــ هل لك ان تجد عذرا لتعفينى من ذلك ؟ انا . . انا لا اريد ان اراه حاليا .

ــ لماذا ؟

وران الصمت مرة اخرى .

حقا . . كان هذا يحمل اشياء اكثر مما تحتمل . الرفيق ما تشنغ يوان ناهز السبعين اليوم ، وهو شخصية قيادية فى الاوساط

الادبية . اما تشين جيانغ فلا يعدو الا شابا ساذجا لا شأن له ، فلماذا لا يهتم بالادب ازاء العجوز الى هذا الحد ؟ وقلت له :

— نحن لا نعرف بعضنا بعضا منذ مدة طويلة .. هذه اول مرة اقابلك ، ومما لا شك فيه اننى لا اعرفك جيدا . ولكننى ارى ، ولو للمجاملة على الاقل ، ان ...

— اوه !

وامسك بعلبة الكبريت واشعل سيجارة وبدأ ينفث الدخان فى صمت . ومرت برهة طويلة ثم قال :

— ه . . م م م . نعم .. اريد ان اراه . قد توقعت ان يأتى ولكن . . .

— ماذا فى الامر ؟ هل انت . . .

مما قال ، احسست ان ثمة علاقة ودية بينه وبين ما تشنغ يوان .

— حسن ! كان ينبغى ان اقول لك ، بعد كل ما حصل ، لأننى احتاج الى مساعدتك لأخرج من الورطة . ولكن .. هل تحفظ السر ولو لفترة قصيرة ؟

ظهرت ابتسامة مريرة على وجهه وهو يقول :

— انك لن تصدق . انا ابنه !

— ماذا ؟ هل يعرف الرفيق ما تشنغ يوان ؟ ألم يعرف عن الامر بعد ؟

— لا تصرخ هكذا ! اهدأ .. ألا تريد ان تهدأ ؟ لم يعرف بعد . تشين جيانغ اسمى القلمى . كل ما يعرفه ان ابنه ما مينغ

يعمل على مركب نهر اليانغتسى بمقاطعة سيتشوان . لا يعرف انى ادرس بالجامعة ولا اننى اكتب روايات . انا تشين جيانغ بالذات .

ـ كيف حدث كل هذا ؟

ـ الامر فى منتهى البساطة فعلا . انا كنت الولد العاق فى اسرتى .

ونفث فى سيجارته ، ورمقنى بنظرة وشهق الدخان فى بطء .

ـ لن تتصور ابدا ما كنت عليه فى هاتيك الايام . منذ سبع او ثمانى سنوات ، كنت امضى الوقت طول النهار مع اصدقائى عند "موس القديم" . انت تعرف "موس القديم" . . أليس كذلك ؟

ـ "موس القديم" ؟

ـ آه . . نعم . تذكرت مطعم موسكو من غير شك والذى يدعى اليوم : مطعم قاعة معرض بكين . "موس القديم" . . هذا هو الاسم الذى كان يطلقه عليه ابناء كبار الكوادر آنذاك . اعيد افتتاح "موس القديم" كما تعلم . يقدم الطعام فى اطباق من فضة . فى كل مرة ذهبنا الى هناك كنا نسرق ملعقة او شوكة . . ليس لبيعها من اجل المال وانما لاظهار اننا كنا فى "موس القديم" . كان شيئا جديرا بعرض ذلك ، كمثل وسام منح لعملية عسكرية بارزة . واعتدنا ان نذهب الى "كانغله" ايضا . كان فى شارع وانغفوجينغ عندئذ ولكنه انتقل اليوم . كنا نصخب ونسبب متاعب جمة فى ذلك المكان . كانت ولا ريب حياة انغماس فى الملذات . وكانت احدى العاملات هناك ذات جمال آسر . اتذكر اننى

طلبت منها ذات مرة ان تحضر لى مشروبا غير مسكر ودفعت عشرة يوانات . عادت تحمل القارورة والقت بالفكة على المنضدة . وقد القيت ، بسبب السكر ، كل شيء على الارض وصارت النقود تلف وتدور فى كل مكان . وفيما بعد . . اصبح كل اصدقائى يحبون هذه الطريقة .

— فى تلك الايام ، اعتدنا ان يدفع كل بدوره . بعد ان كنا نمتلىء بالطعام والشراب ، كنا نتوجه الى بيت واحد منا . كنا نثرثر بالكلام . . لم نكن نجرؤ على الرقص فى تلك الايام ولم يكن لدينا اجهزة فيديو . لذا كنا نمضى اليوم بطوله فى الكلام ولعب الورق . ومن غير شك كنا ننزل على " امبراطورة العاصمة الحمراء " * بالسباب والشتائم احيانا . لم نعد ابدا الى بيوتنا قبل الثالثة صباحا .

— لن تصدق ما اقصه عليك . . واضح ؟ هذا لا يذهلنى . انت تعرف اننى ترعرعت فى مدرسة داخلية لأبناء الكوادر . قد عرفت معنى الشرائط على ازياء الضباط ، وفى سهولة يمكننى ان اميز الفرق بين السيارات مثل " العلم الاحمر " والمرسيدس حتى الفولغا والبابيدا . مع ذلك . . لم اكن متهيئا للحياة . ثم جاءت الامواج بالسرعة الكافية . فى ذات يوم . . اشادوا بى بطلا وكان لسان حال كل واحد يقول : " بلا شك . . ان الابن سيواصل عمل ابيه وهو شاب شديد المراس . " وفى اليوم التالى ، وصمونى بأننى

* المقصود : جيانغ تشينغ — المترجم .

عنصر غير مرغوب فيه ، ابن قبيحة من العصابة المغضوب عليها . اصبحت ركبت موجة الخط كسير الخاطر ، غرقت فى التيار السياسى او عمت ، معتمدا على حظوظ ابى . لذا غرقت فى الشراب ولعنت السماء والارض . لم استطع ان اعثر على البيئة الملائمة ولم استطع ان اعرف ماذا افعل . بدأت شكاوى الاب تزداد . ربما احس ان حياته تقترب من نهايتها ولم يستطع ان يجد اناسا يصدر اليهم الاوامر او يكتشف لهم اخطاء . قال لى بأنى " طفيلى " . كان يفتح على الباب فى الصباح ويصيح : " هاى ! انهض يا ' اوب العجوز ' ! " وفيما بعد . . ادرك انه كان يعنى اننى اوبيروموف . وبدورى كنت اباد له الاستهزاء . كنت اقول له : " يا ' بول العجوز ' — اختصارا لكلمة ' بلشفى ' " . وكنت اقول : " انت استيقظت مبكرا يا ' بول العجوز ' . الافضل لك ان تذهب وتقرأ انجيلك الماركسى . . هذا سيفيدك كثيرا كما تعرف ! " كان هذا يسخطه ويجعله يرتعد فى كل مرة . . .

كان تشين جيانغ يضحك من كل قلبه فى هذه اللحظات . وانا بدورى لم استطع ان اكبح الضحك .

— اذن . . هكذا طرد الابن الجائر فى لحظة غضب !

— بالعكس . . انا رحلت من نفسى .

وتوقف تشين جيانغ عن الضحك . وبعد برهة . . قال مستعجبا :

— هل تظن اننى كنت سعيدا بتلك الحياة ؟ كان عقلى خاويا عندما رقدت فى تلك الليلة . لم احقق شيئا ، وما زال الخوف من اضاعة شبابى يلتف حولى كالافعوان . ولكن . . سرعان ما

رحت فى النوم . وفى اليوم التالى ، عندما كان الشمس فى كبد السماء ، ركبت دراجتى لألحق بأصدقائى للقصف والعربدة مرة اخرى . واغرقت نفسى فى كل انواع الشراب .

— السماء تعرف لماذا قررت فجأة ان اخرج من بكين . ربما كان ذلك نتيجة للثرثرة المتواصلة لـ "بول العجوز" وربما كان ذلك يعود لحادث بسيط . على اية حال .. فجأة طرأت لى فكرة فى ذات يوم واخذت بعض اصدقائى الى مطعم النصر . طلبت وجبة تكاليفها سبعون يوانا . كانت امى قد رحلت عن الدنيا فى اعقاب هجومات سياسية قاسية عانت منها . كان ذلك قبل ان اذهب للريف فى سنة ١٩٦٧ ، وكان ابى ما زال محبوسا فى السجن . ذهبت الى مطعم النصر لأزود نفسى بما يكفى من الطعام لرحلة القطار فى اليوم التالى . هنا .. اتهمونى ذات مرة بالسرقة وتلقيت اهانات بالغة القسوة . اذن .. اريد ان افرج عن نفسى ! وفيما كنا فى حالة من السكر ، والطعام والشراب على المائدة لمحت عاملة تجاوزت الخمسين من عمرها . كانت هى التى انقذتنى من الضرب فى ذلك اليوم المذل بعد ان قبلت ما قدمت من ايضاحات . ذهبت اليها ، نصف سكران وقلت لها والكأس فى يدى : "يا منقذتى !" واشرت الى اصدقائى ان يأتوا لشرب نخبها . ونحتنى جانبا وهى تقول انها لا تعرف من نحن . ثم رمتنى بنظرة صارمة واختفى ظلها . لن انسى نظرتها تلك ما حييت . ستبقى تذكرنى بتلك الايام . حين نزلت الى الريف لمحت نفس النظرة بالضبط من الفلاحين المسنين الى الاثرياء الجدد

الذين يخرجون مترنحين سكارى من مكتب الكومونة . كنت اخشى هذه النظرات .

ـ كنا بنهاية سنة ١٩٧٦ . كل شخص افصح عن لونه الحقيقى : اولئك الذين ضحوا بكل شىء من اجل الحقيقة ، واولئك الذين كانوا فى غاية النشاط ، والمتسكعون ، واولئك الانتهازيون الخنوعون . انا ؟ احسست اننى بلا قيمة . . بلا قيمة فى الماضى وبلا قيمة فى المستقبل ! وفجأة ، فزعت من فكرة اننى نبذت من السباق . ادركت اننى غرقت فى خضم مأساة .

ـ لذلك عزمت ان اخرج من بكين لأكون بعيدا عن كل " سانيو صغير" و" سونى كبير" ، بعيدا عن حفلات الرقص البيتية التى لم يكن لها عدد . . عندما تركت بكين ، كانت هذه الحفلات فى ذروتها وشائعة بين اصدقائى : التانغو والرمبا والديسكو . . الخ . اللعنة عليها ! " بول العجوز" لم يصدق اننى سأذهب الى سيتشوان عاملا . . ظن اننى تعبت من اللف والدوران فى بكين ، او ربما اننى وقعت فى مشكلة . سألنى مرتعشا : " لماذا ؟ " فأجبته : " انت تسألنى لماذا هذا ولماذا ذاك عن كل شىء . . صحيح ؟ لماذا ينبغى ان توجد لماذا ؟ لا يوجد سبب ! لا معنى للحياة هنا . . هذا كل ما فى الامر . احاول ان اجرب وسيلة اخرى ! " لهذا تركت .

كان يسمع حفيف الشجر بالخارج فى رياح الليل . رفعت ستارة الشباك الحريرية فأدخلت عبير الليلك النفاذ .

انه مما يدعو للغرابة كيف صار تشين جيانغ حيويا ومقبلا

على الحديث ! لقد تبددت الجلفة والنظرات القلقة . الحق . . ما سرده على الآن يعتبر مادة كافية لكتابة مقابلة كاملة : " الحياة تصلح الناس" . بعد بضع سنين ، تمكن تشين جيانغ الذى وجد " لا معنى فى الحياة" والذى غادر بكين ليكتشف " حياة اخرى" ، من ان يحول نفسه الى مهندس لأرواح البشر . قد عاد الى بيته مؤلفا شابا موهوبا . ابوه لم يعرف بعد ان الشاب الواعد الذى افرط فى اطرائه هو فى الواقع الابن الذى كان لا فائدة ترجى منه ، ولكن . . .

ـ اهنئك من كل قلبى يا تشين جيانغ . انك وصلت الى ما انت عليه اليوم بفضل تلك الخطوة الاولى التى خطوتها . ما زلت لا افهم سبب عزوفك عن رؤية ابيك . اننى على يقين بأنه سيكون فى غاية السرور ان رآك .

ربما كانت كلماتى حادة جدا وآذته . والتزم الصمت مرة اخرى . وبعد برهة طويلة قال :

ـ احب ان اراه . اعتدت ان اتخيل بزهو شديد ما هو المنظر الذى سأكون عليه عندما اظهر امامه فجأة وشارة جامعة س على قميصى . اخبار قصتى « جار المركب» بفوزها بجائزة ولقاؤنا فى حفل الجوائز . . ذلك سيكون صدمة اشد بالنسبة اليه . وفكرت ان من الافضل ان انتظر . انا لست فى الحالة الذهنية السليمة فى هذه اللحظات . . .

ـ لماذا ؟

ـ بسبب شيء آخر .

وندت من صوته نغمة مفعمة بالأسى . جعلنى صوته ، برغم انني لم استطع ان ارى وجهه الآن ، اتذكر تعابير القلق والاجهاد التى سبق ان رأيتها .

ـ ماذا حدث ؟

تنهد وقال :

ـ شيء حدث مؤخرا . لهذا حكاية طويلة . لننم الآن . الافضل ان ننام .

ـ ليست بى رغبة للنوم . لماذا لا تخرج ما فى صدرك ؟

لم يعبأ بكلامى . وفى الظلمة القاتمة ، لمحت فى يده سيجارة تشتعل .

٢

كان لدينا مناقشات جماعية فى اليومين التاليين . فى المساء . . كان الصحفيون والمراسلون يتقاطرون الى غرفتنا . لم يستطع ان يترك الغرفة ولم يبد اهتماما فى الحديث بعد اطفاء النور . وبعد العشاء فى اليوم الرابع ، سحبته من الفندق الى حديقة ازهار صغيرة فى وسط الشوارع .

ـ لماذا نحن امينان حتى نعود الى الفندق ويلاحقنا اولئك الرجال ؟

تبادلنا الحديث عن اشياء كثيرة . ولما هبط ستار الليل جلسنا على دكة من الرخام .

– ارى ان فى ذهنك شيئا .. ما هو ؟
فابتسم وقال :
– قلت ان اولئك الرجال يلاحقوننا ، والحق ان الفكاك منك اصعب .. أليس كذلك ؟
فقلت له :
– لا نتحدث عن ذلك لتخليصك من الالم .
لم يقل شيئا . وبعد برهة قال كأنما يحدث نفسه :
– لا يطاق ان يبقى الانسان على اشياء فى داخله كما تعلم .
كان القمر يتلألأ بين السحب والجداجد تسقسق فى النسيم العليل . كانت تمر سيارة بين آن وآخر ملقية انوارها علينا بين الاشجار . وتناول ورقة عشب من تحت قدميه واخذ يمضغها .
– فى الحقيقة اننى ادين بشىء عظيم للادب . لقد حول الحياة الى كتاب تعليمى بالنسبة الى . كنت سأكون فى شقاء شديد بل فى تيه كبير اذا واجهتنى تلك الحادثة فى الماضى . اما الآن فأنظر اليها على انها قصة مأساوية فى رحلة حياة انسان . الادب جعلنى اعى الامور واحزم امرى .
– هل تعنى الحادثة الاخيرة ؟
– اجل .
– ما هى ؟
– انها حكاية طويلة .
وبصق من فمه ورقة العشب .
– قلت لك بأنى ذهبت الى تشونغتشينغ فى اواخر العام ١٩٧٦ ،

بمساعدة زملائى وعملت على مركب . كنت العب بنماذج القوارب وانا صغير . ولما كنت تواقا الى مشاهدة المناظر على طول نهر اليانغتسى ، دبت النزوة والطموح فجأة فى نفسى لأبدأ فورا رحلة حياة جديدة . اضحك على كما تشاء . لم تبق ذرة تماسك واحدة فى نفسى ولم اكن مستعدا لرحلة كهذه . لقد استنزف الويسكى والبراندى كل ذرة من قواى . هل كنت تتوقع ان اجرى حسابات او تصميمات تحت ضوء قنديل زيت فى منتصف الليل ؟ كيف اتحمل هذه القسوة ؟ كنت قد اعتدت على الرقص طوال الليل تحت الاضواء المتوهجة . وها أنذا الآن اطالع فى هذه المجلدات المرهقة كجزء من عملى . شيء لا يمكن التفكير فيه ! اعتدت ان استلقى على اريكة ناعمة ورجلاى فوق بعض استمع الى الموسيقى تنبعث من حجرة النوم . حتى اسهل عمل كان يضايقنى .

— تحملت العشرة او الاثنى عشر يوما المستحيلة قبل ان يبحر المركب من تشونغتشينغ الى شانغهاى ، ثم العودة من شانغهاى الى تشونغتشينغ . لم استطع ان اطيق ذلك . آه . . لقد ادركت ما انا فاعل . لم يسبق لى ان انجزت شيئا . شرعت فى تدوين يوميات عدة مرات ، فى كل مرة اعقد النية ان اواصل ذلك الى نهاية عمرى ، اسجل صراعاتى عندما دفعت نفسى لأن افعل شيئا . ولكنى لم اكمل اليوميات ابدا . ثم صممت ان ادرس اللغة الانكليزية . فاشتريت كتبا وراديو ترانزستور وكل ما تعلمت هى أ ، ب ، ج ، د . بدا لى كل شيء غامضا تماما ، ليست سهلة كاللغة اليابانية ، اذ يمكنك على الاقل ان تفهم كثيرا من

الكلمات اليابانية من اشكالها . . فى اللغة اليابانية كثير من المقاطع الصينية فتوقفت عن دراسة اللغة الانكليزية فى منتصف الطريق . وبدأت اتذكر بمتعة " دائرتى الصغيرة " فى بكين . . " موس القديم " ، "كانغله " ، " الديسكو " ، "سانيو الكبير " ، مستغربا ماذا رأوا فى الفيديو . . . استطيع القول بأنه لو لا دخولها فى حياتى لعدت فى سهولة ويسر وواصلت حياة مرفهة مريحة ولكنها حياة بلا قيمة . فى خضم مأساة حياتى قابلتها . . .

– من هى ؟

– انها شن بينغ . التقينا على المركب .

توقف عن الكلام وافتعل ابتسامة مريرة ثم اضاف :

– لم نعرف بعض فعليا . كان فقط . . احفظها فى ذهنى .

كان ذلك فى يوم من اوائل الربيع منذ ثلاث سنوات مضت . نعم . . كان فى السادس والعشرين من شهر فبراير . هذا صحيح . . لأننى اصر على ان ابدأ يومياتى الحالية فى ذلك اليوم . فى صباح ذلك اليوم . . كان مركبنا ، النجم الاحمر – ٢١٥ ، كان راسيا والضباب خفيف . هل اخذت المركب فى تشونغتشينغ ؟ لو فعلت لفهمت ما اعنى . الضباب لم يتبدد . . ليس هذا فحسب ، بل اشتد كثافة على كثافة ، وكانت الشمس محتجبة فيه تماما لا يبدو منها سوى شعاعات رمادية ضعيفة . لم تستطع المراكب ان تبحر فى مثل هذه الرؤية الضعيفة . لم يكن ثمة خيار سوى الارساء فى وسط النهر . توقفت الآلات . خرجت من غرفة الآلات لأشم الهواء النقى فلمحت فتاة واقفة خارج قمرة

الدرجة الرابعة . لم تكن مثل الركاب الآخرين الذين كانوا اما يطرحون كل نوع من الاسئلة المحرجة او يسترسلون فى السباب ، او الذين يضعون ايديهم فوق عيونهم يحملقون فى السماء ، بل كانت متكئة على الدرابزين تطالع فى كتاب . كانت مختلفة تماما ! كم حسدتى على حالها ! كانت مستغرقة كلية فى كتابها . كانت عيناها متألقتين وطرفا فمها مائلين الى اعلى قليلا وشفتاها تتحركان من حين لآخر . لم اعرف ما الذى كان يحركهما . كانت فى مظهر بسيط .. شعرها فى ضفيرتين صغيرتين وراء رأسها . وكانت ترتدى سترة زرقاء وبنطلونا ازرق لا توجد عليه زينات . وعلى كل حال ، كانت ياقة البلوزة المطرزة التى ظهرت من تحت سترتها قد افشت غريزة هذه الفتاة الشابة فى حبها للجمال . كانت طويلة القامة جيدة الصحة مع قسمات جميلة . لست ادرى لماذا اجتذبنى هذا الاندماج المتمثل فى بهائها البسيط واتزانها على نحو شديد . . .

ـ كنت فى الخامسة والعشرين آنذاك . عرفت عددا غير قليل من الفتيات فى دائرتى ببكين . كان بعضهن يطاردنى ولكنى لم اقع فى حب اى منهن .

ـ اذن .. هو الحب من النظرة الاولى ـ صحيح ؟

ـ ليس ذلك تماما . فقط احسست بقليل من الغموض مع نوع من الزهو او الغرور لم اعهده من قبل . كيف اصف ذلك ؟ كانت تمسك بالكتاب فى يدها غير واعية تماما بما حولها .. على كل حال .. هذا يجعلنى اشعر بأنها ذات قوة معنوية متفوقة على

كل انسان آخر . ولو كنت اردت لكان بسهولة اجرى حوارا حول استرليتز وواترلو لأفتن بعض الفتيات الضحلات التفكير . ولكن هذه الفتاة جعلتني احس انني منزوع الارادة نوعا ما . ومع ذلك .. ساورتني الشكوك . كنت موقنا انها مزيفة تتعمد التظاهر ...

– تبدد الضباب حوالى الظهيرة . وانطلق مركبنا بأقصى سرعته . كانت الشمس شديدة السطوع والنهر يعكس اشعتها . كانت الفتاة لا تطالع الآن ، انما تناولت وشاح النايلون اللازوردى وربطت طرفه بالعمود . كانت الريح تدمدم . وهزت الوشاح ، وبدت العنقاوان الحمراوان عليه كأنهما ترقصان معا . وامسكت بالطرف الثانى ، واستندت الى الدرابزين مرخية بصرها الى المسافات التى يغطيها الضباب .

– انتهت نوبتى وتوجهت الى المطعم لتناول الفطور . وفيما مررت من خلفها لحظت ان العقدة التى ربطتها بالعمود من طرف وشاحها قد ارتخت . اتكأت على باب القمرة واخذت اراقبها للحظة وانا مكتف الذراعين . لم استطع ان امنع نفسى من القول : يكفيك هذه الرومانسية . ذاك الشيء سيسقط فى النهر فى اى لحظة ، وسيأخذه " اله النهر" فورا ! ولما سمعتنى التفتت ناحيتى ورمتنى بنظرة امتنان وشدت ربط الوشاح . كان فى عينيها دموع . هذا يسرنى كثيرا . لماذا هذا ؟ أهو اشارة اتصال سرى بانسان ؟ هذا ما قلته مصادفة . احمر وجهها وقالت : " انه لأمى . " فسألتها مندهلا : " أمك ؟ اين هى ؟ " واشارت الى ضفة النهر ناحية الامام وقالت :



هناك ! هناك على ضفة النهر وفى وسط الخيزران رأيت الدخان متلويا متصاعدا فى بطء . قالت بأن امها تعلم فى مدرسة ابتدائية . هناك . . بيتهم ايضا . لقد ربطت الوشاح بالدرابزين لتسهل على أمها لتراها . وقلت لها مداعبا : امر مؤسف هذا الفراق ؟ فهزت رأسها وقالت : لا . . ليس فراقا . ولكنه . . مؤسف ولا ريب ! يا لروعة هذه الفكرة !

– كانت فى طريقها الى ووهان ومنها تستقل القطار الى بكين اذ التحقت بشعبة اللغة الصينية بجامعة س . كانت فعلا مبرزة . حصلت برغم تحصيلها العلمى فى مدرسة متوسطة على اعلى العلامات فى امتحان القبول الجامعى فى منطقتها . ومما لا شك فيه ان ذلك قد ادخل السرور الى قلبها . حسن . . من لا يرغب فى ذلك ؟ ألم تتقدم للامتحان الجامعى ؟ سألتنى .

– انا ؟ وفركت يدى الملوثتين بالشحمة بقطعة قطن ، ولم يصدر منى الا ابتسامة فيها مرارة وانا القى بقطعة القطن الى النهر .

– الانسان الجدير بالاهلية الحقة ليس بحاجة الى ذلك !

ونظرت الى نظرة مريبة . ونظرت بدورى اليها نظرة مشدوهة ، وقلت فى غير ما سرور :

– ربما لست ذاك الانسان صاحب الجدارة .

وضحكت وقالت :

– هل تعنى ما تقول ؟ ان كنت تحتقر نفسك حقا يمكنك ان تقفز الى النهر ولا تعوم . لقد اثبت جدارتى عبر الامتحان . امى يمينية – هى تقول انها ليست كذلك ، وابى تركنا

كى " يقوم بالثورة " . فى طفولتى . . علمتنى امى ، وعلمت ان شيبوه من اسرة تشو قد صنف «كتاب التغيرات» وهو رهين الحبس ، وان كنفوشيوس دون « حوليات الربيع والخريف» عندما كان منبوذا من البلاط . هـ . . م م ! هل اتعلم فى الجامعة ؟ لم يرشحنى احد . . ولم تتح لى فرصة ! انظر الى الآن !

وضغطت بأصابعها على الوشاح الزهرى الذى كان يخفق ويلتف حول وجهها . كانت معجبة به كأنه راية النصر . .

— لست ادرى ان كان لديك هذا الشعور وانت صغير : لقاء بالصدفة مع فتاة شابة . . نظرة من العين او ابتسامة باهتة ستبقى تلازمك الى الابد . كان ذلك كيف احسست عندما اصبحت فجأة كل شىء فى قلبى . والآن . . ارجو ألا تسىء فهمى . ما تركته معى ليس مجرد نوع من الذكريات الحلوة البسيطة . لا . . تركت شيئا اكبر من ذلك . لم تكن لدى الجرأة ان اراها ثانية بعد تلك المحادثة . كل ما تجاسرت عليه كان ان انظر باستمرار من غرفة الآلات واراقبها وهى تقرأ تحت الاشعة المصبوغة للشمس الغاربة ، لا يزعجها الأسى ولا صيحات القرود الهائجة فى الجبال . جلست هناك ساكنة تماما . . قدماها على الدرابزين ورأسها يستند على مسند الكرسى . كانت المياه مندفعة والجبال كأنها انشقت ونحن نعبرها سراعا مع التيار . كان يستحيل ان اعرف كم بذلت من مشقات جهيدة . ربما قد بدأت تجرب مصاعب الحياة عندما كانت فى القماط . من يعرف ؟ انظر كم هى الآن مسرورة وفخورة ! بالنسبة لى . . مررت بأربع او خمس سنين من المعاناة وما زلت

اصب اللعنات على الاشياء من آن لآخر . وفضلا عن كل السباب والقصف ومعرفتى ، بالطبع ، بالمأكولات الصينية والغربية . . ماذا بقى لى لأعتز به ؟

ـ منذ ذلك اليوم اعلنت الحرب على نفسى . بدأت ادرس فى جدية . لجأت الى كافة السبل لأبقى يقظا . نهضت مع صياح الديك واستأنفت معاهدة نفسى . لم تكن سهلا ان افتح صفحة جديدة . لو لم يكن ذلك من اجلها لتوقفت عن ذلك من اجل طويل كما كنت افعل من قبل . ولكننى نجحت فى هذه المرة لأن هيأتها ، وقفتها ، حتى وشاحها الزهرى كانت دوما امام ناظرى . . كلماتها كانت دائما فى اذنى . ربما كنت ستضحك على ما كنت اعاهد به نفسى عندذاك ـ اقسمت ان ادخل جامعة س لدراسة اللغة الصينية . وعندئذ يمكننى ان اراها ثانية . وهذا الامر وضعنى على الطريق الادبى . وبلا شك ، كان ذلك ايضا بسبب اننى احببت الادب فى حياتى الماضية ، ولكن ربما من اجلها اكثر . الحياة مليئة بأحداث كهذه . القسم المضحك من هذا اننى لم اعرف حتى اسمها ! وفيما بعد . . اخذت تتضح تدريجيا الاشياء التى بدت مبهمة . . انت تعرف اشياء مثل الموهبة والعناد والهمة . . الخ . القراءة الشاقة ، الكتابة ، العمل الجسمانى . . الطبيعة ، المجتمع ، والناس . . كل شىء بدأ يظهر فتنته . لم اعد بحاجة اليها لتحثنى . ومع ذلك ظهرت باستمرار فى فكرى . كانت اول انسان يلقى لى حبلا عندما بدا لى انى اغرق . ربما هى لم تدرك ذلك . بدأ نوع من الحنين والشوق

يملأ ايضا قلبي . ربما كان ذلك ما تدعو انت الحب . على اية حال ، بقيت انتظر . وفى يوم ، قلت لنفسي ، سأفاجئها بأن اقف امامها واعلن بكل اعتزاز : كل هذا لأنني قابلتك ذات يوم !

توت . . توت — مرت سيارة شاحنة وراء الاخرى مبددة السكون فى حديقة الازهار الصغيرة . كانت قضبان الحديد فى الشاحنات ترخي دويا مزعجا فيما اصوات المحركات كانت تخترق هواء الليل . اللعنة ! ولما خفتت الضوضاء لم يعد تشين جيانغ يقول شيئا .

نظرت اليه . كانت شفتاه مطبقتين . . بدت منه نظرة عابسة باردة . . بقية وجهه تخفيه ظلال الاشجار .

بدا انى لمست نقطة مؤلمة فى قلبه . تنهدت وقلت متعاطفا :

— قد فهمت الآن انك تحبها . عندما التحقت بشعبة اللغة الصينية بجامعة س ورأيتها ، كانت . . .

لم يقل شيئا .

— اسمع . . يمكنك ان تجد دائما فتاة فى اى مكان . اترك ذلك للزمن وستتغلب على هذه المشكلة .

وهز رأسه وقال :

— لقد اسأت الفهم .

— كيف ؟

لو كانت الامور كما تظن فلا ابالي كثيرا . طبيعي ان اعاني

ولكنى قادر على تجاوز ذلك . المشكلة هى ان الامور ليست بسيطة هكذا .

– ما هى المشكلة ؟

– الفتاة التى التقيتها على " النجم الاحمر – ٢١٥ " .. ربما لا أراها مرة اخرى .

وصرخت فى وجل :

– هل اصابها سرطان ؟

حملق وهز رأسه .. بدا من طرفى فمه ابتسامة مؤلمة .

٣

– حالما وصلت الى جامعة س كنت متلهفا على العثور عليها . لم اعرف اسمها ، وخجلت ان اسأل . غالبا ما دققت النظر فى كل فتاة كانت تمر بجوارى . كنت على يقين اننى سأعرفها لحظة اراها لأنها ظهرت لى مرات عديدة فى احلامى وفى عقلى فى هاتين السنتين الفائتتين ...

– هل رأيتها ام لا ؟

– لما رأيتها مرة ثانية كان مضى على وجودى بالجامعة عشرون يوما واكثر . كان طلبة الشعبة جميعا مجتمعين للاحتفال بالعيد الوطنى الحادى والثلاثين . بعد ان انتهت العروض ، كونوا عدة حلقات . وفيما كان بعض الطلبة يقرعون الطبول ، كان يجرى تمرير الازهار الورقية . خلق صوت الطبل جوا من الاثارة . وكلما

مزرت زهرة لشخص كان يلقيها فورا على من بجواره .. كأنما كان يتلقى صدمة كهربائية . امتلأت القاعة بالضحكات والاحاديث المرحة .

— اقول لك الحق : كيف يمكن ان يكون لدى مزاج لهذه الالعاب السخيفة ؟ كنت اعرف بأنها بين هذه المئات من الطلبة المتجمعين هنا . ولكن .. كيف اعثر عليها ؟

— لم تراودنى آمال عابثة . واخيرا انطلقت صيحات بالقرب منى . توقف قرع الطبول . كانت تدفع فتاة من الحلقة . كانت هى ! عرفتها على الفور . لم يكن لها ضفيرتان ، بل كان شعرها مرتخيا ومنسدلا على كتفيها . كانت تبدو اكثر اشراقا مما رأيتها فى المركب . لا غرابة فى اننى لم استطع اكتشافها بين المتجمهرين . كانت ما زالت واثقة من نفسها ، طبيعية ، ورابطة الجأش . لم تكن تتحدث مع الفتيات بجوارها ولكنها اطبقت شفتيها فى خفة واتجهت الى وسط الحلقة لتسحب قرعة . كان لا بد ان تحل لغزا مكتوبا على ورقة فى غضون دقيقتين . لم تستطع وكان عليها ان تسحب ، كعقاب ، من سلة خيزرانية متعددة الالوان ، قرعة بها اوصاف زوجها فى المستقبل .

— كان كل شخص يهتف بأعلى صوته . كان من سوء حظها ان تقع بغض النظر عمن رسم المكيدة . ومهما يكن الاسم المدون على الورقة فلا بد من اعلان " زوجها المستقبل " . برغم ان ذلك كان مزاحا ، قضمت شفتها السفلى ووصلت الى سلة الخيزران . من النظر الى عينيها يمكن القول بأنها كانت متوترة .

واسخف ما فى الامر اننى كنت اكثر توترا عما كانت برغم انها لم تلحظ ذلك بطبيعة الحال . وعلى كل حال ، احسست بأن القرعة التى سحبتها سيكون لها شأن بى بشكل او بآخر .

ـ تناولت قصاصة الورق وهمت ان تقرأ المسطور عليها . لست ادرى ماذا . . ولكن قلبى كان يخفق سريعا . ماذا حدث ؟ احمر وجهها ووقفت على اطراف اصابعها كما لو كانت ستقفز فى اى لحظة . ثم شبكت يديها معا وصاحت رغم ارادتها : يا الهى ! اى مزاح هذا ؟ ضحك الجميع . وصاح شخص : لماذا الاهتياج ؟ اسرعى واقرأى بصوت عال ! وقال آخرون : اراهن ان ذلك قد طابق ما ترغب فيه ! وهنا فهمت اشاراتهم وتلميحاتهم . خجلت وتشبثت بالارض وقالت : لست اعنى هذا ! لم اكن اقصد هذا ولا ريب ! فازدادت ضحكات الآخرين . واخيرا خطف شخص قصاصة الورق من يدها وقرأها : ذو مظهر مهيب ، وسيم وجذاب ، شاب ومبشر بالامل . تنتظره آفاق لا حدود لها . وفى خضم الضحكات توجه اليها فى وقار الشاب الذى قرأ القصاصة ومد يده وهنأها تهنئة صادقة . سحبت يدها اليمنى وابقتها خلفها . فازداد الضحك فى القاعة .

ـ كانت قد سحبت افضل قرعة ، وادخلت البهجة الى قلب كل شخص . اما انا فكنت مستاء نوعا ما . عندما انتهت الحفلة لم اقترب منها كما تخيلت نفسى فاعلا حتى الآن . وحتى عندما مرت بى حاملة كرسيها ، بقيت هادئا ثابت القوى . كان وجهها ما زال محمرا . لم تلحظنى من غير شك .

— لهذا لم اتوقف عن لعن نفسي . لم استطع ان افهم لماذا استأت من لعبة لا تضير شيئا كهذه . هل كان الاحساس بحبي الاناني ام شيء آخر ؟ وبعد عدة ايام ، ذهبت الى مهجعها ليلا . وسألتها : هل تذكرينني ؟ بدا عليها الاضطراب حيال شيء ما ، اذ كانت الدموع فى طرفى عينيها . ذهلت لما رأتني وهزت رأسها . وقلت : اذن . . حبيبك الوسيم والفاتن ذو الآفاق الواسعة قد شغل كل مكان فى تفكيرك ! لمحت انها ليست فى مزاج للمزاح . اخفضت رأسها وقالت : اى مزاح هذا ومن انت ؟ وكان جوابى : عامل مهزوم على مركب كان على وشك ان يقفز فى نهر اليانغتسى .

— أهو انت ؟

ونظرت الى كما فعلت من قبل ، وصفقت بيديها وقالت : آه . . قد تذكرت ! وبعد ان طلبت مني ان اجلس بدا عليها انها منشغلة . افتعلت ابتسامة ولكنها لم تجد شيئا تقوله . ثبت عيني عليها وضحكت كما فعلت على المركب . ما الامر ؟ هل هى مسألة حياة او موت مرة اخرى ؟ ماذا ؟ هل هو شيء مؤسف ايضا ؟ اين وشاحك الزهرى ؟ لم ترد بل جلست فاترة الهمة على فراشها وعليه الوشاح ذو العنقاوين . رمت ببصرها الى خارج النافذة بلاهدف . فى الخارج كان رذاذ الخريف . كم تمنيت ان تسألنى كيف اتيت للدراسة هنا وماذا حدث لى فى السنتين الفائتتين ! لكنها بعيدة اميالا عنى . وبعد صمت طويل قلت : هل سار كل شيء على ما يرام معك فى هاتين السنتين الماضيتين ؟ اخذت ترسم اشكالا بأصابعها على غطاء السرير . اى فرق فى هذا ؟

الناس امثالنا ممن ليسوا من عائلات جيدة او ليست لهم ارتباطات بالاوساط الادبية يجب ان يقنعوا بالعودة ويعلموا فى بلدة صغيرة على جانب النهر بعد سنة او اكثر . كانت هذه كلمات باردة . واضافت وعلى شفتها ابتسامة استياء : افضل قليلا من معلمة محترفة مثل امى . انها تعلم فى مدرسة ابتدائية . انا سأعلم فى مدرسة ثانوية . اضطرب حالى لأنها اصبحت غريبة عنى فجأة . وسألتها عما حدث ولكنها لم ترد بسرعة . واخذت الدموع تملأ مآقيها بالتدريج .

— فى الواقع . . لم يكن ثمة شىء خطير . زملاؤها لم يدعوها معهم لرحلة الخريف . ربما سها عليهم ذلك . انه لأمر عادى ان يسهى عن واحد فى فصل به كثير من الطلبة . ومع ذلك . . من يفهم ماذا يعنى هذا لفتاة شابة حساسة من بلدة صغيرة نائية ؟ قالت بأنها احست غير جديرة برفقة . ومما لا ريب فيه انها لم تسمع مازوركا او بولكا ولا تعرف من هو ديلاكروا وليس لها صديق او قريب من المثقفين او من المشهورين عامة . ولذلك لم تأتها الجرأة ان تطرق باب اى من الاساتذة . خشيت ان يظنوا بأنها غير مهذبة ، وفى اى حال لم تستطع ان تتفوه بكلمة فى مناقشة ممتازة ، وحتى لو استطاعت ان تقول بضع كلمات فانها تستخف بنفسها فقط . لذلك كانت فى منتهى الجدية . يمكن للمرء ان يلحظ مدى ما تحس به من جور وسخط . أكان ذلك ازدراء ؟ أكان ذلك نفورا من قبولها ؟ ام ثمة تعبير آخر لقول : انتظر لنرى ؟ ربما كانت هذه الثلاثة . لقد كان صوتها تماما مثلما حكت لى

عن نفسها على المركب .

الغريب .. ليس فحسب كنت منزوعا من العاطفة السابقة بل ايضا انتابنى احساس بالخسران والأسى . بدا كما لو اننى احلم فى نور الخريف الذهبى وفجأة اكتشفت اوراقا ميتة . لو كان ما قالته صحيحا فهل فيه غرابة ؟ كان الى جوار بحيرة الرمان ، كثير من اشجار التنوب بزغت من بين الاشواك والعليق . وكان هناك ، بلا شك ، براعم واتاها الحظ لأن تغرس جذورها فى تربة خصيبة . نفس الشيء مع بنى الانسان . هناك من انضموا الى فرق دراسية تدعى "لجنة تحدى الموت" وشباب فى ايديهم الكتب حتى فى ساعات الليل الاخيرة فى مغاسل المهجع . وكان هناك ايضا انماط رومانسية او من حصلوا على مراكز رفيعة عبر علاقاتهم . ومن الواضح ، كان هناك من شغلوا انفسهم ، فى مثل اسلوب كيسنجر ، فى "دبلوماسية مكوكية" بين دوائر النشر والهيئات الاكاديمية . لا جديد فى كل هذا . الغريب انها مستاءة من حادثة بسيطة كأن استثنوها من الرحلة او أحست بالخزى فى تلك الحفلة . لم يكن مستغربا ان تمتلئ الرفوف لديها بالكتب عن شوبان وبتهوفن ! فى البداية .. ظننت انها تدرس تاريخ الفن . والآن .. اكتشفت ان ذلك من اجل ان تفهم مازوركا او بولكا . وهكذا .. لم يكن فى قلبها سوى حب الزهو .

— وجب ان اعترف بأننى ما عرفت الا القليل عن ماضيها . لست ادرى ان كان احترام النفس او حب الزهو هو الذى حدا بها الى ان تخوض ايام المصاعب والصراع تلك . لا يهم ماذا يكون ..

كان ذلك مفهوما . ولكن . . هل هى الامور التى منحتنا قوة فى صراعنا مع الحياة ؟

ـ لهذا اصابنى الاحباط . ان ما كانت تهفو اليه ليل نهار كان مجرد حسد الآخرين . تذكرت انها ذكرت اسماء مونى وفان جوخ وماتيس وبيكاسو . وقد عرفت ايضا ان تنطق " او ـ اوغ " من حلقها او من انفها . هذا الرد المتسامى يقطع على الآخرين كلامهم . ماذا يعنى هذا ؟ الموافقة او اللامبالاة او الرفض ؟ الشيطان يعرف ! على اية حال . . هذه هى الموضة الآن . اظن ذلك جاء من الطلبة الاجانب . ذات مرة قالت لى باثارة مدهشة بأنها التقت احد تلاميذ امها السابقين ، وكان يعمل فى معهد للبحوث الادبية ، وكانت ستحكى له ان يزكى احد مؤلفاتها على امل ان يقدمها الى دنيا الشهرة .

ـ التقيتها ذات صباح لطيف . حكت لى كيف انها احتقرت بعض الناس الذين ازدروا بها . بدا انهم حملوا رسائل توصية من شخص هام الى البروفيسور قاو تانغ فى معهد البحوث الادبية . لم يخطر ببالهم الا قليلا ان يجدوها فى مكتب البروفيسور ، واقل القليل ان يروها تنشط بحيوية فى مناقشة رائعة مع البروفيسور قاو . لقد خرست ألسنتهم ! وظل زملاؤها فى الدراسة واحدا بعد الآخر يسألونها بعد ذلك : كيف عرفت البروفيسور قاو على هذا النحو الممتاز؟ لقد وصفت لى كل شيء وصفا حيا . فى هذه المرة كانت راضية كل الرضا بحق وحقيق . لقد فازت . ربما ظن زملاؤها انها اصبحت ذات شأن الآن وربما قبلت فى جماعتهم . لم

يعد لدى ما اقول بعد سماعها تتحدث بهذه المتعة . قاطعتها مبديا ملاحظة عابرة : انت فعلا تستحقين التهنئة . ثم تركتها .

— جلست على مقعد بجانب بحيرة الرمان طوال فترة بعد الظهر . كان نسيم اوائل الربيع يذرو الرمال جيئة وذهابا . ظلت صورتها تظهر امامى . . هذه الفتاة رأيتها الآن فى الجامعة والاخرى رأيتها على " النجم الاحمر — ٢١٥ " تطالع فى كتاب تحت ضوء الشمس الخافت . ربما ليس حق فى ان اتدخل فى حياة اى انسان . . او ربما مقدر لى ان اعانى من آلام الاحباط فى صميم قلبى . قد اصابتنى الدهشة . هل كانت كل المصاعب والصراعات التى مرت بها لا تعنى الا ان تضع نفسها فى تلك " الشلة " الصغيرة ؟ وعلى هذه الشاكلة . . هل كان يجب ان اصارع واناضل لأعيد نفسى الى " شلتى" القديمة ايضا ؟ كان ذلك مستنقعا يغرق فيه الانسان برغم حماسته ودأبه وموهبته . احمد الله اننى انتزعت نفسى منها ! آه . . التوتر والصراع ! فجأة امتلأت شجاعة وقوة . مصباح الشارع كان يتوهج فى الظلمة . انتابنى القلق للحظات . لماذا لا اذهب واراها ؟ لم لا ؟

— كانت على وشك ان تخرج لتقضى شأنا لها . ما هو . . لست ادرى . كان شعرها ملفوفا فوق رأسها . رائحة خفيفة من خشب الصندل تسير معها . بدا ان ملاحظتى العابرة لها بعد الظهر لم تكن تعنى لها شيئا . بدت الطف مما كانت ولما نظرت ناحيتى ارخت عينيها وميضا . انتابنى احساس ان ذلك ليس لى ، وانها كانت تتأهب للقاء شخص آخر . ابتسمت ابتسامة تنم عن اعتذار

وقالت انها مشغولة غير انها قالت انها تعرف سبب قدومى . من غير شك ، يلزمها ان تقدم اصدقاءها القدامى الى بعض المشاهير . ولكنها منشغلة جدا ، ولا يمكنها ان تعمل شيئا حيال ذلك . لا بأس . . ستؤدى ذلك فى وقت آخر . اكثر من ذلك ، قد فهمت اننا كلانا من جبال سيتشوان . اعترانى الخجل . فار دمى لاحساس بالاهانة . اضيئت الانوار فى المهجع المقابل ، فآلمت بصرى . فأغمضت عينى نصف اغماضة واخذت نفسا عميقا . قلت لها بأننى قدمت لسبب آخر . فسألتنى عندئذ اذا ما كان لدى شيء آخر . فقلت لها لا يوجد شيء وغادرت .

ـ كان ذلك فى يوم ٢٠ مارس . انت تعرف ما حدث فى جامعة س . فريق الكرة الطائرة الرجالى لبلادنا فاز على جنوب كوريا فى الشوط الحاسم للمباراة التمهيدية لكأس العالم ، وسر كل شخص للنبأ . كان الطلبة يصيحون من الفرحة ويقرعون الصحون والطشوت فى بهجة . خرج الآلاف منهم من مهاجعهم . اشعلوا المشاعل ودوى مزمار بلحن "مارش المتطوعين" * . وصاح كل شخص : لنتحد وننشط الصين ! وسارت مواكبنا حول بحيرة الرمان . . احتفلنا الليلة بطولها . ولما سرت فى وسطهم ، انهالت الدموع من مقلتى غزارا . ادركت فجأة ان كثيرين منهم كانوا مناضلين فى الماضى وما زالوا مناضلين الى اليوم . ربما ناضل بعضهم ضد حالة شخصية جائرة ولكنهم اكتشفوا اليوم هدفا جديدا ألا وهو

* النشيد الوطنى .

تنشيط بناء وطننا . كان هدفا ساميا . رأيت هنا ما لا يحصى من الشباب العاطفى يقدمون مساهمات لا تقدر فى كل مجال من حياتنا الوطنية .

— ومع ذلك . . ماذا تعمل شن بينغ ؟ هل يثيرها كل هذا ؟ أيمكن ذلك ؟ تذكرت "يوم التشجير" عندما خرجت الشعبة بكاملها الى ضاحية بكين . حدث ان كانت فى نفس السيارة معى . سار الاوتوبيس على حوض النهر الجاف المؤدى الى الجبال . كنا نلمح احيانا اكواخا صغيرة سيئة البناء على سفح الجبل او عددا من الاطفال يرعون الاغنام . وفجأة . . كأنما هزها شيء ، قالت : "كم صعبا سبر اغوار مصير الانسان ! ماذا بمقدور الانسان ان يقول ؟ كيف تحب ان تولد وتترعرع فى هذه الجبال الجرداء وتعيش بقية حياتك ؟ نظرت اليها عرضا وقلت : انت تهنئين نفسك . . أليس كذلك ؟ اومأت برأسها ايماءة خفيفة وقالت : بلا ريب ! يجب ان نعيش ونفعل شيئا . اذا كنا سعداء فقط بقضاء الوقت سدى فلن نعانى من اية آلام . وعلى اية حال ، اننى خائفة بالفعل لو كنت واحدة منهم . ما قالته كان عين الصواب . ارادت ان تنسى ماضيها . احست انها كانت محظوظة بأن لم تجرفها تيارات القدر الدوامة . وها هى وجدت حياة جديدة فى عالم جديد . لم تفكر مطلقا فى هذا الجبل الموحش او هذه القرية المنعزلة او رعاة الاغنام الشباب . ما علاقة ذلك بها على كل حال ؟ ربما حدثت فى الحياة امور سببت لها السخط او دفعتها للنضال بلا مبالاة ولا اهتمام ، ولكن من المؤكد انها امور ليست كهذه

ولا مثل تلك . آه . . ليس من المؤكد ان المناضلين فى نهاية الامر اناس عظماء . . أليس كذلك ؟

ـ فى تلك الليلة ، كتبت لها رسالة مطولة . . اكثر من عشر صفحات . سألتها ان كانت احست بخطر ان تجرفها تيارات الحياة القذرة . كان الناس مهتاجين . . يبدو انهم شديدو الانشغال بما لديهم من هموم . ماذا كانت ؟ المال والمصالح الذاتية ! حاليا . . غرق المجتمع كله فى هذه المياه المنتنة . امر محزن ولكنه حقيقة واقعة . اعربت لها عما يساورنى من قلق ، وخشيت من ان تسير على الدرب المدمر لها فى سعيها المسعور للشهرة وانتزاع الاعتراف بها اذا واصلت السعى لمصادقة اصحاب النفوذ ، وكل اسمائهم موجودة فى كتاب « من هو ؟ » . والحق اننى جرفتنى عواطفى . واصبحت حبيس مشاعرها التى اخذت تتنامى تدريجيا فى داخليتى منذ ان رأيتها على " النجم الاحمر ـ ٢١٥ " . اعترف ان ذلك كان حبا . وقلت لها ان هذا الحب غير القابل للمناقشة ولا التدمير هو الذى دفعنى ان اعرب عما يساورنى من امل وقلق .

ـ لم اكن عقلانيا اكثر من اللزوم . وفيما بعد ، سمعت ان لها صديقا . . طالب فى جامعة تشينغهوا وابن عالم مشهور (المعذرة لعدم ذكر الاسم) . النبوءة فى تلك الحفلة السخيفة قد اصبحت حقيقة . كان شابا ومبشرا بالامل وذا آفاق لا محدودة . اما بالنسبة لى فلم اكن الا انسانا عاديا فى نظرها . والاكثر من ذلك ، انهمرت من فمى كل هذه الكلمات غير الرحيمة . . حتى

المجنون ليس بوسعه ان يسطر لها رسالة حب .

— بعد ذلك وكلما التقينا نومئ بالرأس لبعض ولا نقول سوى : مرحبا . وسمعت من زملاء آخرين عن رأيها فى شخصى : غيور جاد على ما يظهر ، حساس .

رفع تشين جيانغ يديه الى صدره . وضغط اصابعه الى ان طرطقت المفاصل . لم يواصل كلامه وتجهم وجهه . وظلت ظلالنا ، تحت الاضواء الزئبقية ، تتحول الى اقصر فأقصر فى البداية ثم اطول فأطول .

— هل هذا كل ما فى الامر ؟

— كان لا بد ان يكون كذلك .

توقف قليلا ثم قال :

— يبدو ان المسألة لم تنته . والا لماذا اوقع نفسى فى متاعب التدخل فى حياة الآخرين ؟

٤

عدنا الى الفندق . ودخلنا جناحا ضخما بعد ان عبرنا من الابواب الدوارة . وجلسنا على الاريكة الطويلة .

— يهيأ لى اننى اتذكر الآن بأنك ناديتنى فى الاوتوبيس يوم السبت الماضى ولم ارد عليك .. صحيح ؟

اومأت برأسى وابتسمت .

— كنت مستاء جدا يوم ذاك . هذا هو السبب .

وقلت له :

ـ عرفت ان فى رأسك شيئا ما .

ـ كنت فى مسرح العاصمة وهناك التقيت صديقا . آه . . نعم ! كان من عصابة " موس القديم " و"كانغله" . كان ابوه يعمل فى دائرة للعلاقات الخارجية .

ـ هل لصديقك القديم هذا علاقة مع شن بينغ ؟

ـ ليس له علاقة . جاء الى بكين لقضاء عمل . وقد اكتشفت مصادفة ان شقيقته الصغرى ـ فتاة كنت اعرفها ـ قد وقعت فى الحب . والد صديقها هو ذاك العالم الذى حكيت لك عنه . قد فاجأنى الامر ومن الطبيعى ان استفسر عنه . لم يكن صديقها هذا سوى الشاب الذى مع شن بينغ .

ـ أحقا ما تقول ؟

ـ لقد صدمت بكل تأكيد . سألته بحذر شديد عما اذا عرف شيئا عن علاقة الحب بين شن بينغ والشاب . واستطرد فى الحديث كما لو كان يتحدث عن شيء لا قيمة لذكره . وقال : اعرف بالتأكيد . فتاة سيتشوانية من جامعتك . انها تتشبث به بكل شدة . قال لأختى انه منزعج وقد تعب منها ! اظن انه يلعب مع الفتاة . والمؤكد انه يجرى وراء اختى لأنه يريد ان يذهب الى الخارج . حصل على رسائل توصية من بعض الاساتذة . انه يريد ان يحصل على منحة معهد التكنولوجيا بولاية ماسوشيستس ، لذا يريد من العجوز ان يصله ببعض المتنفذين . هذا هو السبب . لم استمع لما قاله بعد ذلك . واعترتنى فجأة نوبة الم . جاءت

شن بينغ ببالى . كان ذلك التيار القذر ثانية ، تيار المجتمع القذر ، تيار الحياة القذر ! لم تكن شن بينغ الا ورقة عشب واقفة ضد الطوفان . الامر المحزن انها لم تعرف شيئا عنه على الاطلاق . . جاهلة به جهلا مطلقا ! ألم تقل بكل زهو ان صديقها سيسافر الى الخارج ؟ اوه ! انها مزهوة . . حسن . تريد ان تعلق الوشاح الزهرى مرة اخرى له ليراه من بعد آلاف الاميال . ولكن . . هل ادركت ان المركب الجديد مبحر نحو الاجرف ؟

— لدى عودة الاوتوبيس الى الجامعة ، لم احس اننى اود ان اقول شيئا ولا حتى حين قطعت التذكرة . لذا كان طبيعيا اننى لم اعبأ بالرد عليك . ظللت اسأل نفسى مرارا وتكرارا : هل اخبرها ؟ لو فعلت فهل ستصدقنى ؟ هل ستقول مرة اخرى بأننى غيور ؟ اكثر من ذلك : كيف يمكن للانسان ان يثق بتفسيرات ذلك الصديق الذى التقيته فى المسرح ؟ هل التزم الصمت ؟ عندئذ ، سيعانى ضميرى وسيبقى الالم دفينا فى قلبى . ادركت آنذاك ان الحب ولا سيما الحب الاول قد عاد الى ذاكرتى ، ولكن يصعب على المرء ان يحاول نسيانه . يمكنك ان تشعل النار فى الاعشاب البرية ولكن سيأتى نسيم الربيع وستعود اليها الحياة . ورغم اننى قوبلت بمثل هذه المعاملة ، لكننى ما زلت افكر فى تلك القرى البعيدة والنهر الواسع ووشاحها المهفهف ، خصوصا الآن . . نعم . . الآن !

— ثم عدت الى المهجع ، وكانت الانوار مطفأة . استلقيت فى هدوء . زملائى فى السكن كانوا يتحدثون كالعادة عن هذا

الشخص او ذاك . . كيف وجد شخص فتاة من نمط باو تشاى * . . كيف لفتاة حلوة بريئة قد ارتكبت سخافة بأن اوقعت نفسها فى فخ انسان طماع او باحث عن الشهرة ، كيف وكيف يجرى ترتيب الوظائف عبر العلاقات الاجتماعية او كيف ينشغل الناس فى " الدبلوماسية السرية " فى امور تتعلق بالدراسة فى الخارج . . الخ . تضايقت من هذا الكلام . كان نفس التيار القذر مرة اخرى ؛ اصبحت ادرك بوضوح . وزمجرت ساخطا : حسنا ! لنترك عن الكلام ونذهب للنوم ! ارتعبوا جميعا وغرقوا فى الصمت ، ولكن عينى لم تنعما بلحظة من نوم تلك الليله .

— بعد ان نهضت فى الصباح ، عزمت ان احكى لها كل شىء . لا يهمنى ان صدقتنى ام لا .

— رأيتها ساعة الفطور . كانت تجلس على الطاولة المجاورة . حملت صحنى وجلست الى جوارها . ذهلت واومأت برأسها ولكنها ليست واثقة منى تماما . قضمت لقيمات من الخبز المبخر فى صمت ، ثم بدأت : " شن بينغ : انت — كيف انت والحياة ؟ " يا للسماء ! اى حديث هذا ؟ حتى انا نفسى بدأت اشك ان " نية سيئة " وراء هذه الكلمات . فقالت : " انا بخير . " فى نظرتها لمحت الريبة وعدم الثقة . وقلت : " سمعت ان صديقك — هل سيذهب الى الخارج ؟ " وردت : " ليس بعد . قد نجح

* باو تشاى وردت فى الرواية الصينية الكلاسيكية « حلم فى القصر الاحمر » كانت جميلة وعلى دراية بأساليب الحياة .

فى امتحان ' التوفيل ' وينتظر فى جواز السفر . قد يستغرق هذا شهرا او اكثر . " كم بدت محنكة الآن ! الرضا والخيلاء كانا مستترين فى لا مبالاتها . " التوفيل " . . "جواز سفر" . . . انت تعرف ان هذه الكلمات هى الموضة الآن . كلما جاءت عرضا على لسانك كلما بدوت راقيا . ماذا كان يمكننى ان اضيف الى قولى ؟ اعرف ما قد يحدث لو قلت كل ما اردت قوله حقا . اصابنى التردد . . عقد لسانى .

— بدا كما لو اننى سأفعل اكثر شيء لامعقول . من حسن الحظ اننى لم افعل . . لو حصل لكان ذلك سخيفا . على اية حال . . ربما كان لذلك القرار علاقة بمزاج اختفى منذ سنين عديدة ورثته كابن كادر . عرفت عنوان صديقها وصممت ان اتحدث اليه واسأله ان كان يلعب بهذه الفتاة الريفية البسيطة . لو حدث هذا كنت سألقى عليه الى ان يعترف بخطئه . يا لها من فكرة مدهشة ! رومانسية ! كم اشبه فارسا ! لم اعرف كيف جاءتنى هذه الفكرة . بعد عدة ايام ، ذهبت لزيارته ليلا .

— لم يكن موجودا بالبيت . قالت امه بأنه مشغول جدا . لقد حصل على جواز السفر منذ فترة طويلة وسيسافر الى امريكا بعد غد . هذا النبأ اقنعنى اشد الاقناع بأن المسرح قد اعد لمأساة شن بينغ . من الواضح انها لم تعرف انه مسافر عما قريب .

— كل ما قدرت عليه ان احوم خارج الباب فترة ثم انصرفت . وفيما انا خارج من العمارة رأيت شن بينغ وشابا عن بعد واليد فى اليد . كانا قادمين باتجاهى ، واسرعت فى الابتعاد من امامهما .

كانت ترتدى بلوزة حريرية رمادية فاتحة وحول خصرها حزام من حرير جعل من قوامها رشيقا . كانت شرابة الحزام تهتز وهى تسير . بدت طبيعية رابطة الجأش ، رشيقة ، ثابتة ، لا تحمل اى مظهر لبنات الارياف . من المؤكد انها تعتبر نفسها محظوظة . . تبدو عليها السعادة اليوم . . ومن غير شك ترى انها ستكون سعيدة ايضا فى المستقبل . لم تعرف شيئا عما هو مخبأ لها . اما بالنسبة لى ، فكل ما استطعت عليه هو ان اراقبها تدخل معه ذلك المبنى الكئيب .

— سرعان ما حل الظلام . وظهرت الانوار فى المبنى . قطرات المطر كانت تنزل على رأسى . لم افعل سوى ان اروح واعود امام المبنى .

— فى الطابق الثالث ، ظهر ظلان كبيران على ستارة النافذة الناصعة البياض بالجانب الشرقى . هما هناك . . ربما كان يحكى لها الحقيقة الآن . سريعا — هكذا تخيلت — ستخرج شن بينغ والدموع تسيل من عينيها وستتعثر فى مشيتها فى رذاذ الليل . كانت الدنيا بالخارج شديدة السواد . ربما قدمت لها يد العون لو اطلت البقاء . على الاقل . . يمكن ان اتبعها من بعد الى ان تدخل الى مهجع الفتيات . . وفى نفس الوقت اخشى ان اراها تخرج . . لا ، لتخرج كما تشاء . . .

— كانت الساعة العاشرة . وما زال الظلان يتحركان على الستارة . رأيتها تمشط شعرها . نظرت الى تلك الهيئة غير الغريبة عنى . منذ ثلاث سنين ، عندما مر " النجم الاحمر — ٢١٥ "

بقمة " الالاهة " عند الفجر ، كانت واقفة على السطح تنظر الى فوق وكانت الريح تداعب شعرها . كانت تمشط شعرها ... حينذاك كنت واقفا بباب غرفة الآلات اراقب قوامها الرشيق . اما الآن فآلمنى قلبى فجأة لأن النور فى النافذة فوق انطفأ . انطلقت عبر الوحل ، وما هى الا خطوات حتى وجدتنى على سلالم الطرف الشرقى من المبنى .

ـ الشيء الجيد انني كنت صادق الاحساس فى الدقيقة الاخيرة . عندما وصلت الى الطابق الثانى وقفت وساءلت نفسى : لماذا انت هنا ؟ تراجعت ونزلت . اغمضت عينى وتركت المطر ينزل على وجهى فترة من وقت . ثم اتجهت خطواتى الى الطريق المعتم وحملتنى قدماى فى بطء ، وبعد عشرات الخطوات ، التفت لأنظر ثانية الى النافذة المعتمة . آلمنى قلبى . آلمنى من اجل شن بينغ ، من اجل امها ، من اجلى انا نفسى . تمنيت لو كان كل ما سمعت فى مسرح العاصمة مجرد كلام فارغ .. حفنة من الترهات . السماء ارادت ذلك ! لو كان ذلك صحيحا فهل ستكون سعيدة الآن وكم يطول ذلك ؟ أتنتظر عودته فى بحر سنة أو سنتين ؟ هل ستسعد فيما بعد ؟ وبقيت افكر . ربما فعلت ذلك لسعيها وراء كل هذه الامور الضحلة . من يعرف ؟ ربما ادى بها ذلك الى ان تفهم على نحو عميق كنه الحياة ! لو كان ذلك كذلك فاننى سأنسى اننى رأيتها فى هذه الليلة . ولو كان ممكنا فلربما قلت لها بأننى ما زلت احبها ...

توقف تشين جيانغ عن الحديث . اتكأ على الاريكة وعيناه

مغمضتان كما لو يحاول جاهدا ان يهدئ من عواطفه الجياشة .
وسحب نفسا عميقا من سيجارته ثم نفث الدخان بشدة حولنا .
ـ ماذا حدث لشن بينغ بعد ذلك ؟
ـ لست ادرى . كل هذا حدث قبل يوم امس .
وتنهدت بشدة .
رمقني بعينيه وابعد السيجارة وقال :
ـ لماذا تتنهد ؟ قد قلت لك بأن هذه هى مأساة من مآسى الحياة . ستعلمنا على ان نفكر اكثر قليلا ولنكون احرص قليلا .
اومأت برأسي وقلت :
ـ هذا صحيح . ولكنك لم تقل لى ما علاقة هذا كله بعدم ظهورك فى حفل الجوائز وترى والدك مرة اخرى .
وضحك وقال :
ـ اوه ! قد كدت انسى هذا .
وبعد ان توقف قليلا اضاف يقول :
ـ ربما كنت لست فى حالة تسمح لى باللقاء . ظهورى امام والدى وشارة الجامعة على صدرى وجائزة فى يدى .. حسن .. أليس فى هذا مدعاة لأن ازهو به ؟ اجل .. ولكنى لا ارى شيئا فى هذا . سيذكرنى بالوشاح الزهرى على " النجم الاحمر ـ ٢١٥ " . الحياة طويلة . سيعترينى الخزى فعلا من هذا المشهد الجليل . هذا اولا . وثانيا : لست ادرى ان كنت انت فهمت ام لا ولكن متى ما عرف الناس من هو تشين جيانغ فسأكون فى دائرة الاضواء وسيجرنى عديد من الاصدقاء القدامى الى " موس

القديم » و «كانغله » مرة اخرى . لست موقنا ما اذا كانت لدى الشجاعة المعنوية لأصمد امام هذه الامور الآن . الحق اقول لك . . وجب فعلا ان اشكر شن بينغ . فقد جعلتنى افكر فى امور كثيرة وفى الصراعات الجارية فى الحياة .

ـ ألن ترى والدك ؟

ربما كانت تلك عادتى المهنية ولكننى احسست بالرثاء فى ان يفوتنى هذا المشهد الدرامى .

ومرة اخرى . . جلجل تشين جيانغ ضاحكا :

ـ لماذا انت ملحاح ؟ عندما اشعر بالتحسن واكون فى حالة طيبة سأعود الى البيت فى اى وقت . ولكن لن يكون لهذا كبير قيمة اذ ان ابنا يعود الى البيت ويزور والده .

وفيما نحن بانتظار المصعد سألته :

ـ لماذا لا تدون كل ما سمعت منك ؟ ثمة مادة فى هذا لرائعة ادبية اخرى .

ـ اكتب على كل هذا ؟ لا يمكن . . لا يمكن . . انا وهى زميلان فى نفس الجامعة . لو نشرت هذا فسيسبب كثيرا من الاحراج .

وهز رأسه ، ونظر الى فجأة وابتسم :

ـ لماذا لا تكتبه انت اذا كان يهمك ؟

ـ أتحكى بجد ؟

ـ ما هو الفرق فيمن يكتب ؟ ليس لدى اى « حقوق طبع » لذلك وانت تعرف .

وبعد قليل من التفكير اضاف يقول :

ـ اذا ما اعاد الانسان التفكير فلربما كان ذلك افضل وسيلة لقول ما اردت قوله الى شن بينغ . وانت خير انسان تفعل ذلك .

فهمت ما كان يرمى اليه .

وهكذا سطرت هذا النوع من القصة الاخبارية مع تغيير فقط فى اسماء الناس والاماكن .

كلمة عن المؤلف



تشن جيان قونغ من مواليد العام ١٩٤٩ فى بيهاى بمقاطعة قوانغشى . انتقل مع اسرته الى بكين فى سنة ١٩٥٧ وتخرج فى المدرسة المتوسطة التابعة لجامعة الشعب الصينى فى سنة ١٩٦٨ . وبعد ذلك عمل لعشر سنين فى منجم جينغشى للفحم (غرب بكين) . وفى سنة ١٩٧٧ ، قبل فى شعبة الادب الصينى بجامعة بكين . . تخرج فى سنة ١٩٨٢ . وحاليا ، يشغل عضو مجلس الادارة لاتحاد الكتاب ببكين ، ويحترف الكتابة ويساعد فى اعمال التحرير . وقد اصبح عضوا فى اتحاد كتاب الصين فى سنة ١٩٨٢ .

بدأ تشن جيان قونغ يكتب فى سنة ١٩٧٣ . ونشرت له اعمال شعرية ونثرية وقصص قصيرة وغير ذلك من ابداعات . منذ عام ١٩٧٩ ومؤلفاته « النهر المتعرج » و« الحكيم الابله فى جينغشى » و« الحكم بعد الموت » و« زقاق البكرة رقم ٩ » ، تلقى استحسانا شديدا لدى القراء . وقد اختيرت

قصتاه « عيون العنقاء » و« الوشاح الزهرى المهفهف » بين احسن القصص القصيرة لعامى ١٩٨٠ و١٩٨١ . فى سنة ١٩٨١ ، نشرت له مجموعة قصص قصيرة تحت عنوان « السماء الساحرة المرصعة بالنجوم » .

حكاية بحيرة ناور الكبرى

وانغ تسنغ تشى

١

ناور الكبرى . . اسم غريب لمكان لا يعرف معناه الا القليل القليل من الناس فى المحافظة . والحق انه لاسم غريب لا وجود له فى اى مكان بالمنطقة . بعض الناس يقول انه من اصلى مغولى . . ربما يعود الى اسرة يوان (١٢٧١ — ١٣٦٨) . وعلى كل حال ، لا يمكن التحقق مما اذا كان للمكان اسم آنذاك او ما اذا اعطاه الناس اسما قبل ذلك الوقت .

ناور . . مسطح مائى كبير ، ليس واسعا كمثل بحيرة ، ولكنه اوسع بكثير من حوض . ولكن ناور تبدو لا حدود لها عندما ترتفع عاليا فى موسمى الربيع والصيف . وهى منبع لنهرين وفى وسطها قرارة رملية ضيقة يغطيها العشب والقصب . عندما تصبح المياه فى اكثر دفئا فى اوائل الربيع تتحول البراعم الحمراء الارجوانية للقصبات والشيح الرومى الاخضر الضارب الى الرمادى ، الى اللون

الاخضر . وفى الصيف ، تتمايل سنابل العشب البيضاء فى لون الثلج والقصب ، مع النسيم . وعندما تتحول الى اللون الاصفر فى الخريف يجرى تقطيعها وتستخدم للسقوف . القرارة الرملية هى اول ما يتحول الى اللون الابيض عندما ينزل الثلج شتاء وآخر ما يذوب . ويبقى الثلج هناك يتلألأ فيما يذوب الجليد متحولا الى مياه زرقاء تجرى فى النهر .

تشكل القرارة الرملية مستجمع ماء بين النهرين فى ناور الكبرى. وفى الايام الماضية اذا ما اتجه المرء شمالا مستقلا قاربا على طول الجانب الغربى ، لمح مجموعة من المبانى وسط كتل من اشجار الصفصاف فوق رابية صغيرة عند ناور. ومن خلال اغصان الصفصاف الخضراء يمكن رؤية ثلاث كلمات كبيرة مطبوعة باللون الاسود على جدار ابيض : "رعاة البط والدجاج" . وفى الامام قطعة ارض صغيرة حيث يجلس هناك من يجلس على جذوع الشجر تحت نور الشمس . ومن آن لآخر ، كان هناك من يخرج حاملا سلتين خيزرانيتين مغطاتين بشباك ، مليئتين بكتاكيت وبطات صغيرة مسقسقة ذات زغب اصفر .

وكان الى الشرق من القرارة الرملية معمل كان يصنع ويبيع النشاء . وكان الناس يحبون ان تنشى ملابسهم واغطية الحفتهم ، اذ ان ذلك كان يشعرهم بالانتعاش والنظافة . وكان النشاء بخس الثمن .. يصنع من ثمار غورغن عن طريق طحنها وتذويبها وعجنها وتجفيفها . وكانت تكفى دريهمات معدودة لتنشية كومة كاملة من الملابس واغطية الملاحف . كان هذا المعمل هو

الوحيد الذى يزود المحافظة بالنشاء ، وعلى ذلك كان صغيرا ، يعمل به اربعة الى خمسة من العمال اضافة الى حمارين يتناوبان العمل على الطاحونة . وفى خارج المعمل ، كانت اكوام بيضاء مزغللة للعيون من النشاء تجفف تحت الشمس . وبالقرب من المعمل . . حانوت يبيع كل ما امكن الحصول عليه من النهر مثل الكستناء المائية ورؤوس السهام والحسك المائى وجذور اللوتس . وكانت هناك سوق سمك تجمع وتوزع السمك والسلطعون ، اضافة الى مستودع لشراء الاعشاب . ووراء ذلك ، كانت الحقول وحظائر الماشية والسواقى . وكانت الاقراص الكبيرة من روث الابقار ملصقة على جدران الاكواخ لتجف . . لاستخدامها وقودا . كان مشهدا ريفيا بالفعل . والى الشمال ، كانت القرى فى بيشيانغ ، فيما يمكن الوصول الى محافظة شينغهوا المجاورة عبر ييقو وارقو وساندوه .

وعلى الشاطئ الجنوبى لناور الكبرى بيت خشبى اخضر كان فى السابق مكتبا لشركة بواخر . وكانت هناك غرفة انتظار على جانب وعلى جانب الماء كان رصيف الميناء . وكانت تتردد باخرة صغيرة بين هذا المكان وشينغهوا ، تغادر فى ايام وترية وتعود فى ايام شفعية . كانت الباخرة مبهرة الطلاء ، تتدلى منها اعلام زاهية الالوان ، فكانت مثيرة المنظر بمحركها المحدث دويا ودخانها الاسود الخارج من المدخنة . كان هذا المكان عاجا بالحركة والنشاط فى تلك الايام . فالحمالون يحملون ويفرغون البضائع ، والركاب يصعدون او ينزلون ، والباعة يحملون لحوم البقر وخمر

الذرة الشامية والفول السودانى وبزور البطيخ والحلوى السمسمية .
وعلى اية حال ، وبعد خسائر باهظة ، باع المساهمون الباخرة واغلقوا الشركة غير ان المبنى الخشبى ما زال سليما . وهو اليوم خاو . وليس سوى بعض الاولاد الاشقياء من المنطقة المجاورة يلعبون فى حجرة الانتظار ، يقلدون الفنون البهلوانية فى الاوبرات الصينية او يتنافسون مع بعض فى التبويل على رصيف الميناء . . يقف سبعة او ثمانية منهم فى صف ويبولون فى الماء ليروا من هو يبول الى اقصى مكان .

كانت ناور الكبرى ايضا اسما للارض حول الماء حيث التقت المدينة مع الريف . كان هناك زقاق طويل جنوب الدار الخشبية لشركة البواخر يؤدى الى شارع خارج بوابة المدينة الشمالية . كانت ناور الكبرى قريبة من المدينة فكان صخب المدينة مسموعا وان كان فى خفوت ولكنهما مختلفتان كاختلاف الطباشير والجبنة . لم يكن فى ناور الكبرى ولو دكان واحد ولكن كان لها الوانها وضجيجها وروائحها . حتى المواطنون كانوا مختلفين . . حياتهم وعاداتهم واخلاقهم كانت غير تلك التى لقاطنى المدن الذين كانوا يلبسون الجلابيب الطويلة ويدرسون الكلاسيكيات الكنفوشية .

٢

وغير بعيد الى الشرق والغرب من شركة البواخر ، كان مستوطنتان مختلفتان فى اسلوب الحياة وفى العادات .

المستوطنة الواقعة الى الغرب قامت فيها بيوت منخفضة قرميدية السطوح ، ومعظم اهاليها من الباعة الجائلين من مناطق على طول نهر ليشيا .. يبيعون الفجل والكستناء المائية المجففة والزعرور الصينى وجذور اللوتس المغلية وفتحاتها محشوة بالرز الغروى . وكان رجل من باوينغ يبيع نظارات فى حين كان آخر من هانغتشو يبيع عيدان طعام خيزرانية . كانوا كالطيور المهاجرة ، يأتون بانتظام ويستأجرون غرفة من صاحبها ، ويقيمون فترة من وقت ، قد تطول وقد تقصر ، ثم يغادرون بعد ان يفرغوا من بيع ما لديهم من بضاعة . كانوا يبدأون يومهم فى العمل مع طلوع الشمس ولا يتوقفون الا بعد غروبها . كانوا بعد تناول الفطور ، يحملون بضاعتهم على ظهورهم او على اكتافهم او على اذرعتهم او فى ايديهم ويتجولون فى الشوارع وينادون على الزبائن بلهجات متعددة وترنيمات متباينة . وفى المساء يعودون مثل الطيور الى اعشاشها . وقبل ان يمر طويل وقت ، كان ينبعث من الطنوف دخان من وقود رطب يحمل رائحة حلوة وان كانت لاذعة . كانوا باعة متجولين يسعون وراء قليل من المال . وكانوا لأنهم بعيدين عن مواطنهم يبذلون قصارى جهودهم فى ان يكونوا ودودين ومتحلين بالصبر . عاشت مستوطنتهم دائما فى امان ونادرا ما حصل هناك اى نوع من المشاحنات او المشاجرات .

وكان من بين المقيمين قرابة عشرين سباكا من شينغهوا . كانت المواد القصديرية واسعة الاستخدام فى هذه المنطقة .. وكان لدى كل عائلة مواقد بخور وشمعدانات ومباصق وغلايات

واباريق شاى ودنان خمر ، حتى النونية المهجعية كانت تصنع من القصدير . وعندما تتزوج فتاة يهديها والداها طقما من الاوانى القصديرية عوضا عن المهر : وعاوان من القصدير على الاقل ، يتسع كل منهما لخمسة كيلوغرامات من الارز ، ويوضعان على خزانة . وعندما تنجب امرأة مولودا جرت العادة ان يقدم والداها لها الهدايا . . دجاجتين ومئة بيضة اضافة الى حساء الارز الغروى فى اناءين من القصدير كانا موضوعين على خزانة امها . لذلك كان عمل السباكين العشرين يؤدى ثمارا طيبة .

عمل السباكة لا يحتاج الى مهارة كبيرة . . وكانت ادواتهم بسيطة : حمالة كتف مع منفاخ وبعض اطباق من القصدير بطرف ، وبالطرف الآخر موقد فحم وطوبتين من آجر بمساحة قدمين مربعين وعدد من الاوراق ملصقة على جانب . كانت الادوات القصديرية تطرق بدلا من الصب فى الشكل المطلوب مباشرة . وكانت المادة – ادوات من قصدير بال يتم صنعها – يقدمها الزبائن عادة . وكان السباك فى المعتاد يضع حمولته فى مدخل بيت الزبون او فى الارض العراء على قارعة الطريق . وهناك يشغل المنفاخ ويضع القصدير القديم ليصهر فى الوعاء فى حين يضع الطوبتين الى جانب بعض واطراف الورق تقابل بعضا وبينها حبل ملتف بشدة فى الشكل المطلوب . ثم يصب السائل بين الطوبتين ليضغطه فى لوحة يقطعها بمقص معدنى ، ثم يهوى بمطرقة على السندان . ولما يطرق القصدير جيدا يصبح عمل المواد ليس فى صعوبة صنع المواد النحاسية كما لا يصدر ضجيجا . ويمكن

تشكيل الاناء فى وقت ليس اطول من تناول وجبة الطعام ويسلم الى الزبون كى يستخدمه . واذا اراد اتقان صنعها خدشها ثم صقلها بورق السنفرة ثم حكها بنوع من العشب الى ان تلمع .

هؤلاء السباكون كانوا امناء وكانت مساعداتهم جمة لبعض . . كانوا يعتنون بالمرضى منهم ولم يحدث ان نشب تنافس فيما بينهم حول زبون . واذا ما اشتركوا فى عمل حددوا العوائد على نحو عادل . وكان زعيمهم رجلا عجوزا اطاعوه جميعا . كان انسانا مستقيما وفى غاية الحزم مع كافة السباكين الآخرين الذين كانوا اما اصغر منه واما صبيانا له . منعهم من المقامرة والشراب والتسكع وراء النساء ، واوادهم ان يكونوا هم الاكثر امانة وألا يغشوا ويخدعوا . وكان يصر على ألا يحدثوا مشكلة وألا يتحملوا اية اهانة . ولم يكن ليسمح لهم بالتجول فى الشوارع الا اذا كان ذلك لعمل .

كان السباك العجوز ماهرا فى الملاكمة الصينية فعلم غيره الفنون العسكرية . وكان يحفظ فى غرفته عددا من النبابيت والعصى المكونة من ثلاثة اقسام . واذا لم يكن لديهم عمل كان يدربهم اثنين اثنين ، على زعيم ان هذه وسيلة جيدة لقضاء الوقت كما انها مفيدة للدفاع عن النفس . وكانوا يتسلون ايضا بانشاد الاوبرات المحلية المشهورة . وكلما هطل المطر لا يخرجون . . كانوا يقضون اليوم بطوله فى الغناء — احيانا يضعون المكياج ويرتدون الازياء المسرحية . ومع ان الالحان كان بسيطة ، كانت الحكايات مشوقة . وكانت الفتيات والنساء القاطنات قريبا يتجمعن للمشاهدة والاستماع .

وكان احد الصبيان : ابن اخ السباك العجوز وكان اسم الدلال : الولد الحادى عشر ، اذ كان المولود الحادى عشر لاسرته . وعرف باسم السباك الشاب . كان ذكيا ووسيما ، وكان يسبب القلق لعمه . كان متناسق الجسم .. عريض المنكبين نحيل الخصر . وله عينان وقادتان تحت حاجبين كثين . وكان يعتمر قبعة من قش ويرتدى ملابس انيقة دقيقة الحياكة وينتعل حذاء اسود . فى الجو القائظ ... كان يفك ازرار قميصه ، كاشفا عن صدر عريض وحزام ابيض ناصع البياض عرضه خمس بوصات ، مشدود حول خصره . وكان يتخايل فى مشيته اذا ما مشى . مثل هذا الشاب الرائع كان نادر الوجود بين جماعة السباكين .. كان كمثل العنقاء فى قن الدجاج . وكان السباك العجوز شديد الحذر وواعيا انه عندما تتجمع الفتيات والنسوة لسماعهم وهم يغنون انما يأتين فى الواقع اعجابا بابن اخيه .

ودائما ما نبه الولد الحادى عشر بأن يبتعد عن النساء والفتيات المحليات ولا سيما اولئك اللواتى يسكن فى الطرف الشرقى . كان يقول له : " انهن يختلفن عنا . "

٣

الى الشرق من شركة البواخر ، كانت بيوت جدرانها من اللبن وسطوحها من القش . وقد اضيفت قطع من الجرار فى كل طرف من غالبية السطوح لحفظ القش من ان تبدده الرياح . وكان

المقيمون هناك يعملون حمالين لأجيال . الرجال والنساء ، الكبار والصغار . . كانوا ذوى كواهل قوية احتاجوا اليها لتدبير شؤون معيشتهم .

وكانوا فى الاغلب الاعم ينقلون الارز من المراكب التى رست عند ناور الكبرى . ثم ينقلونه الى دكاكين الارز او الى صوامع العائلات الغنية او الى مراكب كبيرة اخرى ترسو عند هويس لوتشوات خارج البوابة الجنوبية للبلدة كى ينقل عبر القناة الى مناطق اخرى . احيانا . . كان يتحتم عليهم ان ينقلوا احمالهم الى ارصفة بعيدة مثل تشيلوه او خليج مابنغ على بعد ميل الى ثلاثة اميال . كانوا يسرعون الخطوات بلا توقف للراحة ، وطوال الطريق تنبعث الاغانى من افواههم . كانوا يسيرون فى طابور من عشرة الى عشرين ، يحمل كل منهم ما لا يقل عن خمسة وسبعين كيلوغراما . وكانوا ينقلون احمالهم من كتف الى آخر فى تناسق مع الحركة التالية لمن فى المقدمة . وكانوا يتسلمون فى مقابل كل حمل قطعة من خيزران بطول قدم ونصف وعرض بوصة واحدة ، احد طرفيها احمر والآخر ابيض . وكانوا فى المساء يتقاضون حسب عدد القطع التى جمعوها .

وحملوا غير الارز : الطوب والقرميد والجير واعواد الخيزران وزيت التونغ . . كان العمل لا يتوقف على مدار السنة ولم يحسوا ابدا بجوع .

وعندما كان يبلغ اولادهم الثالثة عشرة او الرابعة عشرة يبدأون فى حمل نصف حمل فى سلتين من الصفصاف . وبعد سنة او

سنتين ، تشتد اعوادهم بما يكفى لحمل الحمل بكامله ويكون مكسبهم كمثل الكبار .

كان الحمالون يحيون حياة بسيطة . . يكسبون قوتهم بعرقهم . ويتناولون ثلاث وجبات من الارز فى اليوم . مطهوة على جرة صلصالية بداخلها فتحة ، اذ ليس لديهم مواقد حقيقية . لم ينفقوا مالا على الوقود لأن القرويين الذين يحملون الاحطاب الى السوق كان يتساقط منهم بعضها فى الطريق وكان الاطفال الصغار يجمعون ذلك بمجارف من خيزران . واطلق الناس عليهم لقب "شياطين المجارف" . وكانوا احيانا ، وتجنبا لكثير من المتاعب ، يخطفون حزمة من الحطب من فلاح ويفرون كالريح . وعندما يضع الفلاح حمله ويبدأ فى كيل السباب والشتائم يكونون قد اختفوا عن الانظار . ولما كانت الجرة لا منفذ سليما لها يتسرب منه الدخان عند الطهو ، كان يتسرب من كل مكان وجد فيه منفسا ، ثم يخرج من الشبابيك او الابواب ، محوما على سطح ناور الكبرى ويتجمع هنالك . هذه العائلات لم تعرف تخزين الحبوب ابدا . كانت تشترى من الطعام ما يكفيها اليوم فقط . وكان الارز الذى تتناوله غير مضروب . وكان الرجال يقرفصون خارج بيوتهم لدى تناول وجباتهم . . فى ايديهم اطباق من الارز بالخضروات او سمك صغير او جبنة فول صويا محفوظة او فلفل مخلل . وكانوا يلتهمون الطعام بشهية كأنما لا شىء فى الدنيا اكثر شهية منه .

وكانوا يحتفلون برأس السنة والاعياد الاخرى بأن يرتدوا ملابس نظيفة ويقيمون الولائم ويقامرون . وكانت مقامراتهم ان يضعوا

عشرا او عشرين من القطع النقدية على الارض فى كومة عالية ثم يلقون ، كل بدوره ، قطعة نقدية على ما يراهن به ، ويجمعون مكاسبهم من النقود التى سقطت . وثمة لعبة اخرى هى تدوير النقود . كان يؤتى بطوبة وتسند من طرف لتكون على شكل مائل وتوضع اكوام النقود على الارض . وكان المقامر يدور قطعة النقد على الطوبة . . يأخذ النقود اذا ما وقفت القطعة على بعد خمس بوصات من الكومة . . ولو كانت سبع بوصات كان لا بد له من ان يخسر نفس مقدار النقود على الكومة . كان الحمالون يمتعون انفسهم فيما كان المتفرجون يهللون ويتصايحون .

كانت الفتيات والنسوة قويات كما الرجال . كن يقدرن على حمل ما يحمله الرجال ويمشين بنفس سرعتهم . ركزن على نقل منتوجات مائية ربما لأن الرجال اعتبروا ان ليس من اللائق نقل احمال يتقاطر منها الماء . كن جميلات رشيقات ووضعن دهانا على شعورهن السود الكثيفة ، لذا كان " لامعا ملسا حتى تزل عنه اقدام الذباب" كما يقول المثل الشعبى . وكانت شعورهن معقوصة على هيئة كرة كبيرة فى مؤخر رؤوسهن مربوطة بصوف احمر يرى من بعيد . وكن يزين جانبا من الشعور المعقوصة . وفى عيد تشينغمينغ (عيد الصفاء والنقاء) ، كن يصنعن كرات من الصفصاف بأن يقطع غصن صغير من الصفصاف ويوضع طرف فى الفم ثم نزع اللحاء باتجاه الطرف الآخر ومن ثم يشكل كرة . . وفى عيد زورق التنين ربما كانت الكرة من اوراق الشيح . وفى مناسبات اخرى ربما كان الغردينيا او الدفلى فى الموسم ، او زهرة مخملية

حمراء كبيرة اذا لم يتم الحصول على زهرة طازجة . وكانت اكتاف بلوزاتهن مرقعة نظرا لأنهن كن يحملن على اكتافهن الاحمال طوال العام تقريبا . وكانت البلوزة القديمة ذات الرقع الجديدة من مختلف الالوان هى الرداء المميز للنسوة فى ناور الكبرى . يا له من منظر رائع ان ترى عشرين امرأة يسرن فى صف واحد يتمايلن كأغصان الصفصاف فى الريح وهن حاملات اثقالا من الكستناء المائية الارجوانية والحسك المائى الاخضر وجذور اللوتس الابيض الثلجى .

وكانت النساء يكسبن مثل الرجال ، وكن كالرجال يمشين بخطوات شديدة ويمددن ارجلهن بعيدا عن بعض . كما انتعلن صنادل قشية كما الرجال ولكنهن كن يصبغن اظافر اقدامهن ببلسم الى لون احمر . ولكن لم يكن يحفظن ماء وجوههن . وكن يتحدثن ويشتمن كما الرجال مستخدمات ذات الالفاظ القبيحة مثلما الرجال ، بل كن يغنين اغانى وقحة . . .

وكانت غير المتزوجات اكثر حشمة ، واذا ما تزوجن سلكن مسلكا جلفا كما احببن . كان هناك اعزب عجوز يدعى هوانغ هاى لونغ كان قد اشتغل حمالا وهو صغير . وفيما بعد ، اوذيت ساقه ، وكلف بالعمل على الرصيف ليهتم بمراكب الارز وجمع قطع الخيزران . كان متقدما فى السن ولكنه احب ان يلمس صدور النساء او يقرص الكفل . ونظرا للسن فى العشيرة ، كان يتوجب على النساء ان يخاطبنه فى ادب على اساس انه عم كبير ولكنهن جميعا اطلقن عليه لقب " اللحية العجوز القذرة " . وفى

يوم ، وقبل ان يمارس ألاعيبه القديمة ، وضعت عدد من النسوة خطة . وشرعن فى التنفيذ على ضوء اشارة ، وفى طرفة عين جرى القاء بنطلون الرجل فوق شجرة . وفى مرة اخرى ، عندما سمع العجوز بأصوات الخيزران لبيع الشعيرية مع الفطائر جالت ببال العجوز افكار سخيفة .

وقال متحديا :

— من منكن تجرؤ ان تستحم فى ناور ؟ أراهن اى واحدة بطبقين من الشعيرية بأنها تجرؤ ؟

— أحقا ؟

— مؤكد !

— اوكى !

وخلعت النسوة ملابسهن ونزلن فى الماء . وبعد لحظة .. خرجن الى الشاطىء وصحن :

— اغل الشعيرية !

ونادرا ما تزوج الناس هنا بالطريقة التقليدية ، لذا صعب ان تكسب المحفات ولا المزامير اى فلس منهم . كانت المرأة تأتى الى الرجل حسب اتفاق ، والفتاة تختار قرينها . وكان ثمة تداخلات فى علاقاتهم الجنسية ، ولم يكن غريبا ان تضع الفتاة ابن سفاح فى بيت امها . واذا ارادت المتزوجة ان يكون لها عاشق ، كان لها ذلك . ان اتفاق امرأة مع رجل يتوقف فقط على ما اذا احبته ام لا . ومعظم الفتيات او النساء اللائى وقعن فى حب رجل كان من الطبيعى ان يطلبن منه مالا . ولكن بعضهن لم يطلبن مالا

من العاشق بل كن يعطينه .

وكان اهالى المدن يحتقرون ذلك المسلك وتلك الخلق . . ولكن هل مسلكهم وخلقهم افضل حالا ؟ انه ليصعب القول .

٤

وبالطرف الشرقى من ناور الكبرى ، كانت هناك عائلة من شخصين اثنين فقط . . اب وابنته . الاب هوانغ هاى جياو كان ابن عم هوانغ هاى لونغ . كان حمالا ممتازا وقديرا على صعود المعبر بحمله . كانت صوامع الحبوب لمحلات الحبوب الكبرى هنا على ارتفاع ٣٠ — ٤٠ قدما والمعابر شديدة الانحدار . وكان يلزم المرء ان يصعدها فى مرة واحدة . واذا ما تردد عجوز او امرأة فى ذلك ، كان هوانغ يحمل خمسة وسبعين كيلوغراما وينطلق كالسهم الى القمة . كان يرفع يديه ويصب سلتى الارز فى الصومعة ثم يقفل راجعا الى الارض . كان انسانا امينا وبسيطا فلم يتزوج الا ان بلغ الخامسة والعشرين من عمره . فى تلك السنة ، التقى وهو ينقل الحبوب الى تشيلوه ، بفتاة سألته عن الطريق . كانت ذات شراريب طويلة وضفيرة من طراز سوتشو الشعبى تتدلى وراء رأسها ، وكانت تضع على وجهها مسحة من مكياج احمر . كانت فى حالة من العصبية والقلق فلم تعرف الاسم الصحيح لأى مكان . ومن نظرة واحدة . . ادرك هوانغ انها شغالة هاربة من اسرة ثرية وذات نفوذ . تحدث معها قليلا وفى النهاية وافقت ان تعيش معه .

وتسمت باسم ليان تسى وهو اسم شائع للشغالات فى تلك المنطقة .

وبعد سنة انجبت بنتا . كان ذلك فى شهر يوليو . عندما جاءت المولودة الى دنيا الحياة كانت السماء مليئة بالسحب الوردية فأسمياها : سحابة يوليو .

كانت ليان تسى سيدة انيقة ، مجدة فى العمل ، ولكنها كانت تؤثر ارتداء البنطلون وتحب بزور البطيخ والاكل بين الوجبات . كما كانت تهوى الاغنيات الشعبية من مثل : " يشرق القمر البارد ويلقى بظلاله على غرفتى . . اتثاءب واتمدد ويهاجمنى النوم . . آه ! آه ! انا نائمة . . " كان هذا الامر مغايرا تماما للعادات المحلية .

ولما بلغت سحابة يوليو الثالثة من عمرها ، فرت ليان تسى مع ممثل فى فرقة مسرحية كانت قد مرت بالقرية . فى ذلك اليوم . . كان هوانغ قد ذهب الى خليج مابنغ . وغسلت ليان تسى ونشت كل ملابس زوجها وجمعتها الى ملابس ابنتها ، وطهت ارزا واشترت نصف كاتى من النبيذ لزوجها . وعهدت بالبنت الصغيرة الى جارتها قائلة ان لديها شيئا عليها ان تعمله . اقفلت الباب وخرجت ولم يلمح لها ظل بعد ذلك .

لم يحزن هوانغ كثيرا لأن امورا كهذه لم تكن شيئا غير عادى . حتى العصفور فى القفص يهرب احيانا . ولكنه هام بابنته التى خلفتها له .

لم يحب ان تتعذب الطفلة على يد زوجة اب قاسية ، فعزم ألا يعيد الكرة فى الزواج . فقام بمسؤولية الاب والام . . رباها

بنفسه . علمها كيف تصنع شباك صيد السمك وتنسج الحصير من القصب عندما بلغت الرابعة عشرة من عمرها ، اذ لم يرغب لها ان تكون حمالة .

ولما بلغت الخامسة عشرة كانت فى جمال الزهرة ، قوامها ووجهها فى مثل امها تماما . كانت بيضوية المحيا بحاجبين اسودين طويلين وعلى خدها غمازة . كانت اطراف عينيها مائلة قليلا الى اعلى ، وبدت العينان ضيقتين بسبب الرموش الطويلة . عندما كانت تخرج على حين فجأة كان الناس يفتحون اعينهم على اوسع ما يكون وينذهلون الى حد ما ، ويستغرقون فى التفكير . واذا ما صنعت شبكة او نسجت حصيرة على جانب الماء ، تجمع بعض الشباب حولها ، متظاهرين بأنهم منشغلون فى شىء بالمكان . واذا ذهبت الى السوق لشراء لحم او خضروات او زيت او نبيذ او صودا غسيل او نشاء او قماش او ادوات تجميل ، كانت تحظى بأجود نوعية او بأفضل قطعة قماش مقاسا من الآخرين وبنفس السعر . وانتبهت النسوة لهذا الامر ، وصرن يطلبن منها ان تشترى لهن الاشياء . ومتى ما توجهت الى السوق حملت عددا من سلال الخيزران وعادت الى البيت يؤلمها ذراعاها . واذا ما كان هناك عرض مسرحى امام معبد تايشان ، كان كل شخص يحمل مقعدا او كرسيا يجلس عليه ولكن ليس سحابة يوليو . كانت تذهب فارغة اليدين وكان يعرض عليها مقعد مناسب دائما . وكان قليل من الناس يهللون للعرض الرائع اذ كانت الغالبية تركز انظارها عليها .

ووصلت سحابة يوليو الى سن السادسة عشرة . . السن المفترض

فيها ان تتزوج . ولكن . . من سيحوز هذا الجمال ؟ الابن الاكبر لصاحب مزارع الدجاج والبط ؟ الابن الثانى لصاحب دكان النشاء ؟ ام الابن الثالث لصاحب دكان مأكولات المياه العذبة ؟ عرف كل من هوانغ وابنته انهم رغبوا فيها والا ما هو الغرض من جريهم وراءها طول الوقت ؟ ولكن الفتاة لم تحمل ايا منهم محمل الجد .

وفى سن السابعة عشرة . . حدث تطور مفاجئ على حياة سحابة يوليو . . تطور الى الاسوأ . سقط ابوها عن لوحة على ارتفاع ثلاثين قدما عندما كان يحمل حملا ثقيلا الى فوق صومعة وجرح عموده الفقرى . فى البداية . . لم يظن ان الامر خطير . ولم تقدم الكميات الكبيرة من النبيذ الدوائى واللصقات اى نتيجة مرجوة . وفى الاخير اصابه شلل تحت الخاصرة . احيانا . . كان يقوم من الفراش ويستند الى مقعد عال ثم يخطو قليلا من الخطوات . وكان معظم الوقت متكئا على كومة من الالحفة على الفراش . لم يعد يكسب مالا ليشترى لابنته ملابس جديدة ولا ازهارا مخملية . بل اصبح يعتمد عليها فى حياته . كان ما زال دون الخمسين سنة ، وكان بمقدوره ان يؤدى اعمالا خفيفة مثل تجهيز حزم من الخيوط لابنته لتصنع منها الشباك . لم تتخل الفتاة عن ابيها المعوق . اذ اراد شخص ان يتزوجها فلا بد من ان يقيم معها ويساعد الرجل المريض . من لديه الاستعداد لذلك ؟ كان كل ما فى حيلتهما بيت قشى من ثلاث حجرات . . الاب فى حجرة وهى فى حجرة ، والوسطى كانت حجرة صغيرة للاستقبال . ومن حين لآخر . . كان

الابن الاكبر والابن الثانى والابن الثالث يترددون هناك يختلسون النظرات الى هذا القوام النحيف خلف شبكة الصيد او الجالس على الحصيرة البيضاء بلون الثلج . كانت عيونهم تمتلئ اعجابا ولكن حماستهم كانت فاترة .

وبرغم تحذير السباك العجوز ، كان الولد الحادى عشر ما زال يتردد باستمرار على الجانب الشرقى من ناور . وقد احبت النسوة المتوسطات العمر والشابات المتزوجات والفتيات ان يدعونه الى هناك لاصلاح قدورهن القصديرية القديمة . وفى الطريق من ناور الكبرى الى البلدة ، كانت هناك بقعة ظليلة تحت الصفصاف امام بيت سحابة يوليو . . مكان لطيف للبحث عن زبائن . وبينما كانت تنسج الحصائر كان يصهر القصدير . . يمضيان وقتا بصحبة بعض . احيانا . . كانت سحابة يوليو تساعد السباك الشاب فى تشغيل منفاخه . وعندما كانت تدخل بيتها لترى ان كان ابوها فى حاجة الى دخان او شربة ماء ، كان الولد الحادى عشر يغطى الموقد وينسج بدلا منها . ذات مرة ، جرح اصبعها من عود حاد فمص الدم . وفى اثناء هذه التبادلات عرفت انه من غير اخت ولا اخ وان امه ترملت منذ سنوات عديدة ، تقوم بأشغال الابرة للآخرين ، وقد تعبت عيناها . وخشى عليها الولد الحادى عشر ان تفقد البصر فى ذات يوم . . .

الرحماء من الناس الذين رأوهما معا ربما يفكرون انهما زوجان مثاليان . . ولكن كيف يتزوجان ؟ والد الفتاة يحتاج الى صهر يعنيه ، فيما تحتاج ام الفتى الى كنة تهتم بها . . كيف للشابين

ان يرضيا الطرفين ؟ بالنسبة للاثنين ، احبا ان يجلسا الى جوار بعض يتبادلان اطراف الحديث . لقد شبا ليقعا فى شباك الحب ، وكان بينهما مشاعر رقيقة ، لكن لا شيء بدا محددا . . كل شيء بدا كالسحب تسبح جيئة وذهابا فى السماء ، غير قادرة على تكوين المطر .

وفى ليلة مقمرة . . خرجت سحابة يوليو لتغسل بعض الملابس على مركب . ولما اقتربت من مقدمة المركب لتعصر معطفا ، كان قد تسلل الى هناك ولد جرئ متهور ونقر بيده على ظهرها . فسقطت فى الماء من الرهبة . استطاعت ان تسبح قليلا ، ولكنها لأنها ذعرت وكان التيار جارفا ، اخذت تصارع وصاحت طلبا للنجدة . وكانت قد شربت كمية من الماء فسحبها التيار . وحدث ان الولد الحادى عشر كان يقوم بالتمرين على الملاكمة الصينية خارج مزرعة الدجاج والبط . وقد رأى شيئا يسحبه الماء والشعر يطفو على سطح الماء . فخلع حذاءه بسرعة وقفز الى البحيرة وانقذها .

ساعدها على ان تلفظ الماء الذى ابتلعته ولكنها ما زالت فى غيبوبة . لم يكن امامه خيار سوى ان يحملها بين ذراعيه ويعود بها الى بيتها . كانت مبتلة ولكن ناعمة ودافئة . خفق قلبه وجسمها قريب منه .

وفى بيتها صحت (فى الواقع . . كانت قد استعادت وعيها قبل وقت طويل) . وضعها على السرير . وارخى القمر شعاعاته عليها وهى تغير ملابسها المبتلة . وتناول حزمة من العيدان الجافة وغلى لها حساء زنجبيل بسكر . وبعد ان تناولته راح لحال سبيله .

نهضت واقفلت الباب واستلقت ثانية على الفراش . وبدأت تفكر فى حالها . وكان القمر فى غاية روعته على غير العادة .

وقالت لنفسها : " انت ابله ! "

ثم اعادت هذا القول بصوت مرتفع . وقبل ان يمضى وقت طويل راحت فى نوم عميق .

وفى نفس الليلة ، فتح انسان آخر بابها .

٥

الى الغرب من شارع قرب زقاق قبالة شركة البواخر يوجد معبد ليانيانغ ، كانت ترابط فيه قوة امن مسلحة محلية تتبع حكومة المحافظة ، ولكن تدفع لها مخصصاتها هيئة التجارة المحلية . وكان قطاع الطرق ينتشرون فى المنطقة . كانوا يخطفون الناس بأن يخفوهم فى قواربهم بين القصب فى بحيرة ناور ، حيث كانوا يفرون منها بسهولة اذا ما كان وراءهم مطاردة . واحس التجار انهم بحاجة الى حماية من قوة مسلحة خاصة . كانت القوة جيدة التسليح ولديها قوارب مصفحة من ثلاثة جوانب ، من الواح حديدية مضادة للرصاص وكانت راسية فى بحيرة ناور . وكان الجنود ، قبل الانطلاق فى مهمة ، يرون حاملين رشاشتين ويحملون اكثر من نصف سلة من الرصاص على ظهر المركب .

وكانوا يعودون ، بعد اسبوع او اسبوعين ، ظافرين لا تقع بين صفوفهم الا خسائر طفيفة ، لأن القوارب المصفحة والرشاشتين

قدمت لهم التفوق على قطاع الطرق . واذا ما نزلوا الى الشاطئ ، ساروا اربعات جنبا الى جنب فى طابور عبر الزقاق الطويل ، يتقدمهم بضعة عشر شخصا من حملة الابواق ، متوجهين الى الشارع الرئيسى المؤدى الى حكومة المحافظة . ومتى ما وصلوا الى الشارع الرئيسى يبدأ اصحاب الابواق فى النفخ . وكان وراءهم الجنود وبنادقهم معمرة . وكان اسراهم فى الوسط ، احيانا كانوا ثلاثة او خمسة واحيانا واحدا فقط ، وايديهم مربوطة وراء ظهورهم . والمثير ان الاسرى كانوا يسيرون فى جرأة وبروح عالية على ايقاع الموسيقى . وكانوا ايضا يتبعون ضابط النوبة ، هاتفين بصوت مرتفع : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة ! وكانت كل المحلات التجارية تبلغ مسبقا بسحب اقفاص طيور المينة او طيور الدج لأنها قد تؤلم نفوس قطاع الطرق حين يرونها . قد يشعر الاسرى بالاحباط اذا ما رأوا الطيور فى الاقفاص ، وذلك حين يلقى بهم فى السجن لدى وصولهم حكومة المحافظة . الابواق النحاسية المتلألئة والحراب والطابور العسكرى مع ابطال اسطوريين من قطاع الطرق . . كل ذلك يشكل مشهدا رائعا لأعين القاطنين فى هذا الشارع . كان ذلك مثيرا مثل مشاهدة رقصات الاسد وفوانيس التنين والمشى على الطوالات والاطفال فى ازياء زاهية وهم فى حالة طيبة او فى موكب جنازة مع حشد من الرهبان الطاويين والبوذيين .

التخلص من قطاع الطرق فى الريف كان الواجب الوحيد للجنود . نادرا ما كانوا يتدربون باستثناء حمل رشاشتين الى جانب الماء واطلاق عدد من الرصاصات . والذى جعل الآخرين يحسون

بوجودهم هم اصحاب الابواق الاثنا عشر الذين يتدربون على حافة بحيرة ناور من الثامنة الى التاسعة صباحا ومن الرابعة الى الخامسة بعد الظهر . كانوا اولا ينفخون لحنا طويلا للتسخين ثم بعد تدريب قليل على نحو فردى ، ينضمون الى بعض ويعزفون مارشات وموسيقى احتفالية (كانوا يعزفون الموسيقى الاحتفالية للتسلية فقط لأنهم لم يسبق ان شاركوا فى عرض من العروض) . وبعد ذلك هم احرار فى ان يفعلوا ما طاب لهم . وكان البعض يتسلل الى بيوت بعض العائلات ، يسعل اولا ثم يدلف الى الداخل ، ويغلق الباب وراءه .

وكان معظم هؤلاء الموسيقيين يحبون ان يتأنقوا فى ملبسهم . وكان يتسنى لديهم وقت فراغ طويل . لم تكن رواتبهم كثيرة ولكنهم كلما عادوا من الريف تلقوا الجوائز . احيانا كانوا يجرون مفاوضات سرية مع قطاع الطرق ويعقدون معهم الصفقات . لهذا كانت نفقاتهم باذخة . وحيث انهم كانوا يحمون الاعيان والتجار كان لهم سند قوى ، فاذا ما تسببوا فى مشكلة فلا احد يثير لهم متاعب . وظنوا انه من العار لأنفسهم ولمن يسندهم ان لا يبحثوا عن المتعة .

وكان زعيمهم ، ليو ، المعروف باسم الرئيس البواق على علاقة بعدد من النساء . كان هو الرجل الذى اقتحم بيت سحابة يوليو !

ترك لها عشرة جنيهات حين غادرها .

لم تكن هذه هى الحادثة الاولى فى بحيرة ناور الكبرى . عرف والد سحابة يوليو بالامر فى نفس تلك الليلة . امسك النقود

بيده واطلق تنهيدة عميقة . ولما عرف الجيران بالامر لم يطيلوا فى الكلام . ولكن الفتيات والنساء انصبت من افواههن اللعنات : ذلك الوحش القذر !

لم تعد سحابة يوليو عذراء ، ولكنها لم تذرف الدموع كما لم تحاول ان تغرق نفسها فى بحيرة ناور . ستفقد الفتاة بكارتها ان عاجلا ام آجلا . . هكذا كانت تقول لنفسها . ولكن لماذا هو ؟ يجب ألا يكون هو ؟ ما العمل ؟ أتحمل سكينا وتقضى عليه ؟ أتحرق معبد ليانيانغ ؟ لا ! لديها ابوها المعوق ولا بد ان ترعاه . جلست متبلدة على السرير ، مشوشة البال تماما . ثم تحاملت على نفسها فقامت اذ كان الوقت وقت النهوض واعداد طعام الفطور . لا بد من ان تصنع الشباك وتنسج الحصير وتذهب الى السوق . تذكرت انها شاهدت عروسا تنتعل حذاء مطرزا بحرير قرنفلى وهى فى طفولتها . قد فقدت امها التى هى بعيدة فى مكان ما . لا تذكر ماذا تشبه امها ولكنها تذكرت انها غمست عودا فى صبغة حمراء لتضع نقطة بين حاجبيها . وحملت المرآة وصارت تنظر الى صورتها . بدا انها رأت نفسها لأول مرة . تذكرت كيف مص الولد الحادى عشر الدم من اصبعها . . لا بد كان مالحا . احست انها غير جديرة به الآن كأنما اتت شيئا خطأ . غلبها الاسى وتنهدت تقول : لماذا لم اقدم نفسى له ؟

ونمت الفكرة فى رأسها بعد كل زيارة يقوم بها الرئيس البواق .

ثم نزلت قوة الامن الى الريف فى مهمة اخرى .

وفى يوم راحت تزور الولد الحادى عشر وقالت :

ـ تعال الى الضفة الشرقية فى هذه الليلة . لدى شيء سأطلعك عليه .

عندما وصل الولد الحادى عشر الى المكان المحدد ، تقدمت على زورق يستخدم لتربية البط . (كان مربوطا الى شجرة على الضفة للاستخدام العام . كان المحليون يستخدمونه لقطع القصب او العشب او جمع بيض البط البرى على الشاطئ الرملى . كان لا يتسع لأكثر من شخص واحد .) ركلت الزورق ناحية القرارة الرملية وصاحت من فوق كتفها :

ـ اتبعنى !

وفى لحظات ، كان الولد الحادى عشر يسبح الى حيث كانت تنتظر .

وهناك جلسا على العشب الى ان ارتفع القمر فى السماء .

ما اجمله من قمر !

٦

عرف زملاء الولد الحادى عشر بالامر ولكنهم اخفوه عن السباك العجوز . تركوا الباب مفتوحا للولد الحادى عشر ، وتركوا مفصليه يكبتان الصرير . لم يكن الولد الحادى عشر يعود حتى يهل الفجر . فى ذات يوم ، فتح الباب فى الوقت المعتاد ، وكان على وشك ان يرتمى على الفراش ، فقال السباك العجوز :

ـ هل انت شبعت من الحياة ؟



اشياء من هذا النوع لا يمكن اخفاؤها . الانباء وصلت فى الاخير الى اذنى الرئيس البواق . فى الواقع . . لم يكن بحاجة الى ان يخبره احد . عرف الامر بنفسه ، اذ ان سحابة يوليو اصبحت باردة حياله ومقتت حتى مجرد رؤيته . رفض ان يبتلع الاهانة . حقا . . لم يتزوجا من بعض ، لذا لا يضيره شيء ان هما افترقا . ولكنه فقدان ماء الوجه ان سمح لسباك صغير ان يسرقها منه . هذا الصغير تجاسر على ان يقتحم الاسد فى عرينه ! هذا لم يسبق له مثال ! حتى اتباعه احسوا بالخزى . قد احبوا ان يهينوا الآخرين . . كان لسان حالهم يقول بأنهم يمكنهم ان يسرقوا حصانا غير انه لا يسمح للآخرين ان يقفزوا من فوق السياج . لو تجاهلوا هذه الاهانة فماذا سيحدث بعدئذ ؟

وفى يوم قبيل الفجر ، اقتحم ليو وعدد من الرجال بيت سحابة يوليو ، وجروا السباك الشاب من تحت لحافها واوثقوه . كما ربطوا الفتاة واباها كى لا يستغيثا بالناس ليخلصوهما .

وجروا الولد الحادى عشر الى المقبرة وراء معبد تايشان ونزلوا فيه ضربا ، طالبين منه ان يحمل متاعه ويرحل عن بحيرة ناور الكبرى فى الحال ويعود الى موطنه فى شينغهوا .

وظل السباك الشاب ملتزما بالصمت .

وامروه ان يعدهم بألا يعتب باب دار هوانغ او حتى يشير اليها باصبع مرة ثانية .

وظل السباك الشاب على صمته .

حاولوا معه ان يتوسلهم طالبا الرحمة ويعتذر .

ولكنه ظل يكز على اسنانه .

زادت غلظته غضب وسخط هؤلاء الاوغاد المتغطرسين .

وقال واحد منهم :

– انظروا كم هو عنيد ! اضربوه حتى الموت !

وهوت عليه سبع او ثماني عصى .

واوشك ان يصبح مثل العجينة بسبب هذا الضرب الشديد .

سمع السباكون الآخرون بأن الولد الحادى عشر قد خطفه البواقون ، فبحثوا عنه فى كل مكان الى ان وجدوه فى الاخير وراء المعبد .

واحس عمه انه ما زالت فيه بقية من حياة ، فأسرع بارسال رجل ليحضر مبولة قديمة . فقد عرف من خبرته بأن القشور فى داخل المبولة يمكنها ان تنقذ حياة رجل على وشك الموت فى مثل هذه الحالة .

اطبق الولد الحادى عشر اسنانه بشدة فلم يجر السائل فى حلقه .

وتقدمت سحابة يوليو وهمست فى اذنه :

– اشرب ايها الولد الحادى عشر !

بدا كأنه سمع صوتا خافتا وفتح عينيه ، وصبت الفتاة فى فمه السائل .

لم يكن هناك من يعرف لماذا تذوقته هى نفسها ايضا .

ثم نزع السباكون مصراعا للباب وضعوا عليه الولد الحادى عشر ونقلوه . وصلوا الى الطرف الشرقى من بحيرة نا ور . وفيما

هم على وشك ان يتجهوا غربا اوقفتهم سحابة يوليو وقالت لهم :

ـ احملوه الى بيتى .

وانصاع لها السباك العجوز .

ونزلت سحابة يوليو الى السوق وباعت كل شباك السمك والحصر التى نسجتها واشترت دواء لعلاج جروح الولد الحادى عشر .

وقد ذبحت النسوة الدجاج وقدمنه له .

وجمع السباكون النقود لشراء الجنسن .

وجاء الحمالون والسباكون والنساء والفتيات لزيارته فى تيار لم ينقطع معبرين عن عواطفهم ومشاعرهم التى نادرا ما اظهروها فى حياتهم الملأى بالضنك . لقد رأوا ان ما فعله الولد الحادى عشر وسحابة يوليو هو عين الصواب وانهم ليعتزون بأن بحيرة ناور الكبرى قد اخرجت مثل هذين الزوجين الشابين الرائعين . لقد غمرتهم الفرحة كأنما هم يحتفلون برأس السنة الجديدة !

وبعد هذه الحادثة . . لم يجرؤ ليو ان يظهر امام الناس . كما حبست عصابته نفسها فى اماكنها معززة الحراسة بالبوابة . تحول هؤلاء الابطال المزعومون الى فئران !

عقد السباكون اجتماعا ورفعوا الى حكومة المحافظة التماسا يطلبون تسليم الرئيس البواق اليهم .

لم ترد الحكومة المحلية عليهم .

ثم نزل السباكون الى الشوارع فى مظاهرات . كان مشهدا نادرا اذ لم تكن هناك رايات او شعارات ، وانما عشرون رجلا

فقط مع احمالهم يتهادون فى بطء عبر البلدة . جللهم الصمت والحزن فى عزة وعزم .

اظهرت المظاهرة تضامنا يهز المشاعر ، تضامنا يلحظ بين افراد المهنة الواحدة فى العصور الوسطى . ودامت هذه المظاهرة ثلاثة ايام .

وفى اليوم الثالث ، جلسوا امام الجدار الحاجز المواجه لبوابة حكومة المحافظة . وكان على رأس كل سباك صحن خشبى فيه مبخرة تشتعل فيها البخور . هذه هى عادة قديمة . عندما يصيب الناس ظلم مجحف ولا يبالى بهم المسؤولون المعنيون ، ليس امامهم من سبيل فيحرقون ديوان المحافظة بالبخور ولا يلقون عقابا .

حكومة المحافظة تجاهلت تماما هذه " العادة غير المرغوبة " وهى لا توجد فى « مذاهب القانون الستة » . . والاكثر من ذلك ان هذه العادة التى يعتقد انها كانت تلقى الاحترام لدى اسرة تشينغ الملكية ، قد باد امرها . ولكن السباكين لم تهتز لهم ارادة . اذا شرعوا فى العمل كانت النتيجة محفوفة بالمخاطر . دعا رئيس المحافظة الاعيان والتجار المحليين للتداول فى المسألة وتوصلوا الى اجماع بأنه لا يمكن تجاهل القضية اطول من ذلك . لذا ، دعا رئيس النقابة مساعدا لرئيس المحافظة وضابطا من قوة الامن وعم الولد الحادى عشر واثنين من كبار السباكين وهوانغ هاى لونغ لتمثيل الحمالين وجارى السباكين — بائع النظارات من باوينغ وبائع عيدان الطعام المتجول من هانغتشو ، للالتقاء فى مقهى

كبير لحل هذه المسألة بكل ما يتعلق بها .

وفى الاخير ، تم التوصل الى اتفاق . كل نفقات العلاج يجب ان تتحملها قوة الامن (دفعت النقابة النقود فى الواقع) ويجب ان يترك الرئيس البواق المنطقة ، وعليه ان يوقع بقبوله لهذا الاجراء . احس السباك العجوز انه قد ثأر لنفسه فقبل الشروط ولكنه اصر على ان يضيف ليو نقطة اخرى . اذا عتب مرة اخرى فى هذه المنطقة فللسباك العجوز مطلق الحرية ان يفعل به ما يشاء .

وبعد يومين ، انسل ليو فى هدوء يحرسه اثنان من اتباعه المسلحين . قد نقل الى ساندو للعمل كمسؤول جمارك .

عندما استطاع الولد الحادى عشر على تناول الطعام والكلام قالت له سحابة يوليو :

ــ قالوا بأنهم سيتوقفون عن ضربك اذا وعدت فقط بأن لا تأتى الى بيتى ثانية . لماذا لم توافق ؟

ــ هل احببت ان اقول هذا ؟

ــ لا .

ــ عرفت ما اردت .

ــ هل هذا جدير به ؟

ــ اجل !

ــ ما اروعك ! احبك ! يجب ان تشفى بسرعة .

ــ قبلينى وانا اشفى سريعا .

ــ سأفعل .

كانت هناك الآن ثلاثة افواه تطلب الطعام ولا احد من الرجلين

قادر على كسب المال . وهم كمثل كافة العائلات فى الطرف الشرقى من بحيرة ناور ، ليس لديهم مدخرات ، ولا شىء لديهم يبيعونه او يرهنونه . ان صنع شباك الصيد او نسج الحصر لا يأتى بالمال فورا . جروح الولد الحادى عشر لن تشفى بسرعة . لا يمكنهم العيش من غير مال . وبلا ادنى تردد ، تناولت سحابة يوليو السلتين اللتين كان يستخدمهما ابوها ، ونفضت عنهما الغبار وخرجت تسعى للرزق بحمل الاثقال كما كان ابوها يفعل . واعجبت النساء والفتيات المحليات بمسلكها . فى بداية الامر ، قلقن عليها ، غير انهن سرعان ما نبذن القلق عندما رأينها تحمل الاثقال بسرعة وبخطوات راسخة . ومنذ ذاك الحين فصاعداً ، عملت سحابة يوليو حمالة وعلى جانب من رأسها زهرة حمراء كبيرة عندما كانت تحمل الكستناء المائية الارجوانية والحسك المائى الاخضر وجذور اللوتس الثلجية اللون ، كانت تتهادى فى دلال مثل غصن صفصاف يداعبه النسيم . كانت عيناها لامعتين كما هما دوما ، ولكن التعابير فيهما كان اشد حزما وعمقا . . لقد اصبحت زوجة قديرة .

هل سيتعافى الولد الحادى عشر ؟

اجل بكل تأكيد !

كلمة عن المؤلف



وانغ تسنغ تشى من مواليد ١٩٢٠ بمحافظة قاويو من اعمال مقاطعة جيانغسو. اشتغل مدرسا ثانويا فور تخرجه فى شعبة الادب الصينى بجامعة جنوب الغرب المتحدة الصينية فى سنة ١٩٤٣ . انضم الى فرقة العمل فى فترة ما حرر جيش التحرير جنوب الصين فى سنة ١٩٤٩ . ثم ذهب الى الشمال ليعمل محررا . . اولا فى اتحاد الثقافة ثم فى جمعية بحوث الادب والفن الشعبى ببكين ، الى ان ارسل الى الريف بالقرب من تشانغجياكو فى سنة ١٩٥٧ . ومنذ سنة ١٩٦٢ . . عمل كاتب سيناريو مع فرقة اوبرا بكين ببكين . واصبح عضوا باتحاد المسرحيين الصينيين سنة ١٩٨٠ .

بدأ ينشر قصصا قصيرة فى سنة ١٩٤٠ . واول مجموعة له من القصص القصيرة ظهرت تحت عنوان « اللقاء العرضى وقصص اخرى» فى سنة ١٩٤٨ . ومن منشوراته الاخرى : « الليل فى حظيرة الغنم وقصص اخرى» (١٩٦٣) . واعد سيناريو اوبرا بكين : « فان جين يجتاز الامتحان الحكومى فى شيخوخته » و« شاجيابانغ » (فى الخمسينات والسبعينات) ونشر « القصص القصيرة لوانغ تسنغ تشى » (١٩٨١) . . وهى مجموعة قصص قصيرة كتبها منذ سنة ١٩٧٩ .

بيت اللبلاب

قو هوا

لسنين عديدة وحكاية " ناوقيلاويولانغ " منتشرة فى منطقة الجبال الحدودية الضبابية . " ناوقيلاويولانغ " فى لغة اهل ياو * معناها : " فتاة ياو الشابة " . هذه الحكاية تقول بأنه عاشت فتاة شابة من اهل ياو تدعى بان تشينغ تشينغ ، وكان عملها حراسة الغابات فى " وادى الريشة الاخضر " الواقع فى بطون هذه الجبال القديمة والمنعزلة . ولدت وترعرعت وتزوجت فى الجبال . نادرا ما غادرت محل اقامتها ، ولم تكن تخرج الا مرة واحدة الى مصلحة الغابات التى لم تكن بعيدة كثيرا . لذا ليس غريبا ان الشباب فى المصلحة لم يلمحوها ابدا ، ولكنهم سمعوا كثيرا عنها انها تشبه حورية جبلية .

عاش اسلافها فى وادى الريشة الاخضر فى بيت مكسو باللبلاب

---

* ياو . . اقلية قومية تقيم رئيسيا فى قوانغشى ومقاطعات جنوبية اخرى .

بنى من جذوع اشجار التنوب التى كانت من القوة بحيث لم تفلح معها الفؤوس ، ويمكنها ان تصمد لأى هجمات تقوم بها الخنازير البرية . ولما تحولت اليوم قطعة من جذوع الاشجار مدفونة فى الارض الى لون اسود نمت عليها طبقة فوق طبقة من الفطر الابيض المروحى الشكل . ووراء البيت كان يتدفق غدير جبلى فى انسياب وهدوء على مدار العام .

وكانت وسيلة الاتصال الوحيدة للبيت بالعالم الخارجى ، فضلا عن ممر ضيق ، خط هاتف مد قبل "الثورة الثقافية" للتبليغ عن الحرائق . وفى ذات شتاء . . نزل الثلج بغزارة على غير العادة ، فسقط الخط . فى ايام الهيجان اثناء "الثورة الثقافية" ، جرى تبديل قيادات منطقة الغابة كلما تقلب المتصارعون على السلطة على الارجوحة السياسية . . ومن الطبيعى ألا يوفد احد لتعديل خط الهاتف الذى وقع . وعلى ذلك ، لم يعد هذا الخيط الفولاذى ، رمز المدنية الحديثة ، الى وادى الغابة المنعزلة . فى وسط هذه الآلاف من هكتارات الغابات كان الليل والنهار يتناوبان من دون ان يحدث شىء هام . وكان وادى الريشة الاخضر يبدو مجللا بالسكون والهدوء كما لو انه كان يغط فى سبات عميق لو لا صيحة ديك او نباح كلب او صيحة طفل منبعثة من الحجرة ، او خيط ازرق شاحب من الدخان يصعد من المدخنة ، بين حين وحين . حتى شقشقة الطيور وتفتح الازهار وسقوط بتلاتها لم توقظه .

كان والدا بان تشينغ تشينغ قد رحلا عن دنيانا منذ وقت بعيد . وكان زوجها ، وانغ مو تونغ ، طويل القامة ، شديد البنية ،

من قومية هان* . كان مفتول العضلات فبدا كما لو انه قادر على افتراس نمر بيديه . وكان الزوج والزوجة يقومان على حراسة الغابات . وكان من عادة وانغ ان يتناول ، قبل الطعام ، كأسا او اثنين من خمر الذرة الذى كانت تعده بان . لم يكن زوجا سيء الطباع الا اذا اشتط احيانا من السكر فيوسع بان ضربا تاركا فى جسمها علامات ارجوانية وزرقاء . وعلى العموم كان يعتنى بها عناية طيبة . لم يتركها ابدا ان تصعد الى الجبال بنفسها لتجمع الحطب ، فقد كان يجمعه ويتركه فى ربطات خارج باب البيت . كما لم يحدث ان ارسلها لتنظيف خط الوقاية من النار ، اذ لم تظهر فى وادى الريشة الاخضر نار لأكثر من عشر سنين . لم يتركها ابدا ان تعتنى بالبستان وتزرع الخضروات .. ومع ذلك كانت ثمة ارض واسعة الى جانب ضفة الغدير تطرح طوال السنة البصل والشمام والخضروات ، بأكثر مما يحتاجان اليه . وكان كل ما تفعله بان هو ان تطعم الخنازير وتربى الاولاد وتغسل الملابس وترقعها ، وتقوم بالاعمال المنزلية الاخرى ، فلذلك كانت فى سن السادسة والعشرين او السابعة والعشرين ما زالت تحافظ على مظهر النضارة والغضارة لشابة لم تتزوج بعد . كان وانغ لا يعرف القراءة ولا الكتابة بيد انه عرف كل ما يحتاج الى معرفته . شعر انه فعلا سيد وادى الريشة الاخضر .. المرأة امرأته والاولاد اولاده والبيت بيته والجبال جباله . لقد ارسله قادة مصلحة الغابات الى

---

* هان .. اكبر قومية فى الصين .

هنا لحراسة الغابة وكان فى الواقع مطيعا لاوامرهم .

قبل ان تنجب بان الاولاد طلبت منه مرات عديدة ان يسمح لها بقطع تسعين كيلومترا الى مصلحة الغابات لترى الدنيا حولها . فى كل مرة كان يرفض السماح لها ، بل كان يضربها ويرغمها على الركوع عقابا على طلبها . كان وانغ يخشى انه اذا ما خرجت زوجته الفاتنة الآسرة الى ذلك العالم والمكان المثير اجتذبتها تلك الحياة الجديدة . واكثر من ذلك . . خشى ان يغريها الشباب اللعوب المعسول الكلام .

ولم يعرف وانغ الراحة حول زوجته الا بعد ان وضعت ولدا وبعد ذلك بنتا . بدا كما لو ان بان اصبحت مربوطة بشدة الى حزامه واصبحت امرأته بحق وحقيق . فلم يعد يضربها او يأمرها بالركوع ، وفى طبيعة الحال كان ذلك يفرض على جسمى الطفلين . كان يرتب المواعد اليومية فى صرامة تامة . الاب . . الزوجة . . الطفلان — كل منهم عرف مكانه او مكانها فى وادى الريشة الاخضر . كان مجتمعهم صغيرا بكل ما فيه من مواريث .

كان وانغ وبان مقطوعين عن العالم . وبرغم انهما لم يكونا متفقين حول كل امر الا انهما اعتادا على حياتهما فى الغابة وسارت الامور ، بشكل عام ، سيرا حسنا نوعا ما .

كان وانغ ينزل الى مصلحة الغابات مرة فى كل شهر ليصرف راتبه وراتب زوجته ويعود حاملا تموين الاسرة من الارز والزيت والملح . وفى كل مرة عاد كان يحكى لزوجته عن كل شىء حدث ،وكل ما يسمع من قيل وقال فى المصلحة . وكانت بان

تجلس مندهشة وعيناها السوداوان الكبيرتان مفتوحتان على اتساعهما ، تسمع كما لو ان زوجها احضر معه حكايات من بلاد بعيدة . كان فى هذه السنوات القليلة الماضية يحكى لها فى الاساس عن الطلبة بالخارج الذين يتمردون ويثيرون المتاعب ، وعن المثقفين كبار السن وعلى عيونهم النظارات يطاف بهم كالقرود فى الارياف والعلامات تتدلى من رقابهم ، او فنيى الغابات الذين يحاولون اليوم ، بعد ان امضوا نصف حياتهم فى الدراسة ، ان ينتحروا بالغرق فى مراغات الجواميس الضحلة ، فكان ينفذ الواحد منهم وظهره ما زال جافا . وفيما بعد . . جاء دور نقد نوع من " الغزال " * الذى لم يكن بالطبع من نوع الحيوان الوحشى السريع الركض والذى تصطاده البندقية . استخدم التعبير لتشويه سمعة العلماء . . .

— آه ! نحن افضل كثيرا هنا فى وادى الريشة الاخضر . التربة خصيبة ، فكل شىء نغرسه فيها ينمو . لم نتعلم . . هذا صحيح . ولكن ليس بمقدور احد ان يأتى الى هنا ويضايقنا . . .

لم تفهم بان الا بعض ما قاله زوجها ، وبعضه لم يكن ذا بال مطلقا بالنسبة اليها . وببراءة الاطفال ، شاركت مخاوف اولئك العلماء هناك . ومن المؤكد انها ادركت بأن القدرة على القراءة والكتابة كارثة . لقد فرحت فى سرها لنفسها ولزوجها . " الحياة افضل فى وادى الريشة الاخضر " ، سمعت هذه العبارة كثيرا وصارت تؤمن بها فعلا . لم تحب حتى ان تفكر فى مصلحة الغابات ، ذاك المكان العابق بالنزاع المكشوف والمكائد اللامرئية .

* [illegible] هنا بين كلمتين متشابهتين فى النطق : العالم والغزال .

لم تتوقع كثيرا من زوجها ؛ كانت تأمل فقط ألا يضربها بعنف حين يغضب . كانوا كلما حل الظلام ينامون . وكان يكفيهم نصف لتر من الكيروسين مدة نصف سنة للاضاءة . ولم يعرف ما كان يحدث بالليل سوى القمر والانجم المتسللة عبر الشباك .

ـ نريد اطفالا اكثر يا بان !

ـ لدينا تونغ الصغير وتشينغ الصغيرة . ألم تقل ان المسؤولين يمنعون ان يكون لدى المرء اطفال كثيرون وانه يتوجب على النساء ان يفحصن انفسهن !

ـ هذا لا يهم ، يمكن ان يكون لنا خمسة آخرون ، وهذا ليس كثيرا .

ـ انت تحب ان تعذبني .. أليس كذلك ؟

ـ اعذبك ؟ اى عذاب تعانيه المرأة فى انجاب الاطفال ؟

ـ اخشى ان يلومني الناس فى مصلحة الغابات اذا انجبت اكثر .

ـ لا شيء يدعو للخوف ! على الاكثر لا يصرفون تموينا للاطفال . لدينا الارض والماء هنا فى وادى الريشة الاخضر . انظرى الى يدى . انهما سميكتان كقشور البلوط . هل تعتقدين فعلا اننا لا يمكننا انجاب مزيد من الاطفال ؟ بعد ان ينصرم الشتاء ستكون الارض جاهزة لزراعة القطن . وفى العام القابل ستحضرين المغزل والنول اللذين تركتهما امك لك وتنظفينهما .

ـ انظر الى نفسك ! انت تعاملني كدجاجة تغذيها وتحبسها فى الجبال *

ـ انت ملكى !

لم تقل بان شيئا وهو يحضنها بقوة ، وكانت تنبعث من تحت ابطيه رائحة نفاذة . كانت مستسلمة طيعة . كانت لزوجها وقبلت ذلك تماما ، لذلك تحملت كثيرا من التأنيب والضرب . شعرت انها فى زهرة شبابها ، وان انجاب مزيد من الاطفال امر طبيعى مثل شجرة تطرح الثمار . عندما ولدت ابنها تدفق الحليب من ثدييها بلا توقف مثل نسغ الاشجار . كان رجلها مكتمل الرجولة . . لم يكن يخشى النمور ولا الخنازير البرية . كان يحضنها بذراعيه بشدة كما الحديد ، ثم كانا يؤديان ما يؤديه الازواج خارج الغابة مما يحبون اداءه . ولكنه كان يفعل ذلك فى شدة شخص أحس ان قوته لا تستنفد ابدا .

فى صيف العام ١٩٧٥ ، جاء " اليد الواحدة " الى وادى الريشة الأخضر . لا تفهمنى خطأ . هذا " اليد الواحدة " ليس كادرا من " مستوى عال " . كان شابا من المدينة جاء يقيم فى الغابة فى سنة ١٩٦٤ . اسمه لى شينغ فو بمعنى السعادة ، اذ انه ولد فى عام التحرير . كان شابا طويل القامة مع هزال ، انيق المظهر ، ونشيطا فى الاعمال ، وكشف عن خفة دم وهو يتحدث مع العمال والكوادر المحليين . وفى " الثورة الثقافية " ، عندما جاء الحرس الاحمر يدعون الى " اقامة روابط " مع الجماهير ، جرفه تيار الحماسة الثورية . حاول ان يقفز فوق قطار ولكنه سقط على الخط الحديدى وكان من نتيجة ذلك ان فقد احدى ذراعيه . .

ومن ذلك الوقت وهو يشاهد يتدلى الى جانبه كم القميص .
اقام فى المدينة بضع سنين . ثم عاد الى منطقة الغابات حيث اطلق العمال عليه "اليد الواحدة" . لم يعرف المسؤولون هناك ماذا يعملون به . هاتفوا كل مركز للاخشاب وكل فيلق زراعة اشجار بالمنطقة .. لكن لم يرغب فيه احد . وقال الجميع بأن "اليد الواحدة" ليس فحسب عاجزا عن العمل الجسمانى بل الاسوأ انه "جنرال ثورى صغير" . ان جهوده من اجل "اقامة روابط" مع العمال قد تنتهى الى ما يشبه رماد الروث المتساقط على جبنة فول الصويا .. لا يمكن ان تنفخه ولا ان تزيله ، ولم تعد ثمة وسيلة للتخلص من هذا النوع من التلوث .

وحدث فى ذات يوم عندما كان وانغ يحضر تموين عائلته من الارز ، ان مر برئيس الدائرة السياسية بمصلحة الغابات . ووضع الرئيس يده على جبينه وقال لنفسه : صحيح ! لماذا لا ارسل لى شينغ فو الى وادى الريشة الاخضر لمساعدة وانغ وزوجته فى حراسة الغابة ؟ ليس هذا مجرد ترتيب ملائم بل هو الصحيح ! هذا سيضيف حارسا الى مركز اذ لا يوجد حس لروح على بعد مئة كيلومتر من وانغ وزوجته اللذين يجهدهما العمل . فى مكان كهذا .. اذا كان لى شينغ فو يود اقامة علاقات فلسوف يقيمها مع القرود وطيور التدرج .

عندما سمع وانغ ان شخصا آخر قادم الى وادى الريشة الاخضر كانت سعادته غامرة ، ولكنه حين سمع ان القادم هو لى شينغ فو وبيد واحدة امتعض ايما امتعاض .

ـ ألم تطلب منذ سنين ان تنضم الى الحزب يا وانغ ؟ ليس هذا سوى اختبار جرى ترتيبه لك . . .

هذا ما قاله الرئيس وهو يمسك بذراعه . واضاف يقول :

ـ يمكن التعاون مع لى فى سهولة اذ هو بيد واحدة . ليس معنى ذلك انه لن يقدر على اداء ما تريده منه . سأتحدث اليه بنفسى حول واجباته التى سيؤديها تحت اشرافك . سأوضح له بأنه ما دام يعمل فى وادى الريشة الاخضر وجب ان يتبع اوامرك فى كافة الامور ، ويقدم اليك تقريرا عن كل شيء ، ويطلب منك الاذن اذا ما اراد ان يترك الوادى . ولكن . . ماذا بشأنك ؟ عليك ان توسع من آفاقك . اقبل هذا المثقف الشاب الذى ضل السبيل . اعمل على تثقيفه واصلاحه .

اومأ وانغ برأسه وعزم على ان يقبل هذه التجربة . . المسؤولية الثقيلة فى تثقيف شاب واصلاحه .

وجاء " اليد الواحدة " الى وادى الريشة الاخضر ، واصبح فى المجموعة التى يترأسها وانغ عضو جديد هام الآن . وبنى وانغ وبان له كوخا يبتعد عن بيتهما عشرين الى ثلاثين خطوة ، الى جانب الغدير الجبلى الاخضر الصافى . استخدما جذوع الاشجار فى اقامة الجدران ، وألواح التنوب للسطح . وبذلك اصبح البيتان ، احدهما كبير والآخر صغير ، احدهما قديم والآخر جديد ، جارين . فى البداية . . لم يكن وانغ مشاعر سيئة ناحية " اليد الواحدة " ، بل انه لشد ما طربت اذناه وهو يسمعه يناديه " اخى وانغ " .

وسرعان ما اختبل لى شينغ فو بالمنظر الساحر والجو المسالم لوادى الريشة الاخضر . كان وانغ يرسله الى مرقب النار كل يوم . فى كل صباح .. كان يأخذ الدرب الضيق وينعطف معه مثل ثعبان يتسلق الجبل ويدخل فى ضباب الغابة . كان كمن يمشى فى عالم من الخيال . وادخل الضباب الابيض الكثيف الذى ملأ الوادى ، الى قلبه احساسا بأنه قد يسحبه بعيدا عن هذا العالم . فى حوالى الساعة التاسعة او العاشرة صباحا عندما يتخلل شعاع الشمس الضباب .. كان يجلس فى مدخل المرقب والاشجار الخضراء الزمردية تتمايل والى اسفل ما زال بحر لامتناه من الضباب . وكان كل ما تقع عليه عيناه عناقيد متسامقة من الشوكران والصنوبر تسبح فوق الضباب المتلاطم الامواج . فى وقت كهذا ، كان يعتقد ان هذه هى ارض الحور مثل غابة اليشم فى بنغلاى* .. وراء متناول بنى الانسان .

ومما لا شك فيه ان لى شينغ فو لم يعتقد انه كان يعيش فى غابة الحور هذه . ومع ان وانغ وبان كانا شابين الا انه ادرك بأن لا بد من السلوك المستقيم ويبقى على بعد مسافة لائقة من " الاخت بان تشينغ تشينغ" الفاتنة ، التى بدت عيناها السوداوان الواسعتان مليئتين بالالحان العذاب . هل سيقدر حقا على عقد اواصر الصداقة فقط مع القرود الذهبية الشعر والدج والطيهوج فى هذا الوادى الاخضر ؟

---

* ورد فى الاساطير انها موطن الخالدين .

كان لدى وانغ طفلان . ولد يدعى تونغ فى السابعة من عمره ، وبنت تدعى تشينغ فى الخامسة من عمرها . فى البداية ، كان الطفلان يخافان نوعا ما من " اليد الواحدة " . ولكن " اليد الواحدة " اصطاد سنونوتين حمراوين لتونغ الصغير ، وقدم لتشينغ الصغيرة حزمة ورد برى تضعه فى شعرها ، ثم تركها لترى نفسها امام مرآة مستديرة صغيرة . هذا الامر غير كل شىء ! وصار الاخ والاخت يناديانه " العم لى " او " الاخ الاكبر لى " . وبعد عدة ايام صار تونغ يقضى الليل فى كوخه . وكانت امه تأتى وتطلب اليه ان يعود ولكنه يرفض .

هذان الطفلان ، ابنا الجبال ، كانا سعيدين بحياتهما البرية . وفى يوم . . تسلل ثعبان الى كوخ " اليد الواحدة " فذعر واخذت مفاصله ترتعد . فقال له تونغ الصغير فى هدوء :

ــ الثعابين لا تلدغ الا اذا دست عليها اولا .

ثم صار يقول بلهجة الآمر :

ــ فى الوادى الاخضر ثلاثة انواع من الثعابين . الثعبان الخيزرانى الاخضر هو الاكثر كسلا . فى العادة ، يلتف على ساق خيزران ولا يتحرك ابدا .

ونظر تونغ الصغير مغمضا عينيه ، وجعد خديه وقال :

ــ فو . . فو . . فو . . مثل هذا ، ينفث السموم لاصطياد العصافير . عندما يقترب منه عصفور يهجم عليه بسرعة البرق ثم يمسكه بفمه . وبعد ذلك ، يعود يلف نفسه فى كسل على ساق الخيزران ويلتهمه على مهل . اما الثعبان النابح فمختلف عنه

تماما . قشوره بلون الطين ، بيد انه يبدو ضاريا عندما يزحف على الارض ، حتى العشب يفترق له . وهو ينمو بنصف قامة الانسان . انه مثل هذا .

وفتح تونغ الصغير فمه واخذ ينظر بلا هدف مادا رقبته الى ابعد مدى يستطيعه .

— هوو .. هوو .. هوو .. انه لمرعب ! ثم هناك الثعبان السميك مثل يد الفأس والطويل مثل حمالة الكتف . والذى يقول عنه : الثمانى والاربعون قطعة . عندما يتحرك ، يحرك رأسه الى الوراء والامام فتظن انه مجنون !

وفى الحال ، امسك " اليد الواحدة " برأس تونغ الصغير كى لا يواصل تقليده . وقال :

— كيف عرفت كل هذا ؟

— قد رأيت الثعبان الخيزرانى الاخضر بنفسى . حدثنى ابى عن الثعبان النابح والقطع الثمانى والاربعين برغم اننى لم ارهما ابدا . انه يصطاد الافاعى ويبيعها خارج الغابات .

ونظر " اليد الواحدة " الى الولد الذى ، فى رأيه ، لا بد انه يذهب فى المدرسة فضلا عن دراسة اساليب الثعابين . ثم راوده التفكير فى ذلك الثعبان المرعب الذى انسل من كوخه ولكنه لم يقدر الا ان ترتعش اوصاله مرة اخرى .

ولما كان يهتم بالطفلين اخذا بدورهما يهتمان به . فى كل صباح .. كان " اليد الواحدة " يغسل اسنانه ويشطف فمه على ضفة الغدير وكانت تشينغ الصغيرة تخرج رأسها من باب

البيت وتنظر اليه . . حبا للاستطلاع . وفى صباح يوم اقتربت منه فى خفة وسألته :

ــ هل فمك قذر يا عم ؟

ونظر اليها غير فاهم تماما ما تقصده . كان فمه مليئا بمعجون الاسنان .

ــ ان لم يكن فمك قذرا فلماذا تشطفه كل يوم ؟

وانفجر "اليد الواحدة" فى الضحك . شطف فمه ومسح وجهه ثم قال لتشينغ الصغيرة :

ــ فيما بعد سأقول لأمك ان تشترى لك ولأخيك فرشاة اسنان . . واحدة لكل منكما . وعندما تستيقظين فى الصباح تغسلين اسنانك وعندئذ ستكون بيضاء مثل الثلج وجميلة جدا .

لم تقتنع تشينغ الصغيرة بكلامه ، وقالت :

ــ امى لم تستخدم ابدا فرشاة واسنانها بيضاء مثل الثلج .

وفى سبيل ان يقنعها سألها :

ــ هل لفم امك رائحة ؟

ــ عندما تقبلنى اشم فمها عذب الرائحة : اذا لم تصدقنى فقبلها بنفسك . . .

وصاحت عليها امها من البيت :

ــ انت يا تشينغ الصغيرة يا عفريتة ! ماذا تعملين عندك ؟ عودى بسرعة !

وخجل "اليد الواحدة" . وخفق قلبه كما لو انه قبض عليه متلبسا بعمل شيء وجب ألا يعمله . وعاد الى كوخه فى الحال .

كانت مسألة تافهة ولكن وانغ سمع بها . طلب من تشينغ الصغيرة ان تركع خارج باب البيت عقابا لها . من الواضح ان ذلك كان من اجل عيون " اليد الواحدة " ! وفهم " اليد الواحدة " بأن عليه ان يكون اكثر حذرا برغم عدم ورود اشارات تحذير اخرى . وشعر برغم عدم وجود سبب للريبة ، بأن عليه ان يفتح عينيه حول المسائل والامور .

سارت حياة القاطنين فى وادى الريشة الاخضر فى هدوء مثلما الغدير الاخضر الصافى يتدفق وراء البيتين . كان الماء فى اعمق نقطة فيه يصل الى ركبة الانسان ، وفى نقاطه الضحلة لا يغطى الا القدمين . ومع هذا كان يعكس الاشجار المتراقصة والسماء الزرقاء الصافية والسحب البيضاء السابحة فى حرية . وها هو اليوم يعكس شيئا آخر ايضا . كان " اليد الواحدة " قد ركب عمودا طويلا بجانب كوخه لهوائى راديو .

ومن هنا كان لا بد من ان تثور المتاعب . فهذه العلبة السوداء الصغيرة فى كوخ " اليد الواحدة " كانت تتكلم وتغنى ، مبددة سكون الليل فى الغابة . فى بداية الامر . . كان الصغيران هما اللذان يذهبان الى كوخه مع حلول الظلام يستمعان الى الراديو . وتدريجيا . . اخذت بان وبحجة انها تنادى الولدين للعودة الى البيت ، تذهب بنفسها وتبقى هناك تستمع لفترة . وكان من الطبيعى ان يذهب وانغ ليحضر زوجته وولديه حينما يحين موعد النوم . احيانا . . كان صوت وانغ فظا فترد عليه بان بصوت طفل مدلل :

ــ ما زال الوقت مبكرا ! عندما يشتد الظلام نعود للنوم . ما زال الوقت طويلا الى ان ينبلج النور !

ثم تضيف فتقول :

ــ عندما يشتد الظلام سننام .

اصبحت المرأة تفكر فى ان الليل " طويل " . وارتبكت حال وانغ . حارس الغابة الكبير هذا الذى يلتهم رطلا من الارز فى وجبة واحدة لم يذهب ابدا ليستمع الى الاغانى والاصوات السحرية التى تنبعث من العلبة السوداء اللعينة . ظل يحافظ على مهابة الرجل الذى لا يتحمل الاهانة ، بينما ظل يراقب فى وقار كيفية تطور الوضع .

ولم يمض وقت طويل حتى هب " اليد الواحدة " يساعد بان والطفلين على تنظيف قطعة الارض الفضاء بين البيتين مما فيها من نفايات ومهملات . رتبوا الحطب بجانب الباب ، ومهدوا الارض ونقلوا روث الخنزير والكلب ، فأصبحت نظيفة ومنمقة . وقال " اليد الواحدة " بأنهم يجب ان يزرعوا قطعة الارض بالازهار . كما وعد بأن يعلم بان والطفلين القراءة وكيف يؤدون التمرينات الرياضية بالاستماع الى الراديو . سعدت بان بهذا فأصبحت البسمة لا تفارقها . وفيما بعد . . اخذ الطفلان لا يتركان " اليد الواحدة " من الصباح الى المساء . كانا لا يتوقفان عن الكلام عن " العم لى قال . . . " و" ماذا يمنع العم لى . . . " لقد اصبحا قريبين منه بأكثر من ابيهما . فانزعج وانغ واستاء من هذا الامر . كان " اليد الواحدة " بيد واحدة ومع ذلك غير الحياة فى وادى الريشة

الاخضر تغييرا تاما مثلما يحرث الخرطون الارض بلا احداث اى صوت .

وقال وانغ لزوجته :

— اسمعى يا امرأة ! لقد جاء الى هذا الوادى ليظهر انه من النمط المثقف وليتحدى زوجك !

وطرح فعلا " اليد الواحدة " اربعة اقتراحات .. الاول — ان يطلبوا من قيادة مصلحة الغابات ان ترسل شخصا على الفور يصلح خط الهاتف الذى مضى عليه مكسورا سنوات ، وان يجرى تركيب شبكة اذاعية على الارض بين البيتين . والثانى — اقترح وضع اشارات خشبية مدهونة على كل ممر جبل حول وادى الريشة الاخضر توضح القوانين المتعلقة بالمحافظة على الغابات . والثالث — تمديد وقت للمراقبة . يقوم هو مع وانغ بنوبتين .. نوبة صباحية واخرى مسائية وكل نوبة ثمانى ساعات . فى اثناء النوبة .. لا يجوز جمع الحطب ولا الحفر عن الجذور القيمة ولا اداء اى شأن خاص . والرابع — تأسيس فرقة صغيرة لدراسة السياسة والثقافة يشارك فيها الصغيران . واشرق وجه بان لما سمعت هذا الكلام . فرمقت وانغ نظرة جانبية عبرت عما رغبت فى قوله من غير كلام : " انظر الى هذا الشاب ، فهو مثقف . تفكيره غير تفكيرنا وكلامه عذب ! "

كان وانغ قد توقع شيئا كهذا منذ فترة . توترت قسمات وجهه ، وشد فمه كمثل ملزمة حديدية ، وامتلأت عيناه نارا وهو ينظر الى زوجته فى غضب وسخط .

ـــ المرحاض الحديث البناء له رائحة عطرة فى الايام القلائل الاولى . احذرى لنفسك !

ثم خاطب " اليد الواحدة " فى جلفة :

ـــ لدينا مثل هنا يقول معناه : عندما يأتى اولاد المدينة الى الريف وجب ان يتصرفوا مثل اهل الريف . وبكلمات اخرى : الضيف اسير المحلى . وانت بلا شك لست ضيفا هنا كما انك لست بالمضيف . لم يحدث ان شبت نار فى غابة وادى الريشة الاخضر لعشرين عاما . أليس من مسؤول فى كل هذه المنطقة لا يجد فى هذا امرا حسنا ؟ هل حدث فى اى وقت اننى لم اتصرف كحارس نموذجى ؟ لم يحدث اننى اعتمدت على خط الهاتف ولا الاشارات الخشبية ولا حراسة النوبتين ولا فرقة دراسية . الافضل لك ان تبقى على فأسك حادة وتشد عودك . قد كلفتنى قيادة مصلحة الغابات بمسؤولية ما يحدث فى هذا الوادى منذ زمن بعيد . عليك ألا تنسى الشروط الثلاثة التى شرحها لك رئيس الدائرة السياسية .

ووضع وانغ يديه على خاصرته ونمت منه نظرة شديدة الصرامة فى حين كانت عيناه تقدحان شررا . اما " اليد الواحدة " فأخذ يحدق بلا هدف ، فاغر الفم ، شاحب الوجه . وبدا على وجه بان قسمات اعتذار ولكنها لم تتجاسر على نطق كلمة لوم لزوجها بسبب مسلكه الفظ واللامعقول . وقالت لـ " اليد الواحدة " :

ـــ انه يا اخى لى ليس مهذبا وهذه الكلمات ليست سوى . . .

ولكنها لم تزد على هذه الكلمات لما رأت زوجها على وشك الاتقاد سخطا مرة ثانية .

وضحك وانغ فى برود ثم قال :

— نعم .. انا انسان احمق وهو مهذب ، ولكن هذا هو الوقت الذى يقود فيه الحمق المثقفين . نحن الحمق مسؤولون الآن ! لا تنس ، يا لى ، ان المسؤولين ارسلوك الى وادى الريشة الاخضر لاعادة تثقيفك ! لاصلاحك !

انتهى من هذا الكلام ودار بجسمه الغليظ وانصرف . كان لوقع اقدامه صوت يهيأ للانسان انه يترك حفرا على الارض مع كل خطوة .

اصطدمت اقتراحات " اليد الواحدة " بالسور الحجرى لعناد وانغ ، ولم يظهر ان هناك اى حل . غاص قلبه فى اعماقه . ما قاله وانغ كان حقيقة . لقد ارسلوه الى الوادى لتثقيفه واصلاحه . فى الواقع .. كان الحمق فى هذه الايام هم الذين يثقفون المثقفين . كانت هذه هى الموضة . وكان الامر كذلك . لم يستطع ان يكبت خوفه من وانغ . وهو يدرك انه لا يستطيع بنفسه ان يغير الوضع السيء . ولكنه ما زال شديد الحيوية عامرا بالنشاط . لم يترك نفسه للتراخى ، لأنه اذا ما تكاسل سقط وحده . وكان يفكر فى معنى الحياة .. لا معنى لأن يلقى نفسه من فوق جرف . كان قد احضر معه كتابين مطبوعين قبل " الثورة الثقافية " .. احدهما « معرفة انواع الشجر » والآخر « حقائق عامة عن حرائق الغابات » . وكان كلما خرج فى الحراسة الى الجبال حمل معه « معرفة انواع الشجر » . ومن دراسة الصور .. عرف كيف يميز عدة مئات من مختلف انواع النباتات ذات الاوراق العريضة بتلك المنطقة .

واعتزم ان يواصل دراسته للموارد الطبيعية فى وادى الريشة الاخضر لاعداد اول معلومات عن تلك الانواع لعمليات قطع الاخشاب اللاحقة ولضمان ان وجوده هنا لا يضيع عبثا . ظن ان بان ربما تفهمه فأطلعها على خططه . فنصحته فى رفق وحنان كما تنصح اخا لها وقالت بلهجة الواثق :

— سخيف ! استمر وافعل ما تريد . انت لست بحاجة الى اذن من احد .

— ألا تظنين ان الاخ وانغ سيغضب ؟

— هل من خطأ فى ما ستفعل ؟ اوه ! انك . .

ووقف صوت بان عند الكلمة الاخيرة . . اخترقت عيناها السوداوان الوضاءتان قلبه وهى تنطق الكلام . وخشى " اليد الواحدة " من دون ما سبب ان ينظر الى تلكما العينين . كان صوت بان كما الموسيقى . . مثل جدول جبلى ينعطف ويتلوى ثم استقر فى قلبه .

وجاء فصل الخريف . وصار " اليد الواحدة " يجمع بزور اشجار التنوب واللوتس الذهبى والزنجبيل . وحفظ هذه البزور فى مظروف . وفكر فى ان يزرع مشتلا صغيرا تنمو فيه النباتات ثم ينقلها لما تكبر الى مصلحة الغابات ليسلمها الى الفنيين ليعتنوا بها الاعتناء السليم . وحتى يعد المشتل ، كان عليه ان يحرق الارض المقطوعة الشجر فى المنطقة الكثيرة الاشجار البرية اولا . انه يعرف ان وانغ ليس لديه ادنى اهتمام بهذا النوع من العمل فطلب من بان ان تساعده .

فى ذلك اليوم كان وانغ يجمع الحطب من سفح الجبل .

وحدث ان كانت قطعة الأرض بجانب البستان التي وقع اختيار "اليد الواحدة" وبان على تنظيفها ، القطعة التي اختارها وانغ لزراعة القطن . واشعلا النيران في قطعة الارض . وسرعان ما تصاعد دخان كثيف من نار مزمجرة اذ كانت تهب ريح عاصفة . كان الاثنان بمثابة اخ واخت ، يتحدثان ويضحكان في سعادة وفرح . وفجأة . . جاء وانغ راكضا من سفح الجبل . وبنظرة باردة ، خطف فأسه من على ظهره وقطع شجيرة صنوبر . ثم شد بيديه الشجرة واخذ يطفئ النيران . وعلى الفور . . انبرى "اليد الواحدة" يشرح الوضع . فرد عليه وانغ مستشيطا :

— لا تفعل شيئا مثل هذا من غير اذن مني . لدى خطط اخرى لهذه القطعة . وجب عليك يا لي ان تسألني اولا بدلا من ان تحرقها . الليلة . . اريدك ان تكتب نقدا ذاتيا !

— لمن اسلم ما اكتب ؟

— لمن تسلمه ؟ أوتظن انني لست مسؤولا هنا لأني اجهل القراءة ؟ ثمة شيء لا تنسه ابدا هو انك تعمل تحت قيادتي ، فلنحتكم الى اللوائح !

نظرت بان الى زوجها وارادت ان تصرخ . وقال لها وانغ في جفاء وشدة :

— عودي واطعمي الخنازير ! والا شاط علف الخنازير . . .

واختلس "اليد الواحدة" نظرة من بان . لم تتجاسر على كسر كلام زوجها فالتفتت وراحت . مسحت الدموع من عينيها بظهر يدها .

لكل انسان درجة معينة من الثقة بالنفس واحترام النفس . ولكن اذا بقى فيها شق صغير من دونما اعتناء صار حفرة كبيرة ، واسعة جدا يصعب تغطيتها . حتى الارض لها شق فى بعض المناطق . وشعر وانغ بالتحدى من " اليد الواحدة " . وفى نفس الوقت ، صار يفكر فى زوجته التى خشنت معه ؛ لم تعد تلك المرأة المطيعة او الخنوعة .

وعندما ذهب وانغ ذات يوم الى مصلحة الغابات لاستلام تموين اسرته ، انتابه قلق لا يفهم له سبب وهو خارج من بيته فى الصباح الباكر . كان ثمة شىء يؤرقه لا يمكن اهماله . كان انسانا صارما شديد الاحتمال . كانت المسافة تسعين كيلومترا ذهابا وايابا . . وبدأ فى رحلة العودة مع اقتراب الليل حاملا ستين كيلوغراما من الحبوب ! وصل الى بيته يهطل عرقا . كان باب بيته مفتوحا والنور ساطعا بداخله . فقال لنفسه : غريبة ! المرأة لم تنم بعد . ودلف الى الداخل . لم يكن احد هناك . ثم تناهى الى سمعه ضحكات وموسيقى منبعثة من بيت " اليد الواحدة " . وتحسس الفرن والموقد فوجدهما باردين . ثم اسرع خارجا الى بيت " اليد الواحدة " . وهناك رأى كل شىء فى وضوح . كانت زوجته جالسة ، وذقنها بين يديها . وكان تونغ الصغير مستندا الى ركبتها يستمع الى صوت مغنية تغنى فى دلال . وكانت تشينغ الصغيرة فى حضن " اليد الواحدة " ، خده فى خدها ! عرف وانغ ان الاغنية منبعثة من العلبة السوداء . كانت اغنية غرامية لأهل ياو : الفتى والفتاة يتعشقان بعضا بقلبيهما .

وقالت :

ـ ما اروع هذه الاغانى التى كانت امى تحب ان تغنيها وهى على قيد الحياة .

شاهد وانغ زوجته وهى تنظر الى "اليد الواحدة" فى مودة تدعو الى الارتباك .

ـ اهل ياو احبوا الغناء والرقص دائما . . .

ورد "اليد الواحدة" النظرة فى الفة لها معنى . لم يتحمل وانغ اكثر من ذلك . كظم الغضب فى قلبه بما لا يسمح بانجراف تيار من الكلمات البذيئة ، وقال :

ـ تونغ الصغير ! تشينغ الصغيرة ! هل تحبان ايها العفريتان الصغيران ان تستمعا الى اغانى الحب طول الليل ؟ هل تريان ضوءا فى السماء ؟

ولما احست بان بعودة زوجها ، اسرعت فى شد تشينغ الصغيرة بيد وتونغ الصغير باليد الاخرى واسرعت خارجة . وقالت :

ـ اى يا ! لماذا لم تبق ايها العفريت فى مقر مصلحة الغابات هذه الليلة ؟ انظر كم انت متعب ويتهاطل منك العرق !

لم يرد عليها وانغ . كان يكز على اسنانه واحتبس فى فمه كلامه الذى لا يريد ان يقوله فى يسر وسهولة : خشيت ان اقضى الليلة بعيدا وانت تمضينها فى هذا المكان .

عندما عادوا الى البيت ، اخذت بان تشعل النار تغلى ماء وتسخن طعاما . لم تعد اى مشروب خشية ان يستغله زوجها ويضربها . فى تلك الليلة . . بدا من وانغ برود غير عادى . . تكتم جعل بان

ترتعب . كان الجو فى البيت متوترا . استخدم الماء الساخن لمسح جسمه وغسل قدميه . لم يبال بالعشاء الذى وضعته زوجته على المنضدة ، وراح الى الفراش فى رزانة وهدوء . ودلكت بان قدميه وظهره عدة مرات بشكل مسالم اذ هى تعرف ان الغضب مكتوم فى داخله . ولكنه بقى متمددا مفزعا مثل برميل مملوء بالديناميت .

لم يكن وانغ مجرد رجل مفتول العضل بل ايضا كان رجلا ذا رأى مستقل فى كل شىء ويحسب لكل شىء حسابه . شعر بأن الوضع فى وادى الريشة الاخضر اصبح محفوفا بالخطر . وبدا له الآن ان ليس بان هى التى تبتعد عنه وانما الصغيران ايضا . كان انسانا قويما حارس غابات نموذجيا يكد فى الاعمال . هل يفترض ان يجلس ويراقب " اليد الواحدة " يسرق زوجته وطفليه منه خطوة خطوة ؟ هل يسمح لنفسه ان يتلقى الهزيمة من شاب ابتر مثقف بلا هموم ابعد الى الريف ؟ يا للمصيبة ! كلا ! فى البدء ، عليه ان يعيد وضعه فى داخل بيته . وفى صباح اليوم التالى الباكر ، فتح عينيه فى حيوية وقال بصوت كمثل الرعد المكتوم :

ــ تونغ الصغير ! تشينغ الصغيرة ! اركعا امامى ! اركعا ! استمعا لى ! ابتداء من اليوم محظور عليكما وعلى امكما ان تدخلوا الى بيت " اليد الواحدة " . اذا ذهب احد منكم الى هناك فانى سأفقأ عيونكم واكسر اقدامكم !

شحب لون بان وهى تستمع الى كلامه . ركع الصغيران خلفها واسنانهما تصطك خوفا ، ويرتعشان مثل شتلتين فى عاصفة شتوية .

ولما لم يخرج " اليد الواحدة " الى العمل بعد ، ذهب وانغ اليه فى بيته يطلب منه النقد الذاتى الذى طلبه منه منذ عدة ايام . وقال له " اليد الواحدة " انه لم يكتبه بعد .

ــ ألم تكتبه ؟ ألا ترخى لكلامى اذنا ؟ أتظن اننى لا اعنى ما اقول ؟ اسمع يا لى . . . قادة مصلحة الغابات عينوك تحت قيادتى . من الآن فصاعدا ، غير مسموح لك ان تفعل او تقول ما يعجبك . يجب ان تضبط مسلكك . سأمنحك يوما آخر . غدا صباحا تسلمنى النقد الذاتى .

نظر وانغ اليه نظرة صارمة ولوح بقبضته كمثل المطرقة الحديدية والقى عليه ثلاثة قوانين اخرى : من الآن فصاعدا ، عليك ان تقدم تقريرا كل ليلة عن نشاطاتك طوال اليوم . سنفعل ذلك فى هذا الكوخ . اذا اردت اجازة فاطلب منى اولا . غير مسموح لك ان تأتى الى بيتى ان لم يكن لديك سبب وجيه ! وشيء اخير : اذا استخدمت الراديو لاغراء افراد اسرتى مرة اخرى فالافضل ان تنظر الى هاتين اليدين ! اصبع واحد يمكنه ان يشد عمود التنوب ذاك وكل ما عليه من اسلاك والقى به وراء الجبال من حيث أتى .

اضافة الى ذلك ولزيادة فعالية اوامره ونواهيه ، اتخذ اجراء صارما آخر . فى العادة . . كان عندما يغادر بيته للتوجه شرقا عبر الممر الضيق الى مصلحة الغابات ، او غربا عبر الغدير الى الجبال للمراقبة ، لا بد من ان يمر ببيت " اليد الواحدة " . فحمل المجرفة والمدمة ومهد ممرا آخر لنفسه ولأسرته . . ممر متعرج يزيد مئة خطوة او اكثر .

من الواضح ان هذه الامور قد حدثت فعلا .. لم يكن امام " اليد الواحدة " خيار سوى القبول بذلك . واصبح وضع وانغ الآن فى وادى الريشة الاخضر لا يتعرض لأى هجوم .. اصبح اشبه بأمير حرب غابات جسور فى قديم الزمان ، واصبح لا يطيق عصيان الاوامر . فى السابق .. نادرا ما ذهب وانغ الى بيت " اليد الواحدة " . اما الآن فلم تجرؤ زوجته وطفلاه على الذهاب الى هناك . وصار يذهب فى كل ليلة يستمع الى تقرير " اليد الواحدة " عن نشاطاته . من الواضح انه استمتع بمذاق السلطة فى جعل " اليد الواحدة " خاضعا مثل احد " العناصر السيئة الخمسة "* .

كان القاطن فى الكوخ الجديد الصغير اشبه بقوقعة فى صدفتها . واصبحت حتى الموسيقى المنبعثة من العلبة السوداء تكاد لا تسمع . احنى " اليد الواحدة " رقبته لهذه الحقيقة القاتمة الجديدة واعترف بالهزيمة . وعادت الحياة فى وادى الريشة الاخضر الى حالتها السابقة .. الخمول والوحدة .

كان الطقس غير عادى فى ذلك الشتاء . لم يتساقط الثلج فى حين كان هناك صقيع شديد . قال كبار السن بالمنطقة ان هذا الشتاء الجاف اشارة الى قدوم ربيع جاف . وفى كل صباح كانت افدنة لا حصر لها حول وادى الريشة الاخضر ، ترى مدثرة بالصقيع . وبدت النباتات العريضة الاوراق الدائمة الخضرة

* ملاك الاراضى والفلاحون الاغنياء والرجعيون والعناصر السيئة واليمينيون — المترجم .

كأنها مغطاة بجدائل من فضة . كان عالما ثلجيا ابيض قبل ان يذوب تحت شمس الظهيرة . وكان البيتان فى الوادى ، احدهما طويل والآخر قصير يرتديان اكليلا من اليشم صباح كل يوم . وكان الغدير خلفهما متجمدا وتوقف فيه الخرير .

فى هذه الايام الجافة ، الباردة ، التى يكسوها الصقيع ، كانت بان تطعم الخنازير مرتين فى اليوم وتطهو مرتين للاسرة . ولما لم تكن لديها اشغال تؤديها بالخارج كانت تخرج الملابس القديمة وتصلحها . فى هذه الايام ، كان زوجها يصطحب معه الطفلين يلعبان على الجبال . وداثما ما جلست هى بالبيت حول الموقد وفى يدها قطعة قماش . واحيانا جلست هكذا نصف يوم فى حالة لا تستطيع فيها تركيز افكارها على اى شىء . وكان وانغ يحضر معه فى كل يوم ارنبا بريا او غريرا . كان يسلخ الجلد ثم يعلقه على جدار البيت . وكان اللحم السمين حين يطهى تطير رائحته الشهية الى اميال بعيدة . وكانت بان كأنها حامل ، لا تتناول الا قطعة صغيرة من اللحم المطهو وتدير رأسها كأنما اصابها غثيان . احست كأن صخرة تجثم على صدرها وكان تحت تلك الصخرة كل ما فى حياتها من اشياء . وازداد ضرب زوجها لها فى هذه الايام . واصبح لون جسمها من الكدمات ما بين اسود وارجوانى . كانت كل يوم تقرأ ما بوجه زوجها من تعابير ، وترقب عينيه ، تخشى حتى من التنفس بصوت عال . وفى اثناء الضرب ، كانت تنظر الى يديه وهما تهويان على ساقيها وظهرها ، حيثما لا تظهر الكدمات . وكانت عيناها تتحولان من الاغروراق الى الجفاف ومن الجفاف

الى الاغروراق ، وتبكى على حياتها المريرة . لقد مقتت جلافة زوجها ، ورأت ان " اليد الواحدة " هو الوحيد فى العالم يكن لها الاحترام ، الوحيد الذى عاملها كانسان . لقد عاملها زوجها الثقيل اليدين كما لو كانت مجرمة . واحست ان " اليد الواحدة " وهى يدعوان للرثاء . ولكنها احيانا كانت تمقت كل ما كان يحدث . لماذا لم يذهب الى اى مكان آخر ما عدا وادى الريشة الاخضر ، لا يثير الفوضى فى اسرتها ؟

كانت بان يصيبها الفزع كل ليلة حين تزحف الى الفراش وتشم رائحة عرق زوجها . كانت دائما تبكى فى صمت فى سواد الليل ، ولكن البأس تحول شيئا فشيئا الى رغبة فى المقاومة . وليلة بعد ليلة لدى النوم كانت تضع وجهها فى عناد الى الحائط كأنما كان به صمغ . وحتى لو شدها زوجها كانت لا تبدى حراكا . وكان وانغ يكز على اسنانه فى مقت ويقول شاتما :

— اود لو رأيتك ميتة .

— اذن .. اتركنى امت .

— لا تستعجلى نصيبك . كل ما تفكرين فيه هو ذلك الشاب .

— سأصرخ ان ضربتنى . سأصرخ .

— امرأة فاسقة !

وعلى عكس ما كان فى السابق .. تجاسرت بان على الدفاع عن نفسها . لم تعرف سبب ذلك انما ادركت بشكل ما انه يخشى من ان " اليد الواحدة " يعرف عن شتائم الليل .

ليس فى الحياة توازن .. العواطف تتحدى المنطق . ادركت

بان انها تتغير مع انها غير موقنة ان كان ذلك للافضل ام للاسوأ . من الاشياء التى تغيرت فى هذا الشتاء القارس الجاف انها كانت تهتم باللبس . احبت ارتداء وشاح الرأس الفينيسى الفضى والسترة اللبادية الوردية اللون التى كان مكانها قاع الصندوق الخشبى فى الماضى . كانت تبقى على ملابسها انيقة ونظيفة كأنما هى متأهبة فى اى وقت لمغادرة الجبال فى زيارة ما . كانت تستمتع ايضا بملء طشت الغسيل النحاسى الذى خلفته لها امها بماء الغدير الصافى كيما تنظر الى وجهها فى الماء . منذ عدة سنوات ، طلبت من زوجها فى احدى رحلاته الى مصلحة الغابات ان يشترى لها مرآة . وفى كل مرة كان يعود خاوى اليدين ويتعلل بأنه قد نسى . وآمنت انه لا يفعل ذلك الا متعمدا ، فخشى ان ترى وجهها وضاء كالقمر ، وعينيها لامعتين ، وشفتيها متلألئتين كبتلات اللوتس الطازجة يغشيها الطل ، وغمازتيها الحلوتين تتراقصان عندما تضحك ، وكيف تختفيان فى سحر حين لا تضحك . من لا يجذبه مثل هذا الجمال ؟ هل انجذب " اليد الواحدة " اليها ؟ اوه ! يا للعار ! كان قلبها سريع الخفقان وعقلها يدور . ضغطت يديها على خديها المتقدين واحنت رأسها . كان كأنما اتت عملا مريعا ومخزيا فأحست بأن ليس فى مقدورها ان تواجه روحا اخرى . وفعلا . . وجدت نفسها اخيرا ترخى النظر ناحية كوخ " اليد الواحدة " . كلما منعها زوجها من دخولها الى ذلك الكوخ الخشبى كانت تحس بأنه يجذبها . . راديو " اليد الواحدة " . . الصابون . . دهان الجلد الذى ما زال اعجوبة كأى شىء فى العالم . بدا كما

لو ان عالما جديدا تماما يغريها .. لى شينغ فو ! يا له من اسم عذب : شينغ فو (السعادة) . ولكن .. هل هذا الشاب الضامر الشاحب حقا سعيد ؟ فى كل يوم ، يستخدم يده الوحيدة فى تقطيع الحطب وغسل الملابس وطهو الطعام .. ويخشى حتى ان ينظر ناحيتى . عندما يلتقى وانغ يتصرف كأنما يلتقى نمرا . يا للمأساة ! لقد احست بعاطفة رقيقة تسرى فى اوصالها حيال " اليد الواحدة " مع انها تتصرف فى حياء اخاذ للشابات من اهل ياو .

ذات مرة عاد " اليد الواحدة " من زيارة لمصلحة الغابات واحضر معه علبتين من الحلوى ملفوفتين فى ورق ذهبى وفضى لتونغ الصغير وتشينغ الصغيرة . وسرعان ما تناولت تشينغ الصغيرة حبة حلوى ووضعتها فى فم امها . وحضنت بان صغيرتها واخذت تقبلها من شفتيها مرات ومرات . وقالت لها فى حنان :

— هل رائحة فم امك سيئة يا تشينغ الصغيرة ؟

— ابدا .. ابدا !

— هل رائحته حلوة ؟

— حلوة يا ماما .. انفاسك عذبة دائما .

يا للسخافة ! ماذا قلت لابنتى ؟ وعادت بأفكارها الى نصف سنة للوراء عندما جاء " اليد الواحدة " الى وادى الريشة الاخضر وحديثه مع تشينغ الصغيرة وهو ينظف اسنانه بالفرشاة فى باكر ذات صباح . كان وجهها قد احمر . الرحيق المذاب فى فمها بدا كأنه ينزل الى قلبها . ونظرت مرة اخرى الى وجه ابنتها القرنفلى

الغض ، ورأت انعكاس شفتيها العذبتين فيه . ذلك شئ لم يستطع زوجها الشديد ان يسيطر عليه ولا حتى يلاحظه ، فلو استطاع فمن المؤكد انه سيضربها لذلك ايضا .

وفى يوم كان وانغ فى الجبال يجمع الحطب ، حملت بان جردلا وتوجهت الى الغدير تحضر ماء . كان " اليد الواحدة " هنالك يغسل ملابسه فى هذا الماء الذى يخز برده العظام . كانت يده متجمدة حمراء اللون . فوضعت الجردل وشمرت عن ساعديها واتجهت اليه وتناولت منه الملابس وشرعت تغسلها . فارتبك وقام وتراجع .

ـ ينبغى ألا تفعلى هذا يا بان ! لو رآك وانغ . . .

وردت عليه من غير ان ترفع رأسها :

ـ ماذا بك ؟ نحن لا نأتى شيئا خطأ .

ـ اعرف ذلك ولكن وانغ ربما ضربك .

وتوقفت يداها ولم تقل شيئا .

ـ انظرى الى يديك فكلهما كدمات .

ـ اهدأ ! ما فى يدى انما من الخنازير فى الحظيرة .

كانت عيناها تترقرقان بالدموع ، غير انها كبحتها فى رزانة . لا مكان تذهب اليه لتصرخ بأعلى صوتها ، لتشعر بتحسن فيما بعد . وغمرت الملابس مرتين او ثلاثا ، وفركتها ، ثم اخرجتها من الماء وعصرتها ووضعتها فى دلوه الفولاذى المطلى بالزنك . ومن دون ان تدير رأسها حملت جردلها وراحت لحال سبيلها ناسية ان تجلب الماء .

وفى البيت ، اتكأت على ظهر الباب . كانت يداها وقدماها كالهلام وبدا جسمها خائر القوى . كان قلبها يخفق بشدة كما لو اراد ان يقفز من صدرها . لم تبك ، ولكنها فى الواقع احبت ان تضحك . هذه هى اول مرة فى حياتها فعلت شيئا لشاب من وراء زوجها . احست بان بانشراح بعد ان توقف خفقان قلبها بوقت طويل . ولما عاد زوجها من الجبال لم تساوره اية شكوك . لقد ربحت اول معركة لها .

واستمر الجفاف المدثر بالصقيع فى العام الجديد . وظهرت كثير من الاشجار العريضة الاوراق الدائمة الخضرة حول وادى الريشة الاخضر عارية مثل المسنين السغاب الذين يمدون اذرعتهم العظمية النحيفة الى السماء . وتغطى سفح الجبل بطبقة سميكة من الاوراق الجافة . وكلما هبت الرياح القارصة سقطت الاوراق من كل شكل ولون ، مثل رقائق الذهب وقطع اليشم ، ملأت الجو بصوت خشن . ثم تبعثرت بألوانها الزاهية فى كل الارجاء .

حال الجفاف الطويل بين " اليد الواحدة " وبقائه فى كوخه . كان يقوم من الفراش قبل انبلاج الفجر فى كل يوم . ثم يخرج الى الجبال للحراسة متمنطقا بالفأس حول خصره ويحمل كتاب «حقائق عامة عن حرائق الغابات» تحت ابطه . وقد تشجع عدة مرات ليقترح على وانغ بأن يجرفا الاوراق الجافة من خطوط الوقاية من الحرائق . وكان وانغ لا يعيره اهتماما لأنه كرهه فتجاهل كل ما قدم من اقتراحات . قال انه ، وانغ ، وحده هو المسؤول عن

وادى الريشة الاخضر ، ومن هنا يبقى كل انسان على اقتراحاته لنفسه . وفى هذه المرة ، ابدى " اليد الواحدة " عنادا . فقد وضع برنامجا صارما لدوريات مراقبة الحرائق برغم انه كان قد تلقى تحذيرا . اقنع بان بالخروج مع تونغ الصغير وتشينغ الصغيرة لازالة النباتات الجافة من حول البيتين . كما اعاد قراءة «حقائق عامة عن حرائق الغابات» مرات ومرات على تونغ الصغير وتشينغ الصغيرة . . وبلا ريب قد قرأه على بان ووانغ .

وفى صباح يوم . . سمع وانغ ابنه تونغ الصغير يقول :

ـ يا عم لى . . ما معنى الاندفاع ضد الريح المقابلة ؟

ـ معناه اذا حدث حريق بالغابة وجب ان تهرع الى حيث حدث الحريق ، والذهاب الى ذلك المكان طلبا للسلامة .

ـ وماذا لو احترق بيتانا يا عم لى ؟

ـ عندئذ سنهرع الى الغدير ونبقى فى الماء قرب الضفة حيث لا اشجار طويلة حولنا .

ـ كلام فارغ ! هراء !

ابى وانغ ان يستمع لأكثر من ذلك . واخذت تنطلق من فمه حمم الشتائم ، مدخلا الرعب فى نفس تونغ الصغير ، ثم سأل " اليد الواحدة " :

ـ ماذا تريد يا لى ؟ هل تعتزم ان تشعل نارا فى وادى الريشة الاخضر ؟ اذن . . لماذا تخطط ان تهرب من النار ؟

ووقف " اليد الواحدة " معقود اللسان حيال السؤال .

ثم رد عليه :

— ان الفيضانات والنيران لا ترحم احدا يا وانغ ؟

— هل تقصد بأن تقول لى بأن النار ستنشب فى الغابة فى هذا الشتاء ؟

وفى ازدراء . . خطف كتاب « حقائق عامة عن حرائق الغابات» من يده . واخذ يتصفح الكتاب برغم انه لا يعرف ولو قراءة كلمة واحدة . ثم اعاده الى " اليد الواحدة " وقال :

— ربما كان هذا الكتاب من كتب العرافين الذين يحاولون استطلاع المستقبل .

— هذا الجفاف ، يا وانغ ، قد دام مدة طويلة مرعبة . الجبل تغطيه الاوراق الجافة ، ويذيع الراديو فى كل ليلة . . .

لم يعرف " اليد الواحدة " لماذا يشعر دائما بالخجل حين يقف امام وانغ . . يبدو ضعيفا شاحبا .

ولما سمعه وانغ يذكر الراديو ضحك فى خفوت وبرود . وقاطعه ليقول :

— هل ما زالت علبتك السوداء تغنى اغانى الحب النادبة تلك ؟

لم يعرف " اليد الواحدة " كيف يفهم هذه الملاحظة . ولكنه بقى ثابت الجنان وقال :

— عندى اقتراح يا وانغ . اود منك ان تبعث بتقرير الى قيادة مصلحة الغابات طلبا منهم ان يرسلوا شخصا لاصلاح خط الهاتف فورا . لو صدف وحدث شيء ، نوع من الحالات الطارئة ، نحتاج الى وسيلة للاتصال بالعالم الخارجي .

ـ اذا اردت ان تقدم تقريرا فاذهب الى المقر وقدمه هناك . سأمنحك يومين عطلة ! عندما تصل الى هناك .. لماذا لا تطلب ان كان بمقدورهم ان يرسلوا فرقة اطفائية بكاملها للاقامة هنا ايضا !

وما كان من وانغ الا ان رمق " اليد الواحدة " نظرة جانبية ساخرة ، وصار يتثاءب وقال :

ـ انا لست اتباهى ، ولكنى عشت فى وادى الريشة الاخضر اكثر من عشرين حولا . هل تظن اننى لا اعرف شيئا عن حرائق الغابات ؟

فى تلك الليلة ، وكالمعتاد ، ذهب وانغ الى بيت " اليد الواحدة " بعد العشاء . الغريب فى الامر انه بينما كان وانغ يلجأ فى الماضى الى التوبيخ والتقريع كأنما كان يعامله معاملة احد " العناصر الخمسة الرديئة " .. تصرف فى هذه الليلة تصرفا مغايرا . كان ودودا على غير العادة .

ـ يا رفيق لى ! هل يمكنك ان تسدى لى معروفا حين تذهب الى القيادة ؟

وتناول قطعة ورق ابيض كان قد احضرها معه وطلب من " اليد الواحدة " ان يكتب له طلبا للانضمام الى الحزب . فذهل " اليد الواحدة " .. ووضع وانغ اصبعا بين اسنانه وصار يعضه الى ان ينزف منه الدم . ثم رفع الاصبع كأنه سارية علم . كان يقطر دما .

ـ اسرع واكتب لى : رئيس مصلحة الغابات الموقر والمحترم ..

اكتب هذا الطلب بدمى للانضمام الى الحزب . . انا لست متعلما . انا ريفى ابله ولكن قلبى احمر . سأفعل دوما ما يقوله الحزب . . .

لقد دب الذعر فى نفس " اليد الواحدة " . ولسرع بالتقاط فرشاة كتابة وصار يغمسها وهو يكتب بدم اصبع وانغ . واتم كتابة الطلب بأسرع ما استطاع عليه . آه يا عزيزى ! لم يجرؤ ان ينظر الى ذلك الدم ، وارتعش بدنه وتبللت ملابسه بالعرق . ولما انتهت كتابة الرسالة بالدم طواها وانغ ووضعها فى جيب بالطبقة الداخلية من ملابسه . وبعد كل ذلك لم يكن يثق فى " اليد الواحدة ". انه لن يقبل ان يحمل هذه الرسالة المقدسة الى القيادة هذا الشخص غير الموثوق سياسيا .

وفى صباح اليوم التالى ، هب وانغ ومن غير ان يداوى اصبعه ، فأشعل نارا فى قطعة جديدة من الارض بجانب بستانه لأنه اراد ان ينظف قطعة اخرى من الارض التى يستغلها لنفسه . كان عاملا مجدا ، وكان قد نظف قرابة ثلثى فدان لزراعة الخضروات . وكانت القيادة قد طلبت ان يربى ثلاثة خنازير ويقدد لحومها بنهاية العام ثم يسلمها . وكان كل ما يربيه عدا ذلك فهو له . لم يأبه لأى فلسفة . . كان ايمانه بالحزب ايمانا بنفسه . وكان يؤمن بأن على الحزب ان يتكون من اناس امثاله . جرف الاغصان الميتة والاوراق المتساقطة ثم اشعل فيها النار . فى كل سنة بعد الشتاء ، كان يحرق المنطقة على هذا النحو لتسميد الحقول حتى لو حدث جفاف فى هذا الشتاء فلن يفكر فى انتهاك هذا التقليد .

ضحك " اليد الواحدة " من قيام وانغ بحرق النباتات فى هذه

الموجة الحارة ، ومع ذلك لم يتجاسر ان يقول شيئا عما يفعل .
كما لم يستطع ان يذوق النوم الجيد فى تلك الليلة . كان دائما ما
يحلم بحرائق هائلة مريعة كما السحب عند غروب الشمس ،
تجتاح كل شىء فى طريقها بسرعة تيار المياه المتدفقة فى النهر .
وصعد الى الجبل مرتين ليلا فى السر ليقطع غصن شجيرة تنوب .
ثم وقف يراقب بجانب اكوام الرماد المتخلفة عن محروقات
وانغ فى النهار . كان يقف هناك معظم الليل . هاجمته ريح الشتاء
فى يديه وقدميه ووجهه . . كانت تؤلمه ايلاما شديدا . لماذا يحرس
هذا الرماد ؟ لم يكتب رسالة بالدم طالبا الانضمام الى الحزب .
وحتى لو فعل فلن يصدق احد ما قال . . فى الرماد رأى اللهيب
والشرر . كل المطلوب لاشعال نار فى الغابة انما هو شرارات
قليلة تتساقط على سفح الجبل المدثر بالاوراق . واذا ما ابتدأت
انتشرت ملتهمة كل ما فى طريقها . لا بد ان يعود الى القيادة
لتقديم تقرير . اولا يطلب منهم ان يرسلوا شخصا لاصلاح خط
الهاتف ، وثانيا يطلب منهم ارسال شخص ليتفقد العمل الجارى
بوادى الريشة الاخضر واقناع وانغ بوجوب ان يغير اساليبه . .
لقد افصح عن خطته سرا الى بان التى كانت عيناها متورمتين
ومليئتين بالدموع فى الايام القليلة الماضية ، وكانت تلتقيه محنية
الرأس . لقد احست بحب جارف وامتعاض وكراهية حيال هذا
الشاب البائس . احست دائما كأنما لديها عالم من الاشياء تود
ان تفضى بها اليه .

بعد ظهيرة ذات يوم وكان " اليد الواحدة " واقفا منحنياً

على الفرن يعد بعض الطعام لرحلته ، جاءت بان فجأة الى كوخه الصغير . كان هذا انتهاكا صارخا لمحظورات زوجها الصارمة التى مضى عليها شهر . ارتبك " اليد الواحدة " . بدا ان بان كانت قد عادت لتوها من الخارج . كانت ترتدى بلوزة شفافة مشدودة عليها باحكام . وكان الزرار تحت ياقتها مفتوحا ، كاشفا بنصف فتحة عن ثدييها المدورين المغريين اغراء تاما .

— ماذا تريدين يا بان . . .

واخفض " اليد الواحدة " رأسه . قد ذعر فلم يكمل حتى السؤال .

— غبى ! انت احيانا لطيف وفى احيان غبى . لست عفريتة جبل !

قالت ذلك لأن " اليد الواحدة " بدا مذعورا كل الذعر كما لو انه رأى شبحا . وشعرت بان بعاطفة الامومة نحوه بأكثر من ذى قبل .

— بان . . انت . . انت . . .

— اريد منك ان تسدى لى خدمة عندما تذهب الى مصلحة الغابات .

وشد " اليد الواحدة " نفسه ورفع رأسه ونظر اليها .

— ها هى مئة يوان . ارجو ان تشترى لى راديو مثل الذى عندك . وأشتر لى ايضا مرآة وصابونا وبعض كريم البشرة . واشتر ايضا فرشاة اسنان لكل من تونغ الصغير وتشينغ الصغيرة ولى مثل التى عندك وتنظف بها فمك فى كل صباح . سنقيم عمودا عندنا



ونركب عليه الهوائى .

ونظر " اليد الواحدة " الى بان محتارا . هذه المرأة الغابية تبدو مثل ربة الجمال . ثدياها مليئان ، اطرافها رائعة التنسيق وجسمها متين شديد . كانت رقيقة ولطيفة ، يشع جسمها طاقة شبابية يتعذر كبحها .

ـ انت ! لماذا تنظر الى بهذا الشكل ؟ انا بائسة مثلك .

واستدارت بان جانبا فى دلال وقد احمر وجهها واخفضت عينيها .

ـ نعم . . نعم . . يا بان . . انا . . انا . . آه . . .

وفقد " اليد الواحدة " حبل افكاره لفترة كأنما اكتشف شيئا يتوهج من جسم بان . وبسرعة استعاد وعيه مستفيقا من غشيته وقال متورد الوجه :

ـ اذا انفقت فلوسك مرة واحدة أفلا تخافين من وانغ . . .

كانت بان تنظر اليه بتعبيرات مليئة بالابتهاج . ولما سمعته يسأل ان كانت " تخشى وانغ " احست بأنه رش ملحا على السكر العسلى فى قلبها .

ـ اخاف ؟ لقد خفت لأكثر من عشر سنين حتى الآن . فى كل شتاء ، يصطاد الحيوان ، وفى كل ربيع يبيع الجلود ، وكل ما يحصله من فلوس تضاف الى مرتبنا الذى لا احد منا يصرف منه شيئا . صندوقنا ملىء بالاوراق المالية من فئة عشر يوانات . لا ينفق على نفسه شيئا بل انه لا يعرف فى ما سينفق . . كلا ! لست خائفة ! اسوأ شىء ربما يحدث لى هو ان اموت .

كانت بان تتكلم وعيناها تطفحان بالدموع .

– ناولينى الفلوس يا بان . سأشترى هذه الاشياء لك .

كانت عينا " اليد الواحدة " مغرورقتين بالدموع ايضا .

– لا تبكى . لقد ظلمك وانغ . انا لا قيمة لى . انى امقت نفسى ! ارجوك ان لا تبكى . لو جاء وانغ من الجبل ورآنا الآن فلسوف يضربك ويشتمنى ...

– انت .. انت لست انسانا . اللبلاب الممسك ببيتى اقوى منك !

وحملقت بان فى " اليد الواحدة " بامتعاض وكراهية . والتفتت وانصرفت .

– بان ! بان ! ...

وجرى " اليد الواحدة " الى الباب ، واراد بلا وعى ان يرفع ذراعيه ليحضن ما رغب فيه ولكن كم يده اليسرى الفارغ ظل متدليا الى جانبه .

عندما وصل " اليد الواحدة " الى مصلحة الغابات ، وجد الناس فى كل مكان يكتبون الشعارات بأحرف كبيرة : لنعارض الانحرافيين اليمينيين ! لننتقد العناصر البرجوازية فى داخل الحزب ! وكان الكوادر والعاملون فى مبنى القيادة الضخم يهتفون فى فوضى ، يدخلون ويخرجون من المكاتب . ظن " اليد الواحدة " ان من الانسب ان يقدم تقريره لرئيس الدائرة السياسية . فهو الذى ارسله الى وادى الريشة الاخضر . انتظر طوال الصباح تقريبا بجانب

باب المكتب . ولما حان وقت الغداء دلف الى المكتب .

ـ ايه ! لى شينغ فو ؟ ما الذى اعادك الى هنا ؟

كان الرئيس المتأهب للانصراف ، يقف امام مكتبه . تحسس جبينه ثم وضع يديه على خصره ولوى جسمه عدة مرات ، ولكن بدا على سلوكه الانشراح . واسرع " اليد الواحدة " بكل ما أوتى عليه بعرض اقتراحه بضرورة ارسال شخص لاصلاح خط الهاتف . فاستغرب الرئيس مندهشا لهذا الاقتراح وقال :

ـ اصلاح الخط المتروك منذ هذه السنين العشر ! هل هذا اقتراح وانغ ؟ آه . . انه اقتراحك ! اسمع يا لى . . اننا نعتمد على وانغ فى الاهتمام بالامور فى وادى الريشة الاخضر . انه موثوق سياسيا الى درجة كبيرة مع انه غير متعلم . لقد كان حارس غابات نموذجيا لأكثر من عشر سنين . الامر ليس كمثل ان نشير بأصابعنا وينصلح حال خط الهاتف . هذا النوع من الاشياء يتطلب اموالا ومواد كما تعرف . عما قريب ستثور حملة سياسية اخرى . لقد طلب منا بأن نهيب بكل فرد فى عموم البلاد لمعارضة الانحرافيين اليمينيين . هذه هى المهمة الاهم التى تواجهنا حاليا . هل فهمت ؟

ثم اقترح " اليد الواحدة " بأن ترسل القيادة شخصا الى وادى الريشة الاخضر لتفقد اعمال الوقاية من الحرائق . وتحدث ايضا عن قيام وانغ باحراق الحقول فى موسم الجفاف . وبدأ يساوره الشك بأن الرئيس قد عيل صبره اذ اراد ان يتناول طعام الغداء .

ـ هـ . . م م ! يبدو يا لى انك قد احرزت تحسنا عما رأيتك فى المرة الماضية .

ومرة اخرى ، بدا الرئيس منذهلا ، غير انه اشتد فى كلامه اذ قال :

ــ على كل حال .. اسمح لى بأن اوضح هذا الامر : نحن هنا فى القيادة نثق فى وانغ ثقة مطلقة ! ما دمت تقيم فى وادى الريشة الاخضر عليك ان تطيع اوامره وتتعلم منه وتصلح نفسك على يديه . لا تلجأ الى هذه الالاعيب مرة اخرى . انا اعرف ان زوجة وانغ شابة وجميلة .. لا تفعل شيئا ينبغى ألا تفعله ، والا فقدت ذراعك الاخرى . انت ما زلت شابا وامامك مستقبل . يجب ان يكون سلوكك حميدا !

اذن .. كان ذاك هو الامر . ليس فحسب عجز "اليد الواحدة" عن تقديم تقرير كامل ، بل تلقى تأنيبا قاسيا . من الواضح ان القادة لا يثقون به . لقد احس بأن كل الكلام قد ذهب ادراج الرياح . كان كمثل كلب مقرح يطرد من مكان الى مكان ، يركله ويضربه كل فرد فى الطريق . وامضى اليومين التاليين يمشى وحده بالشارع الرئيسى وتعاونية التموين والتسويق ومشتل النبات . لقد كره والديه لأنهما ألحا عليه بأن يذهب الى المدرسة .. كره واقع انه لا يستطيع ان يتحول الى ابله احمق امى كى ينضم الى صفوف وانغ واضرابه . فى هذه الايام .. لا احد يشعر بأن للتعليم قيمة .. بل على العكس ، ففى هذه الايام ، يعتقد الناس بأن المعرفة هى سبب النزعات الرجعية وان الناس من امثال وانغ هم فقط القادرون على القيام بالثورة .

وفى الاخير .. فكر فى وادى الريشة الاخضر وفى بان وتونغ

الصغير وتشينغ الصغيرة . على الاقل هناك ، فى ذلك المكان المنعزل الصغير المقطوع عن العالم ثلاثة اشخاص لا يزدرونه . . ويثقون به . بدا " اليد الواحدة " وهو يفكر فى هذا الامر ، انه قد عاد الى رشده . اشترى تموينا من الزيت والملح والارز يكفى لشهرين من متجر الحبوب . ثم ذهب الى التعاونية واشترى لبان راديو ترانزستور وصابونا وكريم بشرة وفرشات اسنان ومرآة مستديرة كبيرة . واخيرا . . ذهب الى متجر البقالة واشترى كيلوغراما من الخبز المبخر . وفى الصباح الباكر من اليوم التالى ، بدأ مسيرته الى وادى الريشة الاخضر حاملا حمله على عود خيزرانى فوق كتفه .

ولما وصل الى وادى الجبل الاسود كانت الشمس قد نزلت الى مخدعها فى الغرب . لم يكن امامه الا جبل واحد ليصل الى وادى الريشة الاخضر . سيكون فى مأمن وسلامة فى بيته قبل ان يطبق الظلام . ثم رأى دخانا اسود يحمله النسيم القادم من الوادى . أما زال وانغ يحرق حقولا ؟ لماذا هذا الدخان الكثيف ؟ . . كان التعب قد اخذ منه مأخذه ولكنه لم يتوقف ليستريح . اراد ان يصل الى الممر الجبلى بسرعة لتتضح له الامور . ولما ازداد قلقه ثقلت ساقاه . وانتابته افكار مرعبة . وقبل ان يصل الى الممر ، شم رائحة الدخان المحمول من الجانب الآخر من الجبل وسمع اصوات طقطقة النيران وزمجرتها . يا الهى ! وادى الريشة الاخضر لا يحترق . . أليس كذلك ؟ ولكن من اين هذا الدخان والصوت الهادر ؟ واخذت السماء التى بدأ يهبط عليها الظلام ، تتوهج حمرة فوق الجبال . . هل هى الشمس الغاربة ؟ سحب المساء ؟

ام لهيب مزمجر لحريق فى غابة ؟

وصل الى الجبل . . كان بدنه يتفصد عرقا ساخنا . كانت حبيبات العرق بحجم بنان الاصبع ملتصقة على جبينه . بدا كأنما روح كان يسحبه ناحية ممر الجبل . وسرعان ما زغللت عيناه من نار متأججة ملأت الوادى بنور قرمزى . كاد يغمى عليه . وادى الريشة الاخضر ! يا الهى ! وادى الريشة الاخضر بحر من اللهيب ! رياح الجبل تزيد فى النيران التى شكلت ألسنة لهيبها آلافا من ام اربع واربعين العملاقة تمتد هنا وهناك على حرف الجبل ، وتتقدم بقسوة وشراسة . امتلأ الوادى بموجة اثر موجة من الدخان المتلاطم . . اكتسحت النيران الهادرة متقدمة الى الامام . الاشجار المعمرة قرونا تحترق بالكامل ، جذوعها تبدو مثل المشاعل العملاقة . الجروف المحترقة تدوى كأنها الغام . ومن سحب الدخان تنطلق سهام حمر من اللهب ، تتطاير مثل ثعابين قرمزية راقصة فى تيارات الهواء اللاهبة .

— بان ! تونغ الصغير . . تشينغ الصغيرة !

وانزل " اليد الواحدة " عود الخيزران على الممر . ونزل راكضا وهو يصيح الى الوادى الذى تغمره النيران . لا يمكنه ان يترك بان ولا الطفلين برغم الخطر الداهم الذى يواجهه . ليس له من اصدقاء سواهم هم الثلاثة . وركض غير هياب . ومن المدهش انه لم يتعثر . وسرعان ما خاض فى غمار كتل الدخان الكثيفة حيث لمح امرأة رثة الملابس شعثاء الشعر ووجه متسخ تصعد باتجاهه .

— بان ! ماذا جرى ؟ هل انت بخير ؟

نادى " اليد الواحدة " عليها بابتهاج غامر عندما عرف انها بان . عندما مدت اليه يديها طلبا للمساعدة قبل ان تسقط على الارض ، اندفع اليها واحتضنها نصف مقرفص .

ــ بان ! بان ! انه انا لى شينغ فو .

كان " اليد الواحدة " جاف الحلق ، اجش الصوت ، وبكى وهو ينادى عليها . مضت حوالى عشر دقائق قبل ان تستعيد وعيها . ولما فتحت عينيها تمتمت : انت . . انت ! كنت مشغولة البال عليك دائما . . .

ثم دفنت رأسها الى صدره واخذت تنتحب .

ــ لا تبكى يا بان . . لا تبكى ! احكى لى كيف اشتعلت النيران .

ــ لنذهب . . ساعدنى على الوقوف . . .

قالتها بان وهى تصارع فى تثبيت قدميها ثم جاهدت لتصعد سفح الجبل . ساعدها " اليد الواحدة " وسمعها تقول :

ــ ذلك الوغد المتحجر القلب اللعين ! يوم ان ذهبت انت الى القيادة اكتشف نقص مئة يوان فى الصندوق . اتهمنى بسرقة الفلوس لأعطيها لك . لم يصدق اى كلمة قلتها له . ضربنى على رأسى وصدرى . . ظل يضربنى الى ان ازرقت واسودت كل بقعة فى جسمى . اللعنة عليه ! ثم اغلق على باب بيتك الصغير . ظلت ثلاثة ايام بلياليها لم يقدم لى حتى رشفة ماء . امضيت طوال الليلة الماضية أخدش بأصابعى لأكسر لوحة . ثم جريت الى الغدير لأشرب فرأيت الغابة تحترق . . هذه النيران هو السبب فيها . . .

حرق . . . حرق كل الاشياء البرية على الجبل .

— اين تشيتغ الصغيرة وتونغ الصغير ؟

— ذلك الوغد ! بعد ان اشتعلت النار حمل صندوق الفلوس واخذ تونغ الصغير وتشيتغ الصغيرة واتجه مع الغدير خارجا من الوادى . ذلك ما قلت انت له . . .

وارتمى جسم بان الواهن على كتفه ولكنها لم تعد تبكى ، بل اخذت تمشط شعرها حتى انها مدت يدها لترفع خصلة شعر مبللة بالعرق من على جبينه .

اشتد الذعر فى قلب " اليد الواحدة " لهذه الكارثة المفجعة : صعدا الى الممر ليجدا عود الخيزران الذى تركه سابقا . وهناك تذكر انه ما زال لديه كيلوغرام الخبز فى جيبه وقارورة ماء بارد . اسرع فى احضار ذلك وقدمه لها . كانت بان جائعة . . قضمت كل خبزة ثلاث او اربع قضمات . وبعد ان تناولت ثلاثا منها قدم لها الماء . ارتمت بان على صدره مرة اخرى .

وحضنها " اليد الواحدة " بشدة وهو ينظر بلا هدف الى النار المتأججة من تحتهما . وفجأة تذكر ان وراء الجبل المقابل يوجد وادى الاحباب حيث فيه موقع فتان من التنوب الجبلى واللوتس الذهبى . لقد سمع الخبراء فى المشتل يتحدثون عنه . يعود هذان النوعان من النبات الى العصور الجليدية . . انهما متحجرات حية على وشك الانقراض . ابتهج قلبه وقال لها :

— اسمعى يا بان . . النار لم تأت الا على جزء من سفح الجبل . لننتقل الى الجانب المقابل ، وراء خط الوقاية من النار

لنحمى حرف الجبل ذاك . اذا تمكنا من انقاذ الاشجار فى وادى الاحباب ، واذا عدنا فى يوم ما الى القيادة ، كان لدينا ما نقوله عن انفسنا .

وفيما انتهى "اليد الواحدة" من هذا القول ، ارخى البصر الى الممر الضيق المؤدى الى القيادة ، بعينين قالتا فى وضوح ان هذا هو الوداع الاخير .

ـ سأذهب معك . لا يهم اين تذهب فانى سأتبعك .

ان الطعام والاغفاءة القصيرة قد انعشا هذه الشابة الصلبة من اهل ياو .

رصد موقع رادار جيش التحرير الشعبى على بعد خمسين كيلومترا الحريق فى الغابة بوادى الريشة الاخضر . وعلى الفور . . خابر الموقع قيادة مصلحة الغابات بمنطقة الجبال الحدودية . فعبأ القادة جماهير غفيرة من الناس بالتوجه الى الجبال لمقاومة النيران . ومن سوء الحظ . . كانت معظم اشجار الوادى قد التهمتها النيران لم تخلف وراءها سوى اشجار متفحمة سوداء عارية بدت مثل عصابات من الاسرى العفاريت تمكنوا من الهرب من جهنم .

وبعد سبعة ايام ، عاد وانغ الى القيادة ، ومعه صغيراه ويحمل صندوقا خشبيا . لم يعرف احد اين وكيف نجوا من الكارثة . لم يعرف ماذا حدث لزوجته وللى شينغ فو . وقد اكد والدموع تسيل من عينيه على ان بان وحبيبها لى هما اللذان اشعلا النار . ليس ذلك بسبب النار التى اشعلها لتنظيف الحقول . كان حارس غابات

نموذجيا لأكثر من عشر سنين . وقدم الطلب المكتوب بالدم للانضمام الى الحزب ، الى لجنة الحزب بالقيادة فى محاولة لتبرئة نفسه . وكان من الطبيعى ان يصدق القادة تقريره الممزوج بالنحيب . فأرسلوا افرادا من المليشيا الى وادى الريشة الاخضر للتحقيق واعتقال الحبيبين . ولم يجدوا فى الايام القليلة التى امضوها على البقعة الجبلية المكسوة بالرماد سوى البقايا المتفحمة لبعض الحيوانات البرية . لم يعرف احد ان كان بان ولى على قيد الحياة .

ولكن المنطقة كانت ، كما هو الشأن فى كل مكان آخر ، منشغلة فى الصراع الطبقى الذى سيقرر مصير الامة . وفى سبيل عدم عرقلة تقدم حركة " معارضة الانحرافيين اليمينيين " ، قدمت المليشيا تقريرا حسبما جرت العادة فى ذلك الوقت ، جاء فيه : " ان النيران التى اثارها اعداء طبقيون اطفأها الكوادر والجماهير الثوريون فى الوقت المناسب . . . " وكان هذا كل ما فى الامر .

رفض وانغ ان يعود الى وادى الريشة الاخضر فى ظل اى ظرف من الظروف . ومن حسن الحظ . . تلقت القيادة رسالة عاجلة من كهف بوابة السماء . . منطقة غابية على حدود مقاطعتى قوانغدونغ وقوانغشى تفيد بأن حارس غابة عجوزا قد داهمه الموت بسبب المرض . فأرسل قادة مصلحة الغابات وانغ وطفليه ليتولى ذلك المنصب ويواصل حياته الشاقة ، المريرة ، المعتمدة على الذات . يقال بأن وانغ قد تزوج من ارملة فى قوانغشى فى تلك السنة . واستأنف عاداته القديمة فى الذهاب الى الفراش مع مغيب الشمس والعمل فى جدية . وصادفها الحظ فأنجبت طفلين من

زوجها السابق ، فتى وفتاة . وكان كل منهما يأمل فى زواج سعيد من تشينغ الصغيرة وتونغ الصغير . وبذلك ينشأ جيل جديد فى كهف بوابة السماء فى الكوخ القديم .

وبعد سقوط " عصابة الاربعة " الخائنة ، اعتقد اناس كثيرون فى مصلحة الغابات بأن بان ولى ما زالا على قيد الحياة فى مكان ما فى اعماق الغابة ، ويعيشان نوعا آخر من الحياة . وظن آخرون انه متى ما صححت الامة كافة المظالم التى عاناها اولئك الذين اسيئت معاملتهم فاربما جاءت بان ولى يدا فى يد فجأة الى القيادة طالبا لاعادة الاعتبار اليهما .

مستحيل ؟ حتى الاشجار المتفحمة السوداء التى احترقت كلية فى تلك السنة فى النيران التى اشتعلت فى وادى الريشة الاخضر قد اخرجت براعمها فى هاتين السنتين الفائتتين وقد تغطت اغصانها بأوراق جديدة .

كلمة عن المؤلف



قو هوا من مواليد العام ١٩٤٢ فى ارياف محافظة جياخه من اعمال مقاطعة هونان . واسمه الحقيقى: لوه هونغ يوى . فى سنة ١٩٦١ . . بدأ يدرس فى مدرسة تشنتشو الاقليمية للزراعة . ثم اصبح عاملا زراعيا فى معهد العلوم الزراعية . فى سنة ١٩٧٥ . انضم الى الفرقة الاقليمية للغناء

والرقص ، حيث عمل كاتبا . ثم نقل الى الاتحاد الثقافى الاقليمى . فى سنة ١٩٨٠ . . انضم الى اتحاد الكتاب الصينيين . وفى نفس السنة ، انتخب عضو مجلس الادارة لاتحاد الاوساط الادبية والفنية بمقاطعة هونان .

نشر قو هوا اول عمل له فى سنة ١٩٦٢ . وفى سنة ١٩٧٨ ، نشر « اناشيد نهر مانغ » وهى مجموعة قصص قصيرة . وبنهاية سنة ١٩٨١ . . نشر اربع روايات قصيرة منها « اللوتس الذهبى الاوراق » واكثر من ثلاثين قصة قصيرة منها « السحلبية » . وظهرت روايته « بلدة الزهرة العطرة » فى نفس السنة ولقيت قبولا حسنا .

البائعة

هانغ ينغ

١

نتيجة استطلاع الرأى الذى دام اسبوعا ، هذه النتيجة غير المتوقعة ، اوقعتنى فى موقف حرج للغاية . جاءت فى المركز الاول حاصلة على ١٨٩٩ صوتا ، متقدمة بشكل كبير عن الاثنين التاليين لها فى القائمة . لقد ذهلت بل صعقت .

مديرنا الجديد وامين لجنتنا الحزبية ، قوه ، هو صاحب فكرة ان نستطلع آراء الزبائن عن افضل بائع ، اذ قال : الزبائن يعرفون من افضل بائع . ان مشاركتهم فى ادارة متجرنا ستساعدنا على تحسين اعمالنا .

وضع صندوق اقتراعات كبيرا على مدخل المتجر ، خصص له رجلا ليجمع الاصوات كل يوم . وطلب من كل بائع يشترك فى هذه المسابقة ان يضع على صدره شارة تحمل رقما كيما يتمكن الزبائن من تحديد الباعة .

لقد اتعبتنى هذه الفكرة الجديدة التى طرحها قوه اذ اننى كنت متيقنة دوما ، بصفتى امينة لعصبة الشبيبة ، من نتيجة اى تصويت قبل ان يرفع الناس ايديهم . كنت اتلقى التعليمات من امين اللجنة الحزبية وابذل جهودا كدودة فى البحث عن مرشح مناسب وتزكيته فى اجتماعات الاعضاء النشاط للحزب او لعصبة الشبيبة . وكان الناس يستمعون لى ويعرفون من يختارون . الامر الآن مختلف . لم يصدر قوه لى اى تلميحات . لم يزد عن قول : لنترك الزبائن يقررون .

وها هم اختاروا فتاة ليست عضوا فى الحزب ولا فى عصبة الشبيبة بل حتى انها لا تبشر بمستقبل !

كنت على يقين ان الناس سيدلون بأصواتهم لصالح وانغ شيان شو رقم ٥٩ التى كانت هدفا بارزا لدعاية المتجر فى الستة شهور الماضية . وبناء على اقتراح قاو ، الامين الاسبق للجنة الحزبية ، جرى اعدادها لتكون الثانية بعد وانغ شو شيان التى هى انا . كان اسمانا متقاربين الى حد ما . كنت فى الثلاثينات من عمرى ، ولست متزوجة بعد ، انما حملت ألقابا عديدة . . امينة لجنة عصبة الشبيبة بالمتجر . . عضو لجنة المتجر الحزبية . . عاملة متقدمة متمرسة . . عضو لجنة عصبة الشبيبة بالمدينة . . عضو اتحاد النساء بالمنطقة . . رائدة . . نموذج للزواج المتأخر . . . رغبت ان تبرز وانغ شيان شو مثلى انا . كانت تقف على نضدى القديم وخلفتنى مسؤولة لفرقة . كانت تصل قبيل الفجر وتبقى الى وقت متأخر ، تكنس الارض ، وتنظف الحمامات ، وترتب

التقارير الفكرية المنتظمة لفرع عصبة الشبيبة .. كانت تحذو حذوى فى كل خطوة ... كانت مثلى ، شعرها غير مقصوص من الخلف ، ضفيرتاها الصغيرتان مربوطتان بشريطين احمرين غامقين . كما كانت ترتدى بلوزة تحت جاكتة العمل ، كان قد ذوى لونها بسبب الغسيل . فى الحق .. كانت هى الصورة للعامل النموذجى . ولكنها لم تحصل الا على نصف الاصوات .

كانت الفائزة هى جين لو او الغزال الذهبى .. الفتاة الواقفة على نضد الحلويات . كانت تحمل رقم ١٦٣ غير ان الشباب الذين كانوا يتوافدون من مصنع دلفنة الفولاذ القريب كانوا يدعونها "رقم ١" . لم افهم ماذا كانوا يعنون الى ان اكتشفت انهم كانوا يعطون الدرجات للفتيات عندنا حسب المظهر . هذا السبب وحده جعلها لا تتأهل لتحظى بلقب عاملة نموذجية . ولكن هذا الوجه الفاتن قد اصبح يشكل تحديا لى !

٢

كانت ستوزع الجوائز فى الاسبوع التالى فى اجتماع يحضره المسؤولون عندنا ورجال الصحافة والاذاعة وزملاء من متاجر اخرى ومندوبون عن الزبائن . وجئت الى قوه واقترحت عليه ان نؤجل اعلان النتائج حتى ندرس المشكلة اولا كيما لا تسوء الامور فى وجوهنا . وافق قوه ودعا الى عقد اجتماع موسع للجنة الحزبية فى مساء ذلك اليوم .

وفى الاجتماع .. رفع الموظفون فى قسم العمل السياسى واثا ثلاث نقاط ضد جين . اولا .. انها فتاة طائشة وكثيرة الانشغال بالملابس . لقد اختارها بعض الزبائن ملكة جمال لمتجرنا . ولربما وضع اصواتها اناس لديهم دوافع اخرى . ثانيا .. لم تحب عملها بل هى اشد ما تكون حماسة للظهور امام الاضواء فى المركز الثقافى . ثالثا .. انها فتاة لعوب . فقد دعت الاولاد مرات عديدة الى مهجعها لتناول الحلوى .

لم يوافق على هذا الرأى مسؤول اتحاد العمال ولا رجال قسم الدعاية . اذ قالوا ان الاصوات تدل على انها تتمتع بشعبية وانها تتميز بين زملائها بسرعة وكفاءة فى العمل وكثرة مقدار البيع . واضافوا ان المنافسة الاشتراكية معناها المنافسة فى كثرة المساهمات فى العمل . واستطردوا يقولون بأننا ينبغى ان نعلن نتيجة الاستفتاء بأمانة ما دام الزبائن قد اختاروها .

وقال قوه طافحا بالابتسامة : يجب ان نعرف ان الاستفتاء قد جرى بطريقة ديمقراطية وتحت توجيه الحزب . علينا ، قبل ان ندعو لاجتماع لنوزع فيه الجوائز ، ان نطلب من وانغ شو شيان ان تكثف من البحث عن جين ، ويتعرف اتحاد العمال وقسم الدعاية على آراء زبائننا .

فى تلك الليلة .. ظللت اتقلب على الفراش . كنت سعيدة وقلقة .. سعيدة لأننى سأقدر على اثبات رأيى ، وقلقة لأن قوه ، مع انه جديد فى متجرنا ، عرف الكثير عن احوال المتجر وربما استخلص الاستنتاجات الخاصة به . ربما احسن الظن بجين ،

وعندئذ احتاج الى نقاشات دامغة كى اقنعه .

ومع اول بصيص للفجر ، ركبت الدراجة وتوجهت الى المتجر لأفحص دفاتر الحسابات لنضد الحلويات على امل ان اصيب جين فيما ظننت انه اضعف نقطة فيها .

ولما نزلت عن الدراجة لمحت دراجة حمراء لامعة فى حظيرة الدراجات . ليس سواها يركب دراجة مبهرجة بها آلات متنوعة . . عاكسة ، بوق ترانزستورى ، ماسورة سفلى ملفوفة بقماش مخملى احمر ، قفل من ماركة " الغزال " مطلى بالكهرباء ، ضوء خلفى غريب ، غزال معدنى راكض على رأس رفرف العجلة الامامية . هذه الدراجة تشبهها . ان اشد ما اقلقنى هو انها جاءت مبكرة . ما هو السبب ؟ هل لتتلاعب بدفاتر الحسابات ؟ ..... اسرعت الى نضد الحلويات فلم ار احدا ، وكانت دفاتر الحسابات مقفولا عليها . وتوقفت انظر فى غرفة تغيير الملابس وغرفة كرة الطاولة والمكتبة . لم يكن هناك ظل لها . لم يفتح المتجر بعد . الممرات كانت خالية . اين ذهبت ؟

ثم سمعت صوت غناء خافتا آتيا من الطابق الخامس . اسرعت الى قاعة الاجتماع ولم يكن احد هناك . كان الغناء آتيا من اعلى . وبدافع من الفضول اسرعت على السلالم الحديدية صاعدة الى السطح فرأيتها هناك تغنى .

وبينما كانت تغنى كانت تتلوى بجسدها راقصة . لم يحدث ان حضرت حفلة رقص وانما شاهدت قليلا من الافلام الاجنبية . ربما كانت تؤدى رقصة للديسكو الغريبة التى هوس بها الناس

فى هذه الايام . واريت نفسى وراء المدخنة . كانت مستغرقة فى اداثها غير مهتمة بمن يراقبها .

وتوردت السماء مع الشمس الصاعدة كاشفة عن التواءات جسمها الانثوية . فأغمضت عينى غارقة فى لج من الخجل .

حقا . . كانت شابة فاتنة ومفعمة بالحيوية ، ولكننى لما كنت متحاملة عليها وجدتها مثيرة للاشمئزاز . بدت وجنتاها وشفتاها المتوردة كأنما طلتها بالمساحيق ، كانت عيناها كبيرتين ساطعتين ، ورموشها الطويلة فيها ما فيها من الاغواء والاغراء . والاكثر بغضا الى ما فى عينيها من تعبير متوحش ، عينين تسددان النظر فى وجوه الناس . اما عن ملابسها المتمشية مع احدث طراز ودراجتها المبهرجة . . فحدث ولا حرج ! فى الواقع . . لم يكن لديها احساس بما هو سليم . لذا جاءت فى وقت مبكر فى هذا الصباح حيث لا احد موجود لتقوم بهذا العمل الخالى من كل احتشام . كيف يكون انسان مثلها عاملا نموذجيا ؟

استبد بى الغضب حين توقفت عن الغناء فجأة ، واتجهت ناحية الدرابزين كأنها تتظاهر بالقاء نفسها . وقفزت روحى الى حلقى . وساورنى هاجس بأنه يتوجب ان اسرع لأمنعها ولكنها التفتت حولها على حين فجأة . اتكأت على الدرابزين وتنهدت ، ومسدت شعرها الطويل وقالت : احس بالفراغ والضيق . الوقت يضغط على رأسى . سريعا ما ستغطى التجاعيد وجهى وسيشتعل رأسى شيبا . . .

واخذت تبكى وتنتحب . ومن دون ان ادرى لمست وجهى

بأصابعي فشدني الحنين الى شبابي الضائع .

حاولت ما امكنني ان اسيطر على اعصابي .. لم استطع ان افوت هذه الفرصة السانحة لأسبر اغوار افكارها . وفجأة .. توقفت عن البكاء ورفعت يديها الى السماء وتنهدت : لتساعديني فى ان اقضى ايامي فى الموسيقى والرقص ...

ثم تثنت بجسدها فى هوس ، تدور حول نفسها وشعرها المنكوش يغطي وجهها . وانتابتني سورة من قلق . ماذا حدث لها ؟ لماذا هي مستاءة على هذه الشاكلة ؟ ربما .. هل مسها جنون ؟ ولكنني ناقضت نفسي .. لا .. هذه هي حقيقتها العفنة .

لقد دلل ما قمت به من تحقيق على نجاح اكثر مما كنت توقعت . وتسللت نازلة على السلالم وعلى فمي ابتسامة اطمئنان .

٣

وتفحص رئيس نضد الحلويات وانا دفاتر الحسابات .. امضينا فى ذلك طوال الصباح ، ولم نجد فيها ادنى خطأ . ولما سألته فيما اذا كانت جين قد ضبطت تسرق الحلوى اجاب بالنفي . وعلى ذلك تركته يعود الى مكانه .

لقد تاه عقلي بعد التقليب فى الارقام لساعات ولم اجد شيئا يدعو للريبة . ليست المسألة بالبساطة التى تصورتها . فعزمت الى ان اعود الى نضد الحلويات لأرى سبب ما تتمتع به من شعبية .

كان المتجر غاصا بالناس ، وكان الزحام على نضد الحلويات

اشد . فالقادمون الى المدينة للعمل او المتعة واولئك الذين سيتزوجون او يزورون اصدقاءهم واقاربهم ، والآباء والامهات الذين يتسوقون ومعهم اطفالهم . . كل هؤلاء يريدون شراء حلويات . ولما كنت قصيرة القامة لم اتبين بوضوح من كان على النضد وراء هذا الحشد من الزبائن . ثم لمحت رأسا يعلوه شعر كثيف متموج به دبوس ذهبي تتميز به الفتيات من قومية داى فى شيشوانغبانا بمقاطعة يوننان . . مع سلسلة كانت تهتز كلما تحرك الرأس . هذا العرض المتعمد نفض اوصالى فاعتدلت فى وقفتى .

وبينما انا واقفة هناك علنى اجد لها خطأ كان لزاما ان اعترف انها تعمل بكفاءة . كانت تبتسم وهى تسأل الزبون الاول فى الصف ماذا يريد . ولما لبت طلبه سألت الثانى عن حاجته وقالت للثالث ان يفكر . وفى نفس الوقت . . بينت للزبون الاول كم عليه ان يدفع ، ودققت حسابها على المعداد . . واعطت لكل زبون ما تبقى له . ان مهارتها هذه قد اكسبتها ثناء عاطرا .

ولاحظت بعينى الخبيرة انها لم تحن رأسها على الميزان وانما تنظر من آن لآخر مبتسمة الى الزبائن وهى تتحدث معهم . فمطلوب من الزبائن ان يكونوا ودودين . لقد احتجت الى وقت طويل لأتعلم ذلك قبل ان ارشح عاملة نموذجية . لا بد انها مرت بصعوبات جمة هى الاخرى .

ولكن . . سرعان ما تبدد الانطباع الجميل الذى كونته عندما تذكرت اداءها غير المحتشم فوق السطح . كانت انسانا مختلفا تمام الاختلاف عند ذاك . لو لم ارها بأم عينى فما كنت صدقت



ذلك . ينبغى الحكم عليها ليس من عملها فحسب وانما الاكثر اهمية هو افكارها . ومهما عملت جيدا فما زال ثمة شيء يلقى ضوءا كاشفا على شخصيتها الحقيقية .. دبوس الشعر المبهر . وتلك السلسلة الذهبية وراء اذنها والتى تجتذب انتباه الرجال الى جيدها الابيض كما الثلج ! يا له من عبث مخجل !

كان المارة الذين لم يكن فى نيتهم شراء شيء يصطفون فى الطابور ، ربما بسبب الاعجاب او الفضول . وبلا شك فان ذلك قد زاد من العمل .. ولكن : أليس اسلوبها فى اجتذاب الزبائن مثيرا للاشمئزاز ؟

وتنبهت مما انا فيه من استغراق فى التأمل عندما اخذ طفل يصرخ بين ذراعى امه بنهاية الصف اذ نفد صبره على الحلوى . ولما فشلت محاولات الام معه لتهدئته صفعته مما جعله يصرخ كالمسعور . فقالت جين للزبائن الآخرين :

ــ ما رأيكم يا رفاق، لو سمحتم لهذه السيدة ان تقف فى اول الصف ؟ فليس من اللائق ان يبكى هذا الطفل كثيرا .

وافقوا على طلبها وشكرتهم وطلبت من الام ان تتقدم الى اول الصف ولكن الطفل ما زال يصرخ . فأعطته جين حبتين من الحلوى كى يتوقف عن الصراخ .

وهبط قلبى .. كان لا بدّ من الحفاظ على النظام فى المتجر ، ولكن ينبغى عدم تقديم الحلوى على هذا النحو . واصابنى العجب .. هل تتصرف هكذا دائما ؟

واحتارت ام الطفل . ولما انتهت جين من وزن الحلوى استرجعت

الحبتين وقالت للمرأة :

– أليس هذا عدلا ؟

وبعد ان لفت عدة قطع من الحلوى بقطعة صغيرة من الورق وضعت الباقى فى كيس ربطته جيدا قبل ان تساعد المرأة بوضعه فى حقيبتها . ووضعت الكيس الاصغر فى جيب المرأة وقالت :

– هذه لطفلك يأكلها وهو عائد الى البيت فلا تحتاجين الى فتح الكيس الكبير .

وقالت المرأة شاكرة :

– هذا كرم عظيم منك !

لا بد ان اتنازل عن فكرتى عنها .

ودخل الى المتجر جندى يحمل حقيبة ، واتخذ مكانه فى آخر الصف ينظر الى ساعته بين لحظة واخرى . ولاحظت جين بعد ان انهت طلب زبونين آخرين ان الجندى على وشك ان يغادر فنادت عليه :

– هل انت مستعجل ؟

– نعم .. لا بد من ان ألحق بالقطار لأعود الى المعسكر . اريد شراء بعض الحلويات لاصدقائى .

وسمحت للجندى ، بعد ان وافق الزبائن الآخرون ، ان يتقدم الى مقدمة الصف . فحياها وغادر منفرج الاسارير ومعه الحلويات .

هذه الانسانة المتفسخة فى افكارها تتدفق كفاءة وحماسة فى عملها ؟ من هى جين الحقيقية .. التى كانت على السطح ام

التى وراء النضد ؟ هل يوجد يشم جميل فى داخل حجر خشن ؟ وخفت الشكوك التى سبق ان حملتها والزبائن يمرون من عندها راضين .

٤

بعد ان غادر الجندى ، تجمعت جماعة من الشباب من مصنع دلفنة الفولاذ وقالوا :

— نحن مستعجلون ايضا ! نريد الاهتمام بنا اولا .

وصاح الزبائن غضابا :

— هيا .. عودوا الى خلف الصف !

وظهر شاب فارع القامة اسمر اللون فى زى عمال الفولاذ وشد شعر مسؤولهم الضارب الى الصفرة وقال بلهجة آمرة :

— تأدبوا وقفوا فى الصف .

وما كان من صاحب الشعر الاصفر وجماعته الا ان التزموا بالهدوء ولكنهم ظلوا يتسكعون .

يظهر ان جين تعرف الشاب الاسمر . وقالت فى محاولة لتخفيف حدة التوتر :

— فى يوم اجازتك يا سيد داى .

ضحك صاحب الشعر الاصفر وقال مشيرا الى الشاب الاسمر :

— ليس هو السيد داى . انه يدعى داى يوى * .

* داى يوى هى البطلة فى الرواية الصينية الكلاسيكية : « حلم فى القصر الاحمر » : فتاة شهرت بجمالها .

وضحك الزبائن . واحمر وجه الشاب الاسمر غضبا . واخذ يحملق فى جين ، ثم التفت الى صاحب الشعر الاصفر الذى ما فتئ يردد :

— داى يوى فى الصينية القديمة معناها : اليشم الساطع الاسود .

وضحكت جين بينما الشاب الاسمر يرمقها بنظرة غاضبة اخرى وجرى وراء صاحب الشعر الاصفر .

وتوقف صاحب الشعر الاصفر وراء عمود وقال للشاب الاسمر ساخرا :

— ما دمت اتيت لتنقذ رقم ١ فانها ستقبلك من دون شك لو انك تطلب يدها الآن .

— اخرس والا خلصت عليك !

وهمس صاحب الشعر الاصفر اليه بشىء ثم سأل الشاب الاسمر :

— هل تجرؤ على ذلك ؟

عاد الشابان واتخذا مكانهما بنهاية الصف ، وفى يد كل منهما ورقة من فئة العشرة يوانات ، وقد علت الابتسامة الماكرة فم كل منهما .

ومهما يكن من امر ، انتابنى القلق على جين فقد كنت انا نفسى بائعة . كان لا بد ان اتحلى بالبرودة فى مثل هذه الاحوال . ولكنها القت عليهما نظرة عابرة كأنما لم تحس بشىء غير

عادى من حولها . وعندما جاء دور الشاب الاسمر قالت له فى ادب :

ـ هل من مساعدة اقدمها لك ؟

طفح وجهه بالخجل . ولكزه صاحب الشعر الاصفر فى ظهره ، ثم قال :

ـ اى الحلوى هى الافضل ؟ ارجو ان تصفى لى خصوصية كل نوع حتى اختار .

هزت رأسها . واخذت تتحدث اليه كمثل ما تتحدث الى زبائنها :

ـ هذا يتوقف على مذاقك . على العموم .. ان الحلوى الشمالية احلى من الجنوبية . اما تلك التى من الشمال الشرقى فهى الاحلى . اذا كنت مغرما بالحلوى فعليك بحلوى بكين او الشمال الشرقى . الناس فى الجنوب ، حيث يزرع قصب السكر ، يهتمون اكثر ما يهتمون بالمكونات والطعم اكثر من الحلاوة . وتشتهر بكين بالحلوى الهشة وحلوى الزبدة على شكل كروى وحلوى الفواكه . وتشتهر تيانجين بالحلوى ذات طعم القهوة والشيكولاته بطعم النبيذ من مصنع حلويات تشيشيلين . اما شانغهاى فتشتهر بالطوفى . وكذلك تشونغتشينغ بها حلوى طيبة ، بينما حلوى الفواكه من قوانغدونغ هى الاروع فى البلاد ... عندنا اكثر من عشرين نوعا من الطوفى وحده . ماذا ـ اذن ـ تريد ؟

كانت كأنها تلقى قصيدة بلهجة بكينية متقنة بصوتها الموسيقى . وتأثر الزبائن بما قدمته من عرض مفصل . كان الشاب واقفا

متسمرا الى ان رمقه صاحبه بنظرات ملؤها التحدى وقال :

ــ اوقية من كل صنف لو سمحت .

ــ فى كيس واحد ؟

ــ لا . . فى اكياس متفرقة .

وسرى الهمس بين جمهور الزبائن . وقال رجل عجوز :

ــ هل هذا هو الاسلوب فى الشراء ؟ انت تخلق متاعب فقط .

وهتف آخرون :

ــ لا تبيعيه .

وتلبس الخجل بالشاب الاسمر ، ولكن صاحب الشعر الاصفر وضع يده على الميزان واجاب :

ــ هذا ليس من شأنكم . لماذا لا يمكننا ان نشترى بهذا الاسلوب ؟

وتقدم اليه رجل يناقشه ، وتجمعت جماعة الاولاد فى الامام . وشققت طريقى الى النضد لأتدخل فى الامر . ولما رأتنى جين ندت منها ابتسامة ، وخاطبت الزبائن فى هدوء :

ــ لا تقلقوا ! لن يستغرق هذا سوى دقائق قليلة .

وعندما اشتد الهرج والمرج ، سألت بقية الجماعة :

ــ ماذا تريدون ؟

فقالوا :

ــ نفس الشىء . نريد ان نتذوق كل نوع .

ــ اوقية من كل نوع ؟

وقال صاحب الشعر الاصفر :
ـ اوقيتان من كل نوع . اربع اوقيات فى كيس .
ـ ثلاث اوقيات من كل نوع . تسع اوقيات فى كيس .
ـ اربع اوقيات من كل نوع . اثنتا عشرة اوقية فى كيس .
يا الهى ! هذا معناه ان تزن عدة مرات وتربط اكياسا عديدة .
كيف يمكنها ان تحدد الاسعار وترد الباقى بسرعة ؟ وفى سرعة سألت خامس المجموعة :
ـ وانت ؟ نصف رطل من كل نوع ؟ عندنا اكثر من عشرين نوعا . ثلاثون يوانا من فضلك .
وتحسس هذا الشاب العشرة يوانات فى جيبه واسقط فى يده وقال :
ـ ليس لدى رغبة فى الحلوى . اريد ٣ر١ اوقية من فضلك .
يا لقلة الادب ! هؤلاء الاوغاد يزاحمون الشاب الاسمر فى اعجاب بينما هم يقلون الادب مع جين ويقولون لها :
ـ اسرعى من فضلك !
ـ حاضر !
اجابة وهى تضبط الميزان . رأى الزبائن هذه الحركات فغضب بعضهم وقلق آخر واصاب الفضول آخرين . وفى لحظة ، بدا انه ستحدث معجزة . وضعت بيدها اليسرى مجموعة من الاكياس الصغيرة على النضد ، بينما كانت اليمنى تتناول الحلوى وتضعها فى الميزان . كان كل شىء يسير على ما يرام . ثم تناولت بيسراها كيسا وملأته بالحلوى وربطته باحكام فى ثانية .

وحبس الزبائن انفاسهم فيما ذهلت متى تعلمت هذه المهارة . كانت رشيقة وانيقة الحركات ، فظهرت اقرب الى الراقصة منها الى البائعة .

ولكن الاكثر اثارة سيأتى فيما بعد . كانت تقول سعر كل نوع من الحلوى ووزنه وهى تربط الاكياس .. اعلنت سعر الثمن الاجمالى فيما كان الرقم يظهر على المعداد بأصابعها التى تحرك خرزات المعداد المخشخشة . كانت حساباتها دقيقة دائما . تناولت النقود وقالت لكل واحد كم تبقي له . كانت ما زالت رابطة الجأش هادئة الاعصاب حين انتهت من خدمة هؤلاء الاوغاد جميعا .

كان الزبائن فاغرى الافواه طوال الوقت ، ثم دوى منهم التصفيق كما لو انهم شاهدوا عرضا رائعا على خشبة المسرح .

وثبتت عينيها على الشاب الاسمر الى ان كساه الخجل . واصاب رفقاءه الذهول .

وقالت مبتسمة وقد رأت هؤلاء الاوغاد متسمرين فى مكانهم :

— هل تحتاجون شيئا آخر ؟ لدينا شيكولاته وحلوى معلبة وطوفى حلو وحلويات جيلى وحلوى بسمسم وحلوى بنعناع ...

ثم تناولت فى وقار خمس حبات كراميلا فى عيدان للاطفال . وضحك الزبائن ملء اشداقهم فيما ولى صاحب الشعر الاصفر وطغمته الادبار .

وفى ادب جم قالت لهم هذه الفتاة الوسيمة انهم اولاد بلهاء ، وكنت على يقين انهم لن يجرؤوا ثانية على مضايقتها .

وقبل ان ادرك ماذا كنت افعل ، كنت ابتسم لها ابتسامة ودية .

٥

ولما عدت الى مكتبى ارسلت فى طلب رن شياو مى ، زميلة جين فى السكن ، وسألتها ماذا كانت جين تدعو الاولاد الى مسكنها لتناول الحلوى . لم اعرف ما يحدونى الى جلاء هذه المسألة ، غير ان الجواب كان يروقنى . قالت رن بأن جين قد دعت شبانا اصدقاء للغناء والعزف . قدمت لهم اكثر من مئتى صنف من الحلوى كانت قد اشترتها ، وطلبت منهم ان يختبروها ودونت ملاحظاتهم . واضافت رن تقول بأنها امضت ليالى عديدة وهى تلف الحجارة وتزنها . . .

واسقط فى يدى . . كنت على وشك ان اوجه اللوم لرئيس نضد الحلوى لأنه لم يخبرنى شيئا عن مسلكها المثالى . ولكننى تذكرت انه قد رشحها لعرض مهاراتها . لقد محوت اسمها لأن . . . كنت معذبة الضمير .

وفى اجتماع لكوادر المتجر فى تلك الليلة قدمت تقريرا عن نتائج تحقيقاتى التى تلقى قبول قوه امين اللجنة الحزبية . تقرر ان تعلق نتيجة الاستفتاء فى الصباح التالى وان يعقد الاجتماع لتقديم الجوائز كما كان مقررا . وتطوعت بأن اساعد فى وضع مسودة

الخطاب الذى ستلقيه جين كيما تسنح لى الفرصة بأن اتكلم معها فى صراحة .

وفى الصباح التالى .. وضعت صور من وقع عليهم اختيار الزبائن على "لوحة الشرف" فى مدخل المتجر . وقد جذبت جين بصفتها الفائزة اهتماما شديدا ، ولكنها ظلت تؤدى عملها غير مبالية بالشهرة . وكانت ايضا ترتدى زيا انيقا كعادتها . ألم تعرف ان العاملة النموذجية ينبغى لها ان تخفف من الاهتمام بملابسها ؟ واحسست بأننى ينبغى ان اتحدث معها بأسرع ما يمكن وان اقول لها بأن تعد الكلمة التى ستلقيها . وتوجهت الى غرفتها لحظة اغلق المتجر ابوابه .

كانت فى رداء اكثر روعة وكانت تلمع حذاءها .

وسألتها :

ـ هل انت خارجة ؟

فضحكت وطلبت منى ان اجلس على سريرها . وعندما هنأتها بدت غير مكترثة .

وقلت لها بأنها ستلقى كلمة فى الاجتماع واستفسرت منها عما ستقوله .

فقالت هازة رأسها وقد بدا عليها الحياء :

ـ لا ! لا ! انا لا اجيد الخطابة !

فقلت :

ـ كان كلامك رائعا على النضد فى ذلك النهار . انت الاولى فى الاستفتاء . لا بد من ان تتكلمى . هذا قرار القيادة .

ونظرت الى فى يأس :

ـ هل يجب ان اتكلم ؟

واومأت لها برأسى .

ـ طيب !

ولما عرضت عليها المساعدة فى اعداد كلمتها قالت :

ـ أ تقصدين ان اعد شيئا مسبقا ؟

فقلت :

ـ اكتبى الكلمة او على الاقل ضعى خطوطا عامة كى لا تخرجى عن الموضوع .

ـ سأقول ما يعن على بالى .

ـ هذا لا ينفع .

وعزمت ان اكتب لها الكلمة ولكن وجب ان اعرف ما يدور فى رأسها . لا يمكننى ان اخبرها بأننى رأيتها ترقص على السطح . فسألتها فى تردد :

ـ هل من شىء كان يضايقك فى الايام الاخيرة ؟

فقالت وقد بدت عليها الحيرة :

ـ لماذا . . لا .

فقاطعتها قائلة :

ـ بالامس صباحا . . .

ـ نعم ؟

وفتحت عينيها بأوسع ما يكون .

وبينما كنت افكر كيف اضع السؤال سمع طرق على الباب .

قالت :

– تفضل .

وبقى الباب مغلقا . فقامت ونادت :

– من بالباب ؟ لماذا لا تدخل ؟

ولما فتح الباب اصابها الذهول .

كان هناك الشاب الاسمر ووجهه قرمزى اللون . وانحنى بجسمه الضخم وتمتم قائلا :

– انا اقدم اسفى يا رفيقة جين لو رقم ١٦٣ . عرفت اسمك من لوحة الشرف .

ولحت وتعابيرها بعد ان اصابتها الصدمة الى تعابير ساخرة وهى تدعوه للدخول فى ادب .

واصبح وجهه شديد الحمرة وقال مؤكدا :

– لا . . لا ! انا لا اريد ان ازعجك . جئت فقط لأعبر . . .

واخذ قلبى انا العذراء يخفق . ماذا يريد ان يعبر ؟ ابتسمت جين ونظرت اليه برباطة جأش .

بدا عليه الحرج ، وظهرت اسنانه البيض فى تكشيرة . ووضع لفة فى يدها . عندئذ فقط رأيته كان قد حلق ذقنه وقص شعره ، وبدا وسيما وهو فى معطف صوفى . لم تفتح اللفة وانما امسكتها بيدها كأنما تزنها .

سألته وفى عينيها وميض :

– هل هى قنبلة ؟

فقال :

ــ نعم . . افتحيها .

وفتحت اللفة . . كانت الحلوى التى اشتراها .

واشار الى الورق الملفوف ، ثم غادر بعد ان قال :

ــ هدية بسيطة . اسمى مكتوب عليها .

ــ انت ! تعال . . .

وجرت وراءه ولكنه كان قد نزل عن السلالم .

وفردت يديها فى حركة يائسة . وفتحت اللفة : شهادة يمنحها مصنع دلفنة الفولاذ الى العمال المبرزين . واسمه : شى يونغ لى .

وقالت وهى تملس الورق :

ــ لم يخطر ببالى ابدا انه يؤدى عمله على الوجه الحسن .

وافقتها على رأيها واضفت اقول :

ــ ولكن كان ينبغى له ان لا يلف الحلوى بشهادة الشرف .

وضحكت من تعليقى هذا . وقالت :

ــ نعم . . امينة عصبة الشبيبة العظيمة لا تتحمل رؤية هذا . ولكننى لا احب من يسعى وراء شهرة ومكانة لا اساس لهما .

اصابنى الهلع حين التقطت اذناى كلمة "احب" من غير قصد . واضافت ولم تفارقها الابتسامة كأنما قرأت افكارى :

ــ اعنى هذه الكلمة بأوسع ما تحمله من معان .

وكنت على وشك ان اقدم مزيدا من النصائح واذ هى تقول :

— حسن . . الناس معقدون . فمنهم بارزون يأتون بالنواقص والعيوب .

وتوقفت فجأة يدثرها الحياء وخرجت مسرعة .

كنت ما زلت اجهل ما ستقول فى الاجتماع .

٦

لم تكتب جين كلمتها بعد مع ان الاجتماع سيعقد فى صباح اليوم التالى . وحسب العادة المتبعة ، قررت ان اجمع المتكلمين مع بعض لمراجعة كلماتهم معهم فى المساء . كان لا بد من ان ارى ان كلماتهم سليمة من الناحية السياسية .

والتقتنى جين بالخارج وقالت معتذرة بأن لديها موعدا ولن تستطيع المجىء .

وقلت لها :

— ماذا ؟ هل تطلبين التغيب عن اجتماع هام ؟

فقالت :

— انا اشارك فى تجربة الاعادة النهائية لمسرحية فى المركز الثقافى ، لذا لن اتمكن من المجىء الى تجربة الاعادة التى تقومين بها .

تجربة اعادة ؟ كيف تجرأت على ان تقول ذلك . فقلت لها بحزم :

— لا . ينبغى ان تحضرى .

وعيل صبرها وقالت :

ـ يمكنني ان اخبرك الآن ما اود ان اقوله . لا بد من ان اذهب اذ انني اقوم بالدور الرئيسي فى المسرحية .

وسألتها فى اصرار :

ـ اى دور ؟

ـ دور فتاة فقدت الرؤيا فى الهدف من حياتها ، وتقضى الوقت ، تتأنق فى ملبسها وترقص . . .

وروعنى الموقف اذ تذكرت رقصها الخليع على السطح . فقلت :

ـ سريعا ما ستغطى التجاعيد وجهى ، وسيشتعل رأسى شيبا . . .

وشدت يدى وومضت عيناها وقالت :

ـ هل سمعتنا فى التجربة ؟

ـ انا . . سمعت عن ذلك .

قلت ذلك مراوغة . وما كان منها الا ان رددت كلمات البطلة فى المسرحية فى ذلك الصباح ! وضربت يدها وقلت :

ـ طيب . . اذهبى الى اداء التجربة .

وحضنتنى ولفت بى فى حركة سريعة ، جاعلة رأسى يدور . واوقفتها . وقلت :

ـ توقفى عن هذه النشاطات فى المستقبل .

واهتز بدنها وقالت :

ـ لماذا ؟

لم افهم ما حصل لها من اضطراب .
— انت الآن عاملة نموذجية ويجب ان تحزمى امرك مع نفسك فى كل شىء . ليس مطلوبا ان تعملى جيدا فحسب ، بل ايضا يجب ان تكونى منضبطة السلوك . .
ونظرت الى ملبسها نظرة ذات مغزى .
لم تعبأ بذلك وانما قالت :
— ألا تستطيع العاملة النموذجية ان يكون لها هواية ؟
— يمكنك ولا ريب . ولكن هيبتك اكثر اهمية . يجب ان تجدى فى العمل للحفاظ عليها والا اخفقت جهودك .
وقالت :
— اننى امقت من يتصدرون المقدمة سعيا وراء الابهة . لم يحدث ابدا ان فكرت فى ان اصبح عاملة نموذجية . ولا اعتقد ان ذلك ينبغى ان يكون لقبا ابديا . . مما لا شك فيه اننى سأعمل بجد للحفاظ على ذلك ، ولكن اذا ما افترض ان اختار بين ان اكون عاملة نموذجية او ممثلة ، فسأختار ان اكون ممثلة .
لم اصدق ما سمعته اذناى وقلت :
— ماذا ؟
ومع ذلك لم تثر ثائرتى وحاولت ان استرضيها :
— ليس هذا ما كنت اقصده .
ولمعت اساريرها وجلست بجانبى وقالت فى لهجة تنم عن الاحترام :
— ماذا يتوقع قادتنا منى ؟

لقد سرتني ليونتها . ورفعت الدبوس من شعرها وقلت لها كأخت كبيرة لها :

ــ كثير من القادة والضيوف سيحضرون الاجتماع . والافضل ان لا تلبسى هذا . . .

ــ لماذا ؟ . . .

فرددت عليها مبتسمة :

ــ لماذا تلبسينه ؟ .

ــ لأنه يجعلنى ابدو فاتنة . كما ينبهنى ألا احنى رأسى وانا اخدم الزبائن . يحدث ان انسى وانا منشغلة . عندما احنى رأسى تلمس السلسلة اذنى فتنبهنى .

اذن . . هذا هو ما فى الامر ! لديها افكار عديدة تحكيها للجمهور .

ــ حسن . . عليك ان تقصى على المستمعين كيف تنبهك هذه السلسلة الذهبية للنظر الى الزبائن وانت تخدمينهم . ولكن لا تذكرى انها جميلة .

وقالت فى ثبات :

ــ ولكن هذا هو السبب فى اننى اضعها .

تحسست جبينها وقلت :

ــ فتاة شقية ! ابقى على هذا سرا . كيف تقولين ذلك فى اجتماع ؟

فقالت ضاحكة :

ــ ولم لا ؟ سأقول لكل انسان اننى اريد ان ابدو فاتنة .

ان من يحبون الحياة هم الذين يهتمون بمناظرهم .
وظننت انه ربما كانت كل الممثلات الهاويات على هذه الشاكلة . فقلت لها :
ــ قولى لى عن اى شىء ستتحدثين .
ولما رأيتها تستغرب السؤال اضفت اقول :
ــ فقط قولى كيف احببت عملك .
ــ هذه قصة طويلة .
وتنهدت استطردت تقول :
ــ اردت ان اكون ممثلة ولكن لم اوفق . لقد كبرت الآن على ان اكون ممثلة .
فقلت لها :
ــ ولكنك تعملين جيدا .
ــ ادركت ان كل انسان لا يمكنه ان يفعل ما يريد حتى فى البلدان المتطورة ، ناهيك عن بلد مثل بلادنا .
ــ كيف . . اذن ، احببت عملك ؟
واذهلنى جوابها مرة اخرى .
ــ انت تترعرعين على حب كل شىء تألفينه . ليس مهما نوع العمل الذى تؤدينه ، فعندما تتعلقين به تحبينه .
فقلت هازة رأسى :
ــ ليس كل الشباب على هذا الشكل . قولى لماذا انت رؤوفة بالزبائن .
وفكرت لحظة ثم قالت :

– افضل ان اقول لك اولا كيف هم ساعدونى .

– الزبائن ساعدوك ؟

فقالت :

– لننظر الى الزبائن المنتظمين . معلمة متوسطة العمر وجهها شاحب ، تأتى تشترى حلوى فى يوم صرف الراتب من كل شهر . وفى مرة من المرات لم يظهر لها حس ولا خبر . وبدلا منها . . جاءت بنتها الصغيرة مع جدتها . وقالت العجوز والدموع تهطل من عينيها : انها دائما مشغولة ، تعد الدروس الى وقت متأخر من الليل فى غرفتها التى مساحتها ثمانية امتار مربعة . مرتبها منخفض . انها تشترى الحلوى لى وللاطفال . هى الآن فى المستشفى تعالج من نقص السكر ، فجئت لأشترى لها الحلوى . . انها تحتاج اليها فى مرضها . . . دائما ما تأتى عامل مسن مع حفيده الذى يحب الشيكولاته . وكان قد قال له جده : انت ولدت محظوظا . لم اتذوق الحلوى الى ان بلغت العشرينات من عمرى ، ناهيك عن الشيكولاته ! كان هناك عدد من الشباب جاءوا يشترون الحلوى للاحتفال بالتحاقهم بالجامعة . الذين فشلوا قالوا : سيأتى دورنا فى العام القابل . فى هذه السنة قبل اثنان . اما الاخير فقال : تعالوا وتذوقوا منى الحلوى فى السنة القادمة .

كانت عيناها مخضبتين بالدموع . وقالت :

– قد تعلمت منهم أشياء كثيرة عن الحياة . اننى لجد سعيدة بأن اخدم الناس العاديين مثلهم .

كانت تتحدث كأنما تخاطب نفسها . ومالت بنظرها الى

خارج النافذة ، وظهرت الدموع فى عينيها تتألق فى وهج الشمس الغاربة . عرفت ما ستتفوه به فى الاجتماع . . حبها للناس والحياة والجمال . لقد اسأت الظن بها . وقد خجلت عندما وعيت ما انا فيه من جمود التفكير . . .

ـ قد كان كلامك رائعا . اشكرك .

واحسست كأن شيئا بغيضا قد وقف فى حلقى .

ظهر عليها الحرج واخذت تخربش على قصاصة ورق كانت على المكتب . وألححت عليها ان تذهب الى التجربة الاخيرة .

ورمتنى بابتسامة تنم عن الامتنان . وقلت لها :

ـ هل يمكن ان آتى لأشاهد المسرحية ؟

فدهشت وغمرتها الفرحة واعطتنى تذكرتين .

ـ العرض الاول غدا . ارجو ان تعطينى رأيك بعد المشاهدة .

ـ اشكرك .

وودعتها الى الباب . كان ثمة شيء آخر وددت ان اقوله لها ، ولكنى سألتها :

ـ لماذا انت سعيدة دائما ؟

لزمت الصمت للحظات ثم ضحكت وقالت :

ـ لست ادرى . انا اجد الحياة حلوة .

غادرت . . وسمعت ضحكتها مرة اخرى حين التقت شخصا فى الممر . وتناولت قصاصة الورق ورأيت عليها غزالا قرناه متوجان بوردة . ورددت فى نفسى : الحياة حلوة .

الغزال الذهبى .. قلبه مترع بالورود ، سيقتحم العالم بخطوات راسخة ...

كلمة عن المؤلفة



هانغ ينغ من مواليد سنة ١٩٤٤ بمدينة تيانجين . تخرجت في المدرسة الاعدادية في سنة ١٩٥٩ وعملت مصممة مسارح في مسرح تيانجين للفنون الشعبية . وفي سنة ١٩٧٠ تحولت الى كتابة السيناريو . وقبلت في اتحاد المسرحيين الصينيين سنة ١٩٨٠ . وهي متفرغة اليوم للكتابة بعد ان اصبحت عضوا في مجلس الادارة لاتحاد كتاب تيانجين .

فازت مسرحية « حفلة الزفاف » (سنة ١٩٧٨) للاديبة هانغ ينغ بالجائزة الثانية في مسابقة السيناريو التي اقامتها وزارة الثقافة احتفالا بالذكرى الثلاثين لمولد الجمهورية الشعبية . ومنذ سنة ١٩٨٠ ، نشرت عددا من القصص القصيرة منها : « البداية المحظوظة » و« الحب يقهر الظلام » .

العجوز سون يبيع الحمار

تشاو بن فو

لا شيء غريب فى دنيانا الواسعة لا يحدث فى مكان ما فى وقت ما . وانه لحادث غير متوقع ذلك الذى جعل العجوز سون يعقد العزم اخيرا ويقول : سأبيع ذلك الحمار !

حدث ذلك عندما توجه العجوز سون الى مركز المحافظة لتوصيل بضائع الى محطة المشتروات . وبين ما اوصل البضاعة وحمل اشياء اخرى لأناس بقريته ، كان الوقت متأخرا والمسافة امامه ثلاثون كيلومترا ، فأسرع بحماره للخروج من المركز ، وانطلق على ذات الدرب الذى جاء منه .

كان العجوز سون قد تقدمت به السنون . وفى صباح ذلك اليوم . . نهض من الفراش فى الساعة الرابعة ، وكان على الطريق فى الساعة الخامسة . . وكان عليه ان يصعد عددا من السلالم بالمحل التجارى . ولا غرابة ان النعاس هاجمه حتى قبل ان يغادر المركز بعربته . سار بجوار العربة ، وكان بين النوم واليقظة ، وكان يعلم انه اذا ما خرج من المركز فالناس قليلون على الدرب .

وقال لنفسه : ما زالت المسافة طويلة امامى . . العربة فارغة والحمار يعرف الطريق . . لم لا آخذ اغفاءة سريعة ؟

ولم يكد ينتهى من هذه الكلمات حتى تمدد فوق العربة . ممسكا السوط باحدى يديه وراح فى النوم على صوت حوافر الحمار الاسود الضخم فوق الطريق .

وحدث ان كان على مسافة غير بعيدة امامه حمار اشهب صغير يجر عربة مسطحة ، تحمل جثمانا وعلى جانبيها اقرباء المتوفى يبكون وينوحون .

وما ان لمح الحمار الاسود الضخم احدا من بنى جنسه . . من الجنس الآخر ، حتى صعق واعترته عاطفة مشبوبة بالذهول والجنون ، فأسرع الخطى ضاربا كل اعتبار آخر بعرض الحائط كيما يلحق بتلك الاليفة التى كانت فى طريقها الى المحرقة . وكان العجوز سون يغط فى نوم عميق ويسبح فى احلام هادئة .

كان عدد من الجثث مصطفة بالفناء . . على سرائر ونقالات وعربات وما اشبه ، تنتظر فى هدوء . وكان الاقرباء الحزانى هنا وهناك ، مقرفصين او واقفين ، ورفعوا اعينهم مشدوهين الى الوافدين الجدد .

ووقف الحمار الاسود الضخم الذى كان ملاصقا وراء ذيل صديقته الشهباء ، متخذا مكانه فى احسن ما يكون الادب .

وقد ظن الناس ان المتوفيين من عائلة واحدة نظرا لوصول العربتين معا . وسرعان ما تحلقت مجموعة من المتعاطفين والفضوليين . . حوت اسئلتهم الى استفسارات مباشرة .

ــ هل هما من نفس العائلة ؟

وهز الاقرباء فى عربة الحمار الاشهب رؤوسهم وقالوا :

ــ لا ، لحقوا بنا فى نصف الطريق .

كان هذا امرا غريبا لا سيما وان العربة الاخرى لم يرافقها سائق ولا اقرباء . واستجمع عدد من الناس شجاعتهم وتحلقوا حول العجوز سون ، مادين رقابهم ليلقوا نظرة عن قرب الى العربة : كان وجهه متوردا وملامحه صافية .. والحق انه لم يبد شبيها بانسان ميت . اسمعوا ! صوت التنفس ! .. وانتابت جمهور الناس لحظة مريعة مفزعة فوقفوا مذهولين كأنما رأوا شبحا . هذا المشهد هز ابدانهم واوقف شعور رؤوسهم . وفجأة .. تراجعوا مشوشى البال . ماذا حدث ؟

مد الحمار رأسه الى الوراء فنهق بصوت شديد .. ربما افزعه جمهور الناس .. او ربما ساوره الشك انهم سيحتالون على صاحبه . فما كان من الحمير الاخرى الا ان انطلقت تنهق فى جوقة متساوقة . وفجأة .. اصبح الجو المهيب بالمحرقة سوق حمير نابض بالحياة .

ونهض العجوز سون مذعورا وجلس ليعرف ما يجرى . فرك عينيه . اين هو ؟ لماذا يحيط به هؤلاء الناس ، يحمل كل منهم مسحة متباينة من الهلع او الذهول ، وبدا على بعضهم انهم على وشك الهرب فزعا . فاعتدل وصار يتلفت حوله مرة اخرى . ماذا يعمل فى المحرقة ؟ اصابت بدنه رعشة . يا الهى ! اى مكان اصحو فيه ! هؤلاء الناس يظنون اننى شبح عائد الى الحياة .

واستبد الغضب بالعجوز سون . فقفز من العربة كأنما اراد ان يؤدب حماره الا انه عدل عن فكرته . لا . . ليس هذا هو المكان المناسب . يستحسن ان ينتظر الى ان يغادر هذه المحرقة المشؤومة . واستدار برأسه الى الحمار ودفعه بالسوط الى خارج البوابة .

لو حدث ما حدث لأى امرئ آخر لكان اضحوكة ، ولكنه كان ذا مغزى عظيم الاهمية بالنسبة الى سون . فقد ظن ان نذير الشؤم هذا ليس الا تأكيدا للهواجس التى انتابته قبل ايام قليلة.

ولم يكن معظم اهل القرية ليؤمنوا بأن فى عقل العجوز سون شيئا . فكل شخص يعرف انه اضحى ميسور الحال من نقل البضائع الى محطة المشتروات . واكثر من ذلك . . بات بمقدور زوجته ان تبقى فى البيت فى حين يعمل ابنه وابنته ، بمقتضى نظام المسؤولية الجديد . ولكن كل هذه التغيرات التى طرأت فى غضون السنتين الفائتتين لم تجعله مرتاح البال . لا ريب فى ان تغيرا مفاجئا قد حدث ، ولم يكن موقنا ما اذا كانت الثروة التى هبطت على إسرته مؤخرا نذير خير ام نذير سوء ! والحق . . قد جمع مالا غير قليل للاسرة ولكنه مال جاء بشق الانفس . وفى الواقع . . ان عمله كـ "قوة الارجل" لمحطة المشتروات كان محفوفا بمشقات اكثر مما يخطر على بال معظم الناس .

لم يكن منزل العجوز سون بعيدا عن النهر الاصفر ، فى منطقة هدها الفقر وغير مطروقة ، تلتقى عندها ثلاث مقاطعات ، ولم تولها السلطات إلا طفيف اهتمام . كانت الارض فقيرة . .

كان فيها نوع من العشب ينمو على طول المجرى القديم للنهر الاصفر ، ممتدا بقدر ما ترى العين ، ويبدو ان اهالى المنطقة كمثل هذا النبات قد تعلموا ان يستفيدوا من هذه الاراضى الجرداء . وعلاوة على الزراعة ، تربى العائلات الحيوان ، وتسرح الاغنام والمواشى بين الاعشاب المتماوجة بين السماء الزرقاء صيفا وخريفا كما يظهر فى المروج الرحيبة شمال السور العظيم . وقد امست تربية الثروة الحيوانية مصدرا هاما لمعيشة هؤلاء الفلاحين .

انشأ مسؤولو المحافظة محطة مشتروات . واذا ما تراكمت المنتوجات الثانوية مثل جلود الغنم والاصواف ، جاءت شاحنة لتنقل البضاعة الى مركز المحافظة . ولكن لا يمكن ترك الاغنام الحية تبقى فى المحطة فترة طويلة . ولما كانت المحافظة لا تستطيع ان تدبر شاحنة كل بضعة ايام ، اصبحت " قوة الارجل " ضرورة مطلقة لنقل هذه الحيوانات الى المدينة حالما تكون جاهزة للبيع . كان هذا العمل يعد شكلا اضافيا من النقل الحكومى .

كانت اجرة " قوة الارجل " عالية نوعا ما .. ومع ذلك لم يكن ميسورا ايجاد الراغب فى اداء هذا العمل . فالرحلة من القرية الى المدينة خمسون كيلومترا ، ومعنى ذلك الاستيقاظ فى الخامسة صباحا ، والعودة فى وقت متأخر من الليل ، وهكذا كل يوم .. لا يتحمل ذلك الا قلة من الناس . وعلاوة على ذلك ، كانت بعض العائلات يصعب عليها ان تتهرب من اعمالها المنزلية الكثيرة . وكان الامر الاشد ارهاقا هو ان الناس كانوا ملحاحين دائما بطلب اشياء من المدينة اذ كان يصعب الحصول على شيء فى

هذا المكان النائى : عائلة تريد اقمشة واخرى تحتاج سكرا . . فيلق الانتاج اشترى مضخة ماء او سمادا يريد نقله . . وما الى ذلك . كانت الطلبات لا تتوقف من هذه القرية التى تستوطنها اكثر من مئة اسرة . ولم يرغب احد فى تحمل هذه المسؤولية الشاقة حتى لو كان هذا العمل يدر فلوسا اكثر . واكثر من ذلك . . تعرض العجوز سون ، " قوة الارجل" لمحطة المشتروات ، للنقد علنا منذ عدة سنوات فى اثناء حركة " ليدفع النقد جهودا كبرى" ، ووصم انه " عنصر برجوازى على شكل عفوى" ، مما جعل هذا العمل اقل رغبة . اما من كانت لديهم القوة لاداء هذا العمل فأحسوا ان من الافضل تشغيل قوتهم فى مكان آخر .

انصبت سمام الانتقادات العامة على العجوز سون لأكثر من نصف سنة . وها قد عاد اليه الروماتيزم نتيجة حركته الدائبة ذهابا وايابا . وشلت رجله اليسرى على نحو دائم بسبب هذا المرض الطويل ، واذا ما اراد السير فانه يرتجف . كان انسانا يحب الكلام والمزاح وها هو اليوم يلتزم الصمت . . فاقد الحيوية تقريبا . اصبحت حالته تستدر الدمع من العيون .

اشباه المعوقين مثل العجوز سون ليس بمقدورهم الا اداء عمل طفيف فى الحقول . . ومن جهة اخرى ، احست محطة المشتروات بغيابه على نحو شديد . فاذا لم تنقل الاغنام الى مركز المحافظة فى الوقت المحدد فغالبا ما يصيبها الهزال والمرض او حتى الموت وبذلك تتعرض محطة المشتروات للخسارة بعد ان كانت تحقق الارباح . ولم يعد اهالى القرية يطلبون من العجوز

سون ان يحضر لهم اشياء اذا ما رغبوا فيها . . بل كانوا هم انفسهم يقومون برحلات خاصة مضيعين ساعات عمل كثيرة . ومع الايام . . اصبح كل انسان يتمنى ان يتقدم شخص لاداء هذا العمل ولكن لم يتقدم احد . وقبل ان يمضى وقت طويل . . بدأت افكار الناس تتجه نحو العجوز سون مرة اخرى ولكن لم يتجرأ احد على قول كلمة خوفا من فتح جراحات قديمة .

كان العجوز . . بطبيعته ، اسعد انسان حين يمد العون للآخرين . كان اذا لمح تعابير المناشدة على وجوه زملائه من اهل القرية ادرك مدى ما اولوه من ثقة . وبدأ يزول احساسه بالوهن والفتور ، وعادت اليه حماسته . ومما ابهج كل انسان انه حالما تحولت السياسات الحكومية الى مرونة اكثر منذ سنتين فى فصل الربيع ، اسرع فى اقتراض الاموال واشترى حمارا اسود ضخما ليبدأ مدته الثانية . . " قوة الارجل " للقرية .

فعلا . . عاد العجوز سون الى مهنته القديمة ولكن من غير اهتمام فائق . فلقد عرف المعاناة القاسية فى السنوات القليلة المنصرمة . . كان قد نجا من الموت بالكاد . . من يعرف ان سياسات الحكومة لن تسوء فى اية لحظة . واخذ يمعن التفكير فى الامر غير انه توصل فى الاخير الى انه ليس وحده سيستفيد من هذا العمل وانما اهل القرية والوطن ايضا . ينبغى عدم الخجل من هذا ! وعلى هذا . . انكب هذا العجوز الذى وصل الى الستين من عمره ورجله شبه معوقة ، يعمل بأشد مما يعمل معظم الناس . . سواء فى لهيب الصيف او فى عز برد الشتاء . وقد تزوج ابنه الذى بلغ

الثلاثين من عمره . . اما ابنته فوجدت الزوج الذى تهواه . . بل انه خطط لأن يقيم بيتا جديدا على انقاض بيته القديم .

وها هو قد بدأ يحس بالانشراح بينه وبين نفسه بقدرته ان يعيل اسرته . . ولكنه بدأ يسمع الاشاعات بأن سياسات الحكومة ستعود الى التشدد مرة اخرى .. وكان بعض الناس يتجمعون فى كل ليلة خارج بيت العجوز سون يناقشون موضوعا واحدا : متى تستقر الامور ويتركون لمزاولة الانتاج . . هذا سؤال لا يقدر احد ان يجيب عليه . كل هذا كان بطبيعة الحال مبنيا على اقاويل . . وهل تعنى فى الواقع كلمة " تشدد " او " سيطرة " منع النقل ؟ لم يكن لدى العجوز سون ادنى فكرة او قدرة على التفكير بجلاء حيال المسألة . وكانت سياسات الحكومة قد شهدت تغيرات مستمرة فى السنوات العديدة الماضية . . ربما اصبح المسموح به هذا اليوم محظورا فى اليوم التالى . . وصارت كلمة " تغيير" تثير الذعر فى قلبه .

وما ان مر على الاشاعة عدة ايام حتى اشعر قائد الفيلق كل فرد انه سيتعين امين جديد للجنة الحزبية بالكومونة . وقد حدث ان هذا الامين الجديد ليس سوى هان – نائب رئيس القسم باللجنة الدائمة للمحافظة الذى كان مسؤولا عن وصمه بأنه " عنصر برجوازى على شكل عفوى" منذ سنوات . واكثر من ذلك ان العجوز سون لا سبيل لديه لمعرفة ما اذا كان هذا المسؤول المدعو" هان " ما زال يريد تطبيق " يدفع النقد الجماهيرى جهودا كبرى" . خطر على باله اجتماع اتهمه فيه شخص بأنه ينسى المبادئ

العامة للشيوعية . كان العجوز سون قد اختلف معه ، وكان هان ، نائب رئيس القسم ، قد ارعبه رعبا مميتا حين اعلن فى مكبر الصوت على مسمع من الجميع : انك تسلك الطريق الرأسمالية ، واذا واصلت على ذلك فان هذه الطريق ستقودك الى مكان واحد — الموت !

ومنذ ذلك اليوم فصاعدا . . كان كأنما اصابته نوبة واخذ يتمتم بكلمات " الطريق الى الموت" مدة نصف سنة وتذكر هذه المسألة اليوم يجعل حتى شعر رأسه يقف . وكلما فكر فيها كلما ازداد عصبية الى ان وقع فى الاخير تحت حالة من رعب تام .

وفى خضم هذا الرعب والمخاوف والشكوك الدائبة ظهر له نذير الشؤم هذا ! الى اين اخذه الحمار الاسود الكبير . . الى المحرقة . . كاد ان " يحرق حيا " . . ألم يكن ليوصله الى " طريق الموت" ؟ ! قد يحيى الانسان المعتقدات الخرافية المنبوذة اذا ما احس ان حياته خارجة عن سيطرته : هنا . . كان العجوز سون سريع الاهتياج لدرجة ان ادنى اشارة من المتاعب تتركه يرتجف فزعا وهلعا .

واتقدت نيران الغضب فى جوانح العجوز سون حين خرج بالعربة من المحرقة الى الطريق الصحيح . واوقف العربة على جانب الطريق ووقف امام الحمار واخذ يهوى عليه بسوطه . وانهمر كل الغضب الحبيس فى نفس العجوز سون على ظهر الحمار البائس الذى اخذ يثب على قائمتيه الخلفيتين بشراسة ،

ثم سرعان ما التف الحبل . وتوقف العجوز سون بعد ان تبلل عرقا ولهث ، ثم دار حول ردفى الحمار ولوح بالسوط وصاح عليه : ارفع قدمك ! ولكن الحمار لم يفهم ان صاحبه يريد ان يرتب الحبل فخشى من علقة اخرى . وما كان منه الا ان ناوله ركلة سريعة فى جبهته . فصاح متألما وضاغطا بيده على الجرح ليوقف الدم الذى سال من بين اصابعه على ذراعه . يظهر ان متاعب العجوز لن تتوقف ! ولما هوى بالسوط على رأس الحمار مرة اخرى ركض الحمار بكل ما اوتى من عزم جارا وراءه العربة التى وقعت فى خندق بعد اكثر من مئة خطوة بقليل ، ولم يكن من الممكن اخراجها الا بعد جهود ومساعدة من عديد من الناس . وعند ذاك . . كان الحمار قد فك مفصل وركه الايمن .

عاد العجوز سون الى بيته ، ومن فوره توجه الى الفراش حيث بقى يتقلب ثلاثة ايام . فكر فى كل كبيرة وصغيرة مما حصل من البداية الى النهاية . لقد اتعبه مجرد التفكير فى ان القدر يلعب معه لعبته . وفى الاخير توصل الى استنتاج بأن القدر هو الذى يحدد الحياة والموت ، وان الله يقسم الارزاق ، وليس بمقدوره ان يفعل شيئا حيال ذلك وبدأ يظن ان حماره الاسود هو نوع من انذار غير منتظر بأن سوء العاقبة بانتظاره . ألا يتجنب الكارثة فيما لو تخلى عن عمله هذا ؟!

وعزم العجوز سون على ان يبيع الحمار ، ولكنه ان فعل والحمار فى حالته هذه فلربما كان الثمن بخسا وهو لا يرغب فى ذلك . وما ان شفى الجرح فى جبهته على نحو مرض حتى قاد

الحمار المنهك الى مركز الكومونة البيطرى .

وكان البيطرى ليو بالمركز متحمسا بأقصى ما يستطيع لمساعدته، ولكن مهارته ويا للاسف ، لا تضارع حماسته . قبل عشر سنوات . . فقد البيطرى الماهر وانغ لاو شانغ وظيفته لا لشيء سوى انه عمل بيطريا للخيول لدى امير الحرب تشانغ تسوه لين . ولو كان هنا اليوم لاستطاع ، بلا ريب ، ان يفعل شيئا لهذا الحمار البائس !

وتفحص البيطرى ليو الحمار ثم طلب الى العجوز سون ان يربطه الى الحبل . فشده من رجله المفكوكة ، وحاول مرات ان يرفعه بكل ما وسعه من جهد ولكنه لم يستطع ان يعدل من وضعه . واخيرا مسح العرق عن جبينه ولسان حاله يقول : انه ليس بذى فائدة ! الافضل ان تذبحه .

يذبحه ؟ لن يسمح العجوز سون بذلك . وفجأة . . تذكر كل ما حبب اليه هذا الحمار . أو ليس من الطبيعى ان يشعر بعاطفة ما حيال هذا الحيوان البائس بعد هذه العشرة معا ؟ كلا . . لن يذبحه ! وقال لنفسه : لأجرب حظى فى سوق بلدة ليوتشن . ربما اراد شخص ان يشترى هذا الحمار ويهتم به اهتماما مناسبا ، وعندها يمكن للعجوز سون ان يقول عن جدارة انه انقذ روحا . اما بخصوص السعر البخس فان العجوز سون قد عزم ألا يبالى به .

وفى الساعة الرابعة ، قدم العجوز سون الطعام للحمار ، واعد شيئا لنفسه ثم خرج بالحمار الى الشارع . وما ان قطع خمسة

كيلومترات حتى وجد ان البلدة قد غصت بالناس فى داخلها وخارجها .

ولم يتمكن العجوز من دخول البلدة بل لم يفكر فى ذلك . . فقاد الحمار ، مستاء ، ناحية الشمال باتجاه سوق المواشى مباشرة . كان السوق يقع فى بستان تظلله اشجار الصفصاف . وكانت المواشى هنا من كل نوع معروضة للبيع . . ابقار وخيول وحمير و بغال . كان السوق هادئا نوعا ما باستثناء اصوات او نهيق الحيوانات من وقت لآخر . .وكان المشترون يتحلقون حول الحيوانات ويتفحصونها وكل منهم ينظر الى الآخر فى صمت . . على عكس الجو المصم للآذان فى سوق الشارع . والناس سواء من كان بائعا ام شاريا فى هذا النوع من الاسواق هم من الفلاحين المجربين . . صامتون ويحسبون وجرت العادة ان تجرى الصفقات باشارات من العيون والايدى وتحسب الاسعار بالاصابع .

واختار العجوز سون شجرة صفصاف معوجة وربط الحمار بها . ثم اخرج كيس التبغ وقرفص على الارض ينتظر .

ينظر الفلاحون هنا الى الثروة الحيوانية نظرتهم الى الارض . . اى ينظرون اليها فى حب واهتمام خاص . ومنذ ان تم السماح بتربية وبيع الثروة الحيوانية الخاصة ، اصبحت سوق المواشى فى ليوتشن تجذب اهتماما كبيرا . وتكفى المرء نظرة واحدة ليدرك ان قلة من الناس يشترون الحيوانات لأغراض النقل . . معظم الناس يشترونها لاستخدامات منزلية . وهؤلاء الفلاحون ينفقون اموالهم أول ما ينفقون على شراء حصان او حمار وليس على دراجة

لأن الدراجات محدودة الاستخدام ، وتقل قيمتها مع مرور ايام استخدامها . فالحمار على سبيل المثال له فوائد عديدة .. يمكن للانسان ان يستخدمه فى الحمل الى اى مكان .. وهو ليس بأبطأ من الدراجة على الارض الرملية لوادى النهر الاصفر . ولكن استخدامه الاساسى يكون فى العمل الزراعى . ان القرى فى هذه الناحية متناثرة ، واحيانا يبعد البيت عن الحقل بمسافة خمسة كيلومترات ، والحمار ملائم لنقل السماد والغلال كما هو الحال لمركب بمنطقة تكثر بها الانهار والبحيرات . واكثر من ذلك .. الحيوانات تعطى السماد كما ان المرء اذا ما ربى حمارا او عجلا صغيرا باعه بثمن مضاعف بعد سنتين . واذا ما قورن بالدراجة وجدنا الاخيرة لا تقدم شيئا . وفى واقع الامر .. انه يصعب على عالم اقتصاد من الدرجة الاولى ان يقدم تحليلا لهذا الوضع اكثر شمولية !

وتلفت العجوز سون حوله : كان المشترون اليوم يزيدون عددا على البائعين . فتفاءل كثيرا .

ولم يمض طويل وقت حتى وصل رجل لم يظهر منه سوى الجلد والعظم الى حمار العجوز سون وقال :

ـ هل هذا الحمار للبيع ؟

وتظاهر العجوز سون بأنه لم ير الرجل مع انه رآه آتيا من بعد . كان جالسا فى هدوء يسحب انفاسا من غليونه . ولما سمع سؤال الرجل صعد اليه النظر ثم احنى رأسه من غير قصد . ان التلهف الشديد على البيع سيكون وخيم العاقبة لا ريب ، اذ انه يعرف ان البائع والمشترى سينخرطان فى صراع ذكاء وقدرة كل منهما على

تقدير شدة مناوئه . ولجأ الى التكتيك العسكرى القديم القاضى بافساح مجال للخصم للايقاع به على نحو افضل فيما بعد . من يعرف : ربما كان العجوز سون سليل سون وو تسى البارع فى التكتيكات العسكرية فى قديم الزمان .

ولكن خصم العجوز سون كان محترفا .. فتح فم الحمار ثم شخر ونخر :

ـ عمره اربع سنوات !

ولكنه تبين من نغمة صوته انه يرغب فى شراء هذا الحمار . وفيما هو يمسد شعر لحيته الطويلة والأشبه بلحية الماعز الجبلى ويتفحص جسم الحمار ، لاحظ الرجل الخلفية متدلية قليلا ، فقال :

ـ هل هو كسيح ؟

ـ انها مفكوكة ! لا شىء . ستشفى وتصبح مثل السليمة .

واستطاع العجوز سون ان يضغط على هذه الجمل الثلاث المكونة من ثمانى كلمات فقط . ربما اعتقد انه ، كلما كان كلامه اقل كانت رغبة العجوز الطويل اللحية اشد ليعتقد ان المشكلة بسيطة . ولكن حينما التفت العجوز سون وجد العجوز الطويل اللحية قد راح لحال سبيله . ووقف متنهدا وصاح عليه :

ـ هل انت اعمى ؟ هذا الحمار يضاهى عشرة خيول فى العمل . انا لست امزح !

ولم يعبأ به العجوز حتى بالتفاتة .

وبدأ العجوز سون يحس بالاحباط ، وشعر بنقرة ثقيلة على

كتفه فالتفت ورأى هو ار من الجزارة المحلية .

وابتسم هو ار ابتسامة خبيثة وقال :

ــ لماذا تصيح ؟ لماذا لا تبيعنى حمارك الكسيح العجوز وانا اصنع منه حساء لذيذا .

كان العجوز سون يفضل لو لم يعبأ به ولكنه يعرف انه صعب التعامل معه ، فاستدار ناحيته وقال فى برود :

ــ كم تدفع ؟

وضحك هو ار ضحكة خافتة وقال :

ــ هيه . . هيه ! هل سأخدع جارا قديما ؟

واخرج هو ار سيجارة قذف بها الى العجوز سون الذى اعادها اليه على الفور ، واخرج كيس تبغه ، وقال :

ــ انا سأدخن من دخانى .

لقد ارتاب من ان يكون للسيجارة ثمنها .

وتظاهر هو ار انه لا يكترث بالرسميات ، فأشعل سيجارته ورفع رأسه ، ووضع احدى يديه على طية صدر سترته فى تباه وغرور وقال :

ــ ما رأيك فى خمسين يوانا ؟

وومضت عينا العجوز سون فى سخط واثارة : حمار جميل كهذا . . بخمسين يوانا فقط ! ورمق هو ار بنظرة تحمل وعيدا وتهديدا ، ثم اعطاه ظهره من غير ان يتفوه بكلمة واحدة .

ــ واحدا وخمسين يوانا .

بهذا الخبث والمكر رفع هو ار السعر يوانا واحدا . وقال

العجوز سون هازا كتفيه فى استهجان وقال :

ـ يمكنك ان ترفع السعر عشرة يوانات لو اردت . ولكنك لن تشترى هذا الحمار منى .

ثم قال لنفسه : انت غبى حقير . ينبغى ان تفهم من تحاول ان تغش . انت تعرف انك مختلف مع العجوز سون !

ولما رأى هو ار ان الوضع غير قابل للمناقشة تنهد وانصرف .

وجاء الناس واحدا وراء الآخر يتفحصون الحمار الاسود الضخم ولكنهم كانوا ينصرفون واحدا وراء الآخر حالما يلمحون انه كسيح . فشراء حيوان بالنسبة لهؤلاء الفلاحين شبيه برزقهم بمولود : من يحتاج الى حيوان يلتهم المزيد من غلال العائلة ولا يرد مقابلها بالعمل ؟

وحل وقت الظهيرة تقريبا ، وكان اغلب المتسوقين قد دخلوا الى مرحلة عقد الصفقات . فالمشترون قد اختاروا الحيوانات التى ارادوها ولم يعودوا ينتظرون اية امكانيات جديدة . وكان السماسرة منشغلين فى مساعدة الجانبين بالتوصل الى عقد الصفقة . . عادة بعد عديد من الاسعار يشار اليها بالاصابع ، جيئة وذهابا ، وفى كل مرة تزاد عمولة السماسرة باطراد . وكان المشترون قد رضوا بما اشتروا وراحوا يسحبون حيواناتهم خارجين من السوق الى دورهم .

وتحول الهدوء الطارئ الذى نزل على العجوز سون فى وقت سابق من صباح ذلك اليوم الى قلق وهو يراقب المشترين القادرين . وظل ينتظر ولكن لم يقترب منه احد . وانطلق العجوز سون ليرقب المشهد بنفسه تاركا اشياءه تحت رعاية احد معارفه بالقرب منه .

وعرف هناك ان قرابة سبعمئة رأس عرضت للبيع فى ذلك اليوم وقد بيع منها اربعمئة على الاقل . وكانت الحمير والعجول هى الاكثر رواجا ، وبرغم ذلك كان هناك من يشترى بغالا وخيولا مما ادهش العجوز سون . من الواضح . . ان الفلاحين المحليين كانوا على ثقة تامة بأن السياسات الحكومية لن تسوء وان الشائعات عن سياسة التشدد لم تثن عزمهم عن الشراء على الاقل .

كانت هذه الثقة وهذا الايمان لدى هؤلاء الفلاحين بمثابة صدمة للعجوز سون . . ولأول مرة لم يدر ان كان ثمة مبرر لهذا العذاب الذى تعرض له طيلة هذه الايام القليلة الماضية .

وفيما العجوز سون يتمشى شبه دائخ سمع على حين غرة صوت تهليل . وسار باتجاه ذلك الصوت حيث وجد جماعة من الناس متجمعين حول بغل اسود ، وكل منهم يصدر آهات الاعجاب . وكان شخص بدين قصير القامة يسحب البغل بين الجمهور ، ويبدو على محياه امارات الاعتداد بالنفس . ها ! أليس ذاك هو زوج خالة ابنه ــ عديله ؟ وصعق بما رأى : هذا الفأر الصغير يشترى لنفسه بغلا ؟ عندما كان العجوز سون يواجه الانتقادات العامة فى اثناء "الثورة الثقافية" ، لم يأت هذا الجبان لزيارته الا مرة واحدة ، وفى الليل . . ربما خشى من ان يراه احد ! كان العجوز سون يزدريه ايما ازدراء ، ولكنه اليوم اعتراه احساس انه اقل بكثير من عديله . وليس غريبا ان يشعر العجوز سون بالغيرة وهو يرى كل هؤلاء الناس متجمعين حوله يبدون الاعجاب . وكبت مشاعره المختلطة بالاشمئزاز والاعجاب وادار ظهره للجمهور

وانصرف . ومن المؤكد انه لن يتبادل التحية مع قريبه فى هذا الوقت .

وعاد العجوز سون فى هذه الحالة من الجيشان ليجد جمهورا قليلا من الناس يحيطون بحماره . هل هناك مشتر ؟ واخذ طريقه مستثارا بين الناس ، وقال وهو يحاول ان يقدر نواياهم :

ـ من له رغبة ؟ انا صاحب الحمار .

واستدارت الاعين اليه وهو يحاول اقصى جهوده للسيطرة على نفسه ، مستغربا فى سخط من عدم تمكنه من التماسك . وتقدم رجل فى حوالى السبعين من عمره ، بدا على وجهه ملامح انسانية صافية ، على خده الايسر شامة سوداء ، وله لحية بيضاء . وكان العجوز سون يكن جم الاحترام لهذا النوع من كبار السن . وانتابه احساس انه رأى هذا الوجه فى مكان ما من قبل ولكنه لم يقدر ان يتذكر اين كان ذلك .

يبدو ان هذا الرجل المسن قد القى نظرة فاحصة على الحمار ، اذ اقترب من العجوز سون فى الحال وسأله فى ادب :

ـ كم تريد ثمنا للحمار ؟

ـ كم تدفع ؟

ورد الرجل المسن مبتسما :

ـ لا اقول ما لم تقل .

ورفع العجوز سون اصبعا ثم اصابعه الخمسة .

ـ حمار رائع كهذا . . استغرب لماذا تبيعه .

بدا ان الرجل المسن ليس فى عجلة من امره لتحديد سعر .

وتصرف كأنه يتحدث الى صديق له .

وكان لوقع هذا التعليق شديد الاثر على العجوز سون السريع التأثر ولكنه حاول جهده لاخفاء ما به من اضطراب فقال :

ــ هذا الحمار . . آه . . هذا الحمار صعب التعامل معه .

وحك الندبة على جبهته كما لو يقدم دليلا ، وعندها انفجر الجمهور فى الضحك واضاف يقول فى جدية :

ــ ولكن هذا الحمار يعمل جيدا .

وهز الرجل المسن رأسه موافقا وقال :

ــ هذا صحيح . الحيوانات ذات الامزجة الغريبة تعمل جيدا .

ثم اتجه خلف الحمار وقال من غير قصد :

ــ هل مفصل الرجل مفكوك ؟

وقال العجوز سون موضحا متسرعا :

ــ سيشفى بسهولة . يمكن ان يشفيه طبيب الحمار فى دقيقة .

وعاد بعض الناس الى الضحك ، وابتسم الرجل المسن وهو يمسد فى لحيته . ثم اضاف يقول :

ــ يصعب القول . . اذا كان البيطرى من النوع الذى يتقن العلاج فكل ما يحتاج اليه ضربة من السوط ، ولكن اذا كان من النوع الذى لا كفاءة عنده فلن تجدى جهوده .

تشخيص غريب ! لا بد ان هذا الرجل خبير ومضت فكرة فى ذهن العجوز سون ، فسأل فجأة :

ـ هل لى ان اسألك . . اسمك . . .

ـ وانغ لاو شانغ .

آه ـ كان تخمين العجوز سون صحيحا . انه البيطرى المعجزة الذى طردته محطة البيطرة منذ عشر سنوات . لا غرابة انه كان مألوفا لديه ! ثم تذكر انه دعاه "طبيب الحمار" قبل قليل امام هؤلاء الناس جميعا . فاعتراه حرج شديد . واسرع يصافح وانغ لاو شانغ قائلا فى ذهول :

ـ اعذرنى لضعف ذاكرتى . لم ارك طوال عشر سنوات . يا سيد وانغ . . هل كل شىء معك على ما يرام ؟

رد عليه الرجل المسن دون تباطؤ . . كان وانغ لاو شانغ قد فقد وظيفته منذ عشر سنوات ، وبقى طوال الوقت فى البيت لا يعمل شيئا الى ان رد اليه اعتباره فى السنة الفائتة . ولما كانت قد تقدمت به السن فلم يكن ممكنا سوى نصحه بأن يتقاعد . وقد تحسنت صحته وارتفعت معنوياته مؤخرا ، وافتتح عيادة صغيرة فى بيته . ولكن حدث انه اذا ما اصيب حيوان بعلة خطيرة خارج القرية كان يذهب الى هناك ، لذلك عزم ان يشترى حمارا فنزل الى السوق فى هذا اليوم . وبعد ان اشترى لنفسه حمارا صغيرا ظريفا ، ساعد بعض معارفه فى اختيار ما يرغبون من حيوانات . ولهذا جاء ومعه اصدقاؤه ليروا هذا الحمار .

وبعد هذه المقدمة . . اشار وانغ لاو شانغ الى جماعة المسنين وقال يخاطب العجوز سون فى ادب :

— هؤلاء هم الناس الذين اساعدهم . لماذا لا تقترح سعرا للحمار ؟

واشتدت الحيرة بالعجوز سون . وثبطت عزيمته فى بيع الحمار وهو يرى هذا العدد من الفلاحين يشترون حيوانات جر . ان التخلى عن الحمار فيه كبير حمق الآن . وها هو يسمع ان وانغ لاو شانغ قد بدأ فى عمل خاص فازدادت اثارته . وهذا الرجل يمكنه فى نهاية المطاف ، ان يظهر مواهبه على نحو كامل . اما بخصوصه هو نفسه . . أفلا يعمل للتحديثات الاربعة بنفس ما كان يقاتل به اليابانيين فى ايامه ؟ ليس لدى ما اقدم سوى سوط وستة ارجل فقط ، انا والحمار لمساعدة الوطن واهل قريتى ، بكل ما استطيع ! ما اشدها انانية ان نقلق بأن تغيرا فى سياسات الحكومة سيجلب سوء الحظ ! ولو لم تتغير السياسات فى السنتين الماضيتين فهل تجرأت على ان اشترى حمارا اولا وقبل كل شيء ؟ ألم استطع ان اجد زوجة لابنى ؟ لماذا انا مستعد لأصدق اية اشاعة ترن فى اذنى ؟ وماذا يجرى ان حدثت تغيرات ! الاشياء تتغير فقط حسب مشيئة الناس .

وعزم العجوز سون امره . . لم يعد يريد ان يبيع الحمار . وعلى كل حال . . سيصعب عليه فيما لو تراجع . . فبعد ان قال انه سيبيع الحمار فكيف يغير رأيه فى آخر دقيقة ؟

ووقف يتمتم كلاما . آه ! خطرت بباله فكرة . هدف فى الاصل الى ان يبيع الحمار بمئة يوان ، ولكنه غير من استراتيجيته . فرفع اصبعين وقال لوانغ لاو شانغ :

ـ هذا هو السعر الذى اريد .

وقال لنفسه : هذا سيخيفهم وسيبعدهم عنى .

ـ مئتا يوان !

قالها عدد من الموجودين وقد تلبستهم الدهشة . هذا العجوز ليس عادلا .

وعند ذاك . . سمع صوت اجش من خارج حلقة الناس ، حين تقدم رجل الى الوسط وقال :

ـ كم ؟ مئتا يوان لهذا الحمار العفن ؟ هذه جريمة بكل ما فى الكلمة من معنى !

كان هذا الصوت الهادر من الجزار هو ار .

ورد عليه العجوز سون فى برود :

ـ حسن ! اذا لم يكن لديك رغبة فهذا شأنك .

وعلى الفور فك الحمار وهم ان يغادر المكان . وتقدم وانغ لاو شانغ سادا امامه الطريق وقال :

ـ انتظر قليلا !

وشد الحبل من يد العجوز سون والتفت الى اصدقائه وقال لهم :

ـ من يريد ان يشترى ؟

. . . . . .

واخذ كل منهم يكز الآخر . . لم يجرؤ احد منهم ان يفتح فاه ، وحاول كل منهم بكل ما استطاع ان ينسحب فى هدوء وبسرعة . واتضح انه لم يكن لديهم ادنى رغبة فى شراء

الحمار . وضحك العجوز سون فيما بينه وبين نفسه .

وضحك وانغ لاو شانغ الذى عرف تماما ما كان يدور فى رأس كل واحد .

— ارى ان كل شخص يظن ان السعر مرتفع جدا ، ولكن لو كانت رجله سليمة لقلت ان السعر منخفض جدا ، اذ اننى ارى انه يستحق . . .

ورفع ثلاثة اصابع وقال :

— ثلاثمئة يوان !

وفغر كل من كان موجودا فمه . وكان ما زال المسنون فى حيرة من الامر .

وفجأة . . اختفت البسمة من على وجه وانغ لاو شانغ ، واخذ يلف كميه ، ثم عقد يديه وهزهما قائلا لهؤلاء المتحلقين :

— ارجو ان يرجع كل منكم بضع خطوات . افسحوا من فضلكم . . افسحوا !

وتناول السوط من يد العجوز سون المضطرب البائس ووضعه وراء ظهره . وطلب من العجوز سون ان يشد رجل الحمار اليمنى المتدلية ، فيما اتجه ببطء نحو الجانب الايسر الامامى للحمار . وكان عدد المتفرجين قد ازداد ، يدفعهم الفضول ليروا اى نوع من السحر سيقدمه وانغ لاو شانغ ، وتراجعوا فى صمت ليفسحوا له مجالا . وساد الصمت حتى اصبح من الممكن سماع صوت الابرة .

ووقف وانغ لاو شانغ حوالى ثلاثين ثانية فى هدوء ازاء الجانب

الايسر للحمار . وشعت من عينيه الرأفة واللطف وهو ينتظر ان تختفى الخشية من نفس الحمار . وفجأة ، صاح بأعلى صوته " هاى ! " وسفع اذن الحمار اليسرى بالسوط بشدة . وتراجع الحمار الذى فوجئ بذلك راميا بكامل ثقله على رجله الخلفية اليمنى ، وسمع مع ذلك صوت طحن واضح . ولما هدأ ووضع اقدامه الاربعة على الارض ، عادت الرجل الخلفية الى موضعها .

هذا الفن الذى يدعى "السوط السحرى" معروف ومشهور ولكنه نادرا ما يستخدم . وهو ليس سوى استخدام ثقل جسم الحيوان لدفع العظم للعودة الى مفصله ، وقد اثبت فعالية اشد من فن الحك المعتاد .

واعاد وانغ لاو شانغ السوط الى العجوز سون وتناول منه الحبل وقاد الحمار مرتين حول الحلقة التى شكلها المتفرجون . لم يعرج الحمار الا قليلا بسبب الالم الذى لم يتح له وقت ليخففه عنه ، ولكن الرجل عادت كما السليمة تماما . وهلل المتفرجون والتهبت اكفهم من التصفيق .

وهنا اندفع من طلبوا من وانغ لاو شانغ ان يساعدهم فى شراء حمار واخذوا ينافس كل منهم الآخر ويقول :

ـــ انا اشترى !

ـــ انا طلبت اولا من السيد وانغ .

ـــ كلا . . انا اشترى !

. . . . . .

وحمى النقاش بين المشترين فصاح العجوز سون فجأة :

ـــ لا اريد ان ابيع !

وخيم السكون على جمهور الحاضرين . وتثبتت الاعين جميعا على هذا العجوز وحماره . واحمر وجه العجوز سون كمثل دجاجة وضعت لتوها بيضة . وبحركة سريعة ، خطف الرسن من يد وانغ لاو شانغ واستدار ليغادر المكان .

ها قد حنث البائع بكلامه ! وتغيرت حالة الجمهور على الفور . واخذوا يقلبون النظر من وجه البائع الى وجوه المشترين وهلم جرا . ماذا كان يحدث ؟

كان احد المشترين المحتملين انسانا عجوزا فى غاية النحافة . . فى الواقع نفس الرجل الذى جاء للعجوز سون فى اول مرة . وصاح فيه بنظرة كلها حزم وتصميم :

ـــ لقد حددت سعرا ، ألا تريد ان تبيع ؟ اذن . . ما الذى حدا بك ان تحدد سعرا ؟

وصاح آخرون يؤيدون قوله :

ـــ عليك ان تبيع الآن ! ماذا سيقول الناس ؟

وصاح شخص بجمهور الحاضرين :

ـــ سيبيع اذا ما ضرب ضربا مؤلما !

ـــ خذوا الحمار اولا !

اندفعت جماعة من الناس فى صرخة واحدة تحاول اخذ الرسن من يدى العجوز سون .

وجاء وانغ لاو شانغ فى حينه الى جمهور المشترين طالبا هدنة ويحاول اقناعهم :



— لا تتساخفوا ! ثمة حمير كثيرة معروضة للبيع . . فليذهب كل منكم وليختر حمارا .

وابتسم لهم ابتسامة ترضية فيما انضم اليه اناس ليهادئوا الآخرين .

واما بالنسبة للعجوز سون فقرر ، وقد حقق رغبته ، ان افضل شيء هو ان ينسل من هذه الورطة بأسرع ما يمكن . فاندفع من بين الجمهور كأنما صمت اذناه عن المشاجرة التى خلفها وراءه ، والقى بنفسه على ظهر الحمار وصاح " شى ! هيا يا حمارى " . . وراح لحال سبيله .

كلمة عن المؤلف



تشاو بن فو . . من مواليد ارياف محافظة فنغشيان لمقاطعة جيانغسو لسنة ١٩٤٧ . تخرج فى المدرسة الثانوية لمحافظة فنغشيان سنة ١٩٦٧ ، وعاد الى الريف يعمل كادرا فى فيلق الانتاج . وفى سنة ١٩٧١ . . عمل مراسلا فى فرقة الانباء بالمحافظة ثم فى دائرة الدعاية للجنة الحزبية للمحافظة . وفى سنة ١٩٨٠ . . نقل الى محطة اذاعة المحافظة حيث يعمل هناك محررا .

قصة « العجوز سون يبيع الحمار » اول عمل ادبى له وقد ظهرت له رواية قصيرة بعنوان « على رمال النهر الاصفر » فى سنة ١٩٨٢ .

الفهرس

مطبعة اللغات الاجنبية بكين

توزيع

الشركة الصينية العالمية لتجارة الكتب

(كوزى شوديان)

ص . ب ٣٩٩ بكين - الصين

中国当代短篇小说选（上）

（1980——1986）

李国文
张贤亮 等著

蔡荣　等插图

凤凰丛书

*

外文出版社出版

（中国北京百万庄路24号）

外文印刷厂印刷

中国国际图书贸易总公司

（中国国际书店）发行

北京399信箱

1989年（36开）第一版

（阿）

ISBN7—119—00440—9/I·48

00550

10—A—2269PA

تصميم الغلاف : تشو تشن آن

هذه المختارات القصصية

تضم ثمانى قصص قصار من عيون الأدب الصينى . وتطرق هذه القصص مواضيع اجتماعية متنوعة ، وقد كتبت بأساليب مختلفة . فقصتا « صاحبة الكلمة الاخيرة فى الاسرة » و« العجوز سون يبيع الحمار» تصوران للقراء التغيرات الجديدة التى حدثت فى ارياف الصين نتيجة لممارسة السياسات الاقتصادية الجديدة . وتكشف قصة « خسوف القمر» ما عاناه الكادر العجوز فى مسيرته ، وتصف عدم نسيانه الكادحين ابدا . وتصور قصة « الجسد والروح » مثقفا يحب الوطن من صميم قلبه على الرغم مما تعرض له من ظلم شديد . اما قصص « الوشاح الزهرى المهفهف» و« حكاية بحيرة ناور الكبرى » و« البائعة » فتروى الاحداث الرائعة والاخلاق السامية التى يتمتع بها ابطالها ، ... وصف العادات والتقاليد الشعبية وحكايات الزواج والح...

وتتخلل هذا الكتاب عدة رسوم . وفى نهاية ... لكاتبها مع نبذة موجزة عن حياته .

ISBN7-119-00440-9